السيرة النبوية

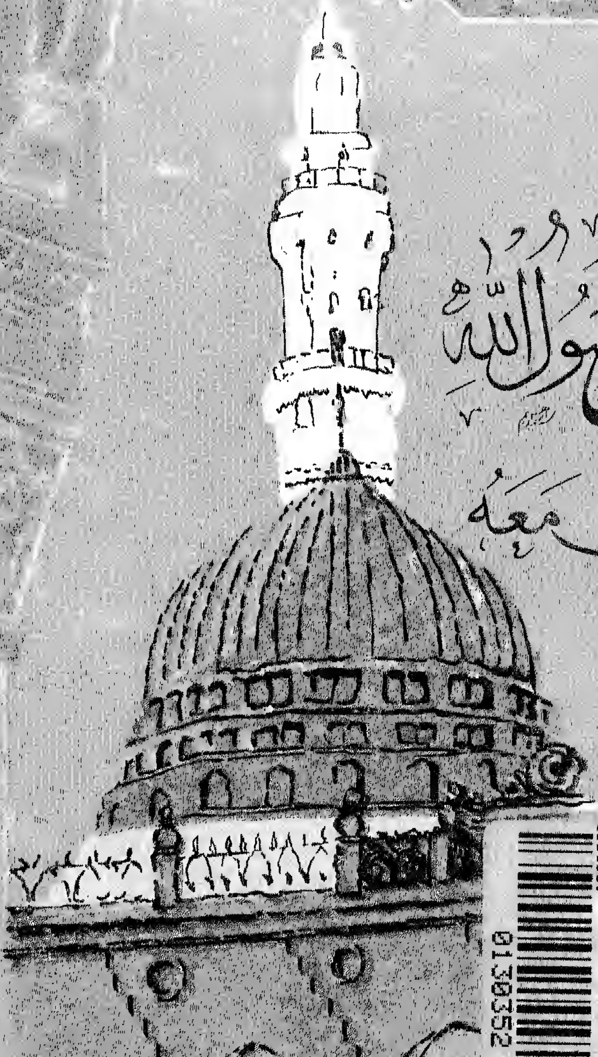

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ

١٦

فتح مكة

عبد الحميد جودة السحار

Bibliotheca Alexandrina
01303352

السيرة النبوية

محمد رسول الله والذين معه

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

فتح مكة

رمضان ٨ هـ

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

« وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

(قرآن كريم)

١

خرج مالك بن عباد — وهو رجل من بنى الحضرمى — تاجرا ، فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه وأخذو ماله ، فأصبح بين بنى بكر وخزاعة ثأر . فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه . فعدت خزاعة قبيل الإسلام على أشراف من بنى بكر فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم . فبينا بنو بكر وخزاعة على ذلك حجز بينهم الإسلام وتشاغل الناس به ، فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله — ﷺ — وبين قريش كان فيما شرطوا لرسول الله ﷺ : أنه من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله — ﷺ — وعهده فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها فليدخل فيه : فدخلت بنو بكر فى عقد قريش ، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله — ﷺ .

ونامت العداوة التى كانت ناشبة بين قريش والمسلمين ، فرأت بنو بكر أن تستعين بقريش للثأر من خزاعة : فمشى بعض أشراف بنى بكر إلى سادات قريش يسألونهم أن يمدوهم بالرجال والسلاح على خزاعة ، فأمدوهم برجال خرجوا معهم مستخفين ، فيهم صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وعكرمة بن أبى جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو وظنوا أنهم لم يُعرفوا .

وكانت خزاعة على الوتير — ماء قريب من مكة — وكانوا آمنين لا يخشون غدرا ، وإذا بنوفل بن معاوية قائد بنى بكر يتقدم إليهم متسترا بالليل ومعه القرشيون متنكرين متنقبين ، فبيتوا خزاعة ليلا وهم غافلون فقتلوا منهم

رجالا ، وارتفعت الأصوات فخف الخزاعيون إلى سيوفهم وهم فى ذهول ، واقتتل الفريقان فقتل من خزاعة عشرون وتقهقر الخزاعيون إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر :

ـــ يا نوفل إنا دخلنا الحرم ، إلٰهك إلٰهك .

كان الحقد يملأ صدر نوفل ، فقائد بنى بكر يرى أعداءه فى متناول السيوف ، إنها فرصة لا تعوض ليثأر من خزاعة ، فقال دون تفكير :

ـــ لا إلٰه لى اليوم ، يا بنى بكر أصيبوا ثأركم فلعمرى إنكم لتسرقون فى الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟!

واستمر القتال حتى لجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء ودار مولى لهم يقال له رافع ، فلما التقط تميم بن أسد أنفاسه وسكن روعه راح يتذكر ما كان ، إنه خرج مع رجل من قومه يقال له منبه وكان منبه رجلا معوزا ، فلما جن الليل باتا بالوتير ، فإذا ببنى بكر ومن تطوع للقتال معهم من قريش ينقضون عليهم ويضعون فيهم السيوف ، فقال له منبه :

ـــ ياتميم انج بنفسك ، فأما أنا فوالله إنى لميت قتلونى أو تركونى ، لقد انبت فؤادى .

إن تميما ليرى نفسه وقد أطلق ساقيه للريح وقد ترك صديقه ليقع أسيرا فى أيدى الأعداء ، وإنه ليحس عرق الخجل يتصبب منه ، وأراد أن يفر من تأنيب ضميره الذى كان يخزه وخزا أليما فراح يعتذر من فراره عن منبه :

لما رأيت بنى نفاثة أقبلوا   يغشون كل وتيرة وحجاب(١)
صخرا ورزنا لا عريب سواهم   يزجون كل مقلص خناب(٢)

---

(١) الحجاب : ما اطمأن من الأرض وخفى .

(٢) لا عريب : لا أحد . الخناب : الفرس الواسع المنخرين .

وذكرت ذحلا[1] عندنا متقادما فيما مضى من سالف الأحقاب
وخشيت ريح الموت من تلقائهم ورهبت وقع مهند قضاب
وعرفت أن من يثقفوه[2] يتركوا وطرحت بالمتن العراء ثيابى
قومت رجلا لا أخاف عثارها لحما لمجرية وشلو غراب
ونجوت لا ينجو نجائى أحقب[3] عِلج أقب مشمِّر الأقراب
تلحى ولو شهدت لكان نكيرها بولا يبلّ مشافر القَبقاب[4]
القوم أعلم ما تركت منبها عن طيب نفسى فاسألى أصحابى

وسكتت السيوف وانطلق الشعر يروى فى مبالغة ما كان بين كنانة وخزاعة ، فراح شعراء كنانة يقولون إنهم حبسوا خزاعة فى دار الذليل وألجئوهم إلى دار العبد رافع بعد أن شفوا نفوسهم . وجعل شعراء خزاعة يذكرون تلك الأيام التى كانت بينهم وبين كنانة وكيف أنهم لم يدعوا لهم سيدا يجمعهم فى المجالس . وبينا الفريقان يتراشقان بالأشعار خرج عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين راكبا من خزاعة وانطلق إلى المدينة ليخبر رسول الله — ﷺ — بأن بنى بكر وقريش قد تظاهروا على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ — مما استحلوا من خزاعة .

وذاع فى مكة أن صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وعكرمة بن أبى

---

(١) الذحل : طلب الثأر .
(٢) يثقفوه : يجدوه . المجرية : اللبؤة .
(٣) أحقب : حماره الوحش . العلج : الحمار . الأقب : الضامر البطن .
(٤) القبقاب : من أسماء الفرج .

جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو قد اشتركوا مع بنى بكر فى الغدر بخزاعة ، فخشيت قريش أن يبلغ ذلك رسول الله — ﷺ — فمظاهرتهم لبنى بكر نقض صريح للعهد الذى كان بينهم وبين رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، وقد يهيج ذلك الحدث المسلمين ويحركهم للمسير إلى مكة ، فندموا على ما فعلوا وجاء الحارث بن هشام إلى أبى سفيان وأخبره بما فعل سادات قريش فقال :

— هذا أمر لم أشهده و لم أغب عنه وإنه لشر . والله ليغزونًا محمد . ولقد حدثتنى هند بنت عتبة أنها رأت رؤيا كرهتها ، رأت دما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة .

فكره القوم ذلك وقالوا لأبى سفيان :

— ما لها سواك ، أخرج إلى محمد فكلمه فى تجديد العهد وزيادة المدة .

فخرج أبو سفيان ومولى له على راحلتين . فأسرع السير وهو يحسب أنه أول من خرج من مكة إلى رسول الله — ﷺ ، وما دار بخلده أن عمرو بن سالم والذين معه من خزاعة قد خرجوا قبله ، وأن رسول الله — ﷺ — كان صبيحة الوقعة التى جرت بين بنى بكر وقريش وبين خزاعة فى بيت عائشة فقال لها :

— حدث فى خزاعة حدث .

فقالت فى دهش :

— يا رسول الله أترى قريشا يجترئون على نقض العهد الذى بينك وبينهم ؟

— ينقضون العهد لأمر يريده الله .

— خير ؟

— خير .

وأنه عليه السلام بات عند ميمونة ليلة بعد ذلك فقام ليتوضأ للصلاة ، فسمعته يقول :

ـــ لبيك لبيك لبيك ! نصرت نصرت نصرت .

فانطلقت إليه عليه السلام وقالت :

ـــ كأنك تكلم إنسانا ، هل كان معك أحد ؟

ـــ هذا راجز بنى كعب يزعم أن قريشا أعانت عليهم بكر بن وائل .

فأقاموا ثلاثا ثم صلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ الصبح ، وقدم عمرو بن سالم وركب بنى خزاعة على المدينة ، فوقف عمرو ورسول الله ـــ ﷺ ـــ جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس فقال :

يا رب إنى ناشد محمدا ... حِلف أبينا وأبيه الأتلدا[1]

قد كنتم ولدا وكنا والدا ... ثُمّت أسلمنا فلم ننزع يدا

فانصر هداك الله نصرا أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خَسْفاً وجهه تربَّدا

فى فيلق[2] كالبحر يجرى مزبداً ... إن قريشا أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لى فى كداء رُصَّدا

وزعموا أن لست أدعو أحدا ... وهم أذلّ وأقل عددا

هم بيتونا بالوتير هُجَّدا ... وقتلونا رُكَّعا وسجدا

وبلغ صوت الراجز دور النبى فأعارته عائشة سمعها وقد أشرق وجهها بنور الإيمان . إن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ

(١) الاتلد : العريق النسب .

(٢)الفيلق : الجيش .

حدثها قبل أن يصل وفد خزاعة بأن قريشا قد فجرت فى عهدها ، وها هو ذا شاعرهم يفزع إلى رسول الله — ﷺ — يستنصر — وظلت عائشة تصغى وهى ساكنة وقد أطبقت شفتيها وإن كانت كل خلجة من خلجات نفسها تشهد أن محمدا رسول الله حقا . وراحت ميمونة تلقى السمع إلى عمرو بن سالم وقد ترقرقت فى عينيها الدموع . إن رسول الله — ﷺ — قال لها : « هذا راجز بنى كعب يزعم أن قريشا أعانت عليهم بكر بن وائل » . وها هو ذا شاعر بنى خزاعة ينشد فى مسجد الرسول شعرا يناشد فيه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — الحلف الذى بينهما ويستنصره . فلما انتهى عمرو بن سالم من شعره ساد المسجد سكون ، وأرهفت الآذان وتعلقت الأعين بشفتى رسول الله عليه السلام فإذا به يقول فى صوت جهورى :

— نصرت يا عمرو بن سالم .

ودمعت عينا رسول الله — ﷺ ، وقام وهو يجر رداءه ويقول :

— لا ينصرنى الله إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر به نفسى .

وأشرقت وجوه بنى خزاعة بالفرح ، وزاد سرورهم لما قال عليه السلام :

— خزاعة منى وأنا من خزاعة .

ثم عرض له عليه السلام سحاب فقال :

— إن هذا السحاب ليستهل بنصر بنى كعب .

و لم يطل مكث وفدبنى خزاعة فى المدينة ، فلما عزموا على الرحيل قال لهم عليه السلام :

— ارجعوا وتفرقوا فى الأودية .

ليخفى عليه السلام مجيئهم له . فرجعوا وتفرقوا فذهبت فرقة إلى الساحل وفيهم عمرو بن سالم ، وفرقة فيهم بديل بن ورقاء لزمت الطريق .

وراح أبو سفيان وغلامه يطويان الأرض التى تفصل بين مكة والمدينة

وياطالما قطع أبو سفيان ذلك الطريق . إنه طواه تاجرا وغازيا ، وكان فى كل مرة يفكر فى ربح تجارته أو فى الغنائم التى سيغنمها من حرب المسلمين وما كان القلق يساوره . أما فى هذه المرة فإنه يستشعر مرارة ، فهو فى طريقه إلى سفارة ذليلة سواء أنجح فيها أم أخفق . إنه ذاهب إلى عدوه اللدود يلتمس منه شد العقد والزيادة فى المدة بعد أن كانت أضعف أمانيه أن يعود ذات يوم إلى مكة وهو يسوق محمدا وأصحابه فى الأسرى .

كان يريد أن يكتم أنفاس الإسلام المترددة فى المدينة . وقد أنفق الأموال وهو الرجل الشحيح فى سبيل القضاء على من ينافسه فى زعامة قريش . وقد حالف اليهود ليجتث الخطر الذى كان يتفاقم شأنه على طريق تجارة الشام ، ولكن كل محاولاته قد باءت بالإخفاق كأن هناك قوة فى السماء ترعى هؤلاء المسلمين كما يزعم محمد .

كان الحسد ينهش فؤاده لما زعم محمد أنه رسول رب العالمين وصدقه الناس ، وزاد فى حنقه أن محمدا لم يكتف بقريش والأوس والخزرج بل راح يطالب بدولة عالمية يسود فيها الإسلام . إنه بشر أصحابه بملك فارس والروم ولم يكتف بذلك القول بل أرسل الجيوش لتناوئ هرقل على حدود الشام .

وأطرق أبو سفيان فلم يستطع أن يسخر فى وحدته بما كان يسخر منه وهو فى نادى قومه عند الحرم . وطاقت بذهنه ذكريات . إنه يرى نفسه وقد خرج وأمية بن أبى الصلت الثقفى تجارا إلى الشام . فكلما نزلوا منزلا أخذ أمية سِفراً له يقرؤه عليهم . وإنه ليرى فى وضوح ليلة أن نزلوا قرية من قرى النصارى فجاءوا أمية وأكرموه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيوتهم . وإنه ليراه وقد آب فى وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما . ومس أذنى أبى سفيان صوت أمية بن أبى الصلت كأنما كان آتيا من وراءه حجب السنين :

ـــ هل لك يا أبا سفيان فى عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب تسأله ؟

ـــ لا أرب لى فيه ، والله لئن حدثنى بما أحب لا أثق به ، ولئن حدثنى بما أكره ، لأجدن منه .

ورأى أبو سفيان فى مرآة نفسه أمية بن أبى الصلت يذهب وشيخا من النصارى يتخلف ثم يقول له :

ـــ ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟

ـــ لست على دينه .

ـــ وإن ، فإنك تسمع منه عجبا وتراه .. أثقفى أنت ؟

ـــ لا ولكن قرشى .

ـــ فما يمنعك من الشيخ ؟ والله ليحبكم ويوصى بكم .

ورأى أبو سفيان بعين الخيال أمية بن أبى الصلت وهو يعود بعد هدأة الليل فيطرح ثوبيه ثم ينجدل على فراشه فما نام ولا قام حتى أصبح كئيبا حزينا ما يكلمهم ولا يكلمونه ، ورن فى أعماق نفسه صوت أمية :

ـــ ألا نرحل ؟

ـــ وهل بك من رحيل ؟

ـــ نعم .

ودار فى ضميره ذلك الحوار الذى دار بينهما قبل أن يبعث ابن عبد الله :

ـــ ألا تحدث يا أبا سفيان ؟

ـــ وهل بك من حديث ؟ والله ما رأيت مثل الذى رجعت به من عند صاحبك .

ـــ أما إن ذلك لشىء لست فيه ، إنما ذلك لشىء وجلت منه من منقلبى .

ـــ وهل لك من منقلب ؟

ـــ أى والله لأموتن ثم لأحيين .

ـــ هل أنت قابل أمانتى ؟

ـــ على ماذا ؟

ـــ على أنك لا تبعث ولا تحاسب .

إن أمية ضحك فى ذلك اليوم وقال :

ـــ بلى والله يا أبا سفيان لنبعثن ثم لنحاسبن ، وليدخلن فريق الجنة وفريق النار .

سمع أبو سفيان ذلك القول فى تلك الأيام فقال لصاحبه فى هدوء : « ففى أيهما أنت أخبرك صاحبك ؟ » . قالها فى سخرية هازئة بفكرة البعث بعد الموت . إلا أنه وهو فى طريقه إلى المدينة تقاصرت نفسه لما رن فى جوفه حديث أمية ابن أبى الصلت : فقرآن محمد ما انفك يردد الدار الآخرة والثواب والعقاب والجنة والنار حتى كاد إيمانه يتزعزع بالطبع المحيى والدهر المفنى ، وطافت به موجة من رهبة لما مد عينيه إلى السماء ، ثم سرعان ما عاد إلى الإصغاء إلى ما دار بينه وبين أمية فى تلك الرحلة :

ـــ هيا يا صخر .

ـــ ما تشاء .

ـــ حدثنى عن عتبة بن ربيعة أيجتنب المظالم والمحارم؟ .

ـــ أى والله .

ـــ ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

ـــ أى والله .

ـــ وكريم الطرفين وسط فى العشيرة ؟

ـــ نعم .

ـــ فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟

ـــ لا و الله ما أعلم .

ـــ أمحوج هو ؟

ـــ لا بل هو ذو مال كثير .

ـــ وكم أتى عليه من السن ؟

ـــ زاد على المائة .

ـــ فالشرف والسن والمال أزرين به .

ـــ ولم ذاك يزرى به ؟ لا والله بل يزيده خيرا .

ـــ هو ذاك .

كان ذلك الحديث فى تلك الليلة أشبه بالألغاز ، وأما وأبو سفيان ومولاه يغذان[١] السير إلى المدينة فقد كان الأمر واضحا وضوح النهار . إنه يرى صورة محمد بن عبد الله تملأ الأفق وتسد عليه المنافذ ، فأينما يولى وجهه يراه . وإن صوت أمية بن أبى الصلت يرن فى الفضاء حتى ليعلو على كل صوت :

ـــ هو رجل من العرب .. من أهل بيت يحجه العرب .. هو من إخوانكم من قريش .. رجل شاب حين دخل إلى الكهولة . بُدُوٌّ أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة ، أكثر جنده من الملائكة .

وامتلأت جوانح أبى سفيان رهبة وربا خوفه[٢] لما رن فى أغوار نفسه صوت ضميره يرتل : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن

---

(١) يغذان : يسرعان .

(٢) ربا خوفه : زاد .

غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابرالكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله فإن الله شديد العقاب »[١] .

وسرت فى بدن أبى سفيان قشعريرة ، وراح يقلب وجهه فى الكون العريض فاستشعر لأول مرة حقارة شأنه . وانثالت على رأسه ذكريات القتال الذى دار بينهم وبين محمد وصحبه : كانت كل الظروف المادية تؤكد سحق المسلمين ولكن النتائج كلها كانت على عكس كل تقدير . تقوضت القوى المتفوقة فى العدد والعتاد أمام قوة خفية ، إنها نصر الله ، إنها مدد الله من ملائكته ، جنود محمد الذين حدثه عنهم أمية بن أبى الصلت يوم أن كانوا عائدين من الشام إلى مكة قبل أن يعود إليهم محمد بن عبد الله من غار حراء يزعم أنه رسول رب العالمين .

وهمس فى وجدان أبى سفيان هامس : « لماذا لا تذهب إلى المدينة لتعلن على الملأ إسلامك كما فعل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وسادات قريش من قبلهما ؟! . فانتفض فوق راحلته انتفاضة قوية كأنما يطرد ذلك الخاطر

---

(١) الأنفال ٧ — ١٣

الذى انسل إلى نفسه فى غفلة منه ، وقال فى صوت غاضب كأنما يؤنب نفسه :

ـــ أو يذهب شرفى ؟!

كان أبو سفيان يعلم أن محمدا ـــ ﷺ ـــ صدوق لا يكذب قد جاء أمرا لا يبقى معه شرف . فقاتله حمية كراهة أن يذهب شرفه .

وألح عليه ما دار من حديث بينه وبين أمية بن أبى الصلت بعد أن بعث الله محمدا عليه السلام :

ـــ يا أمية ، قد خرج النبى الذى كنت تنعته .

ـــ أما إنه حق فاتبعه .

ـــ ما يمنعك من اتباعه ؟

ـــ ما يمنعنى إلا الاستحياء من نساء ثقيف ، إنى كنت أحدثهن أنى هو ثم يريننى تابعا لغلام من بنى عبد مناف .

وأطرق أبو سفيان وقد زوى ما بين حاجبيه وقطب جبينه ، فصوت أمية الآتى من بحر الذكريات كان كخنجر يطعن كل آماله فى سفارته إلى المدينة : « كأنى بك يا أبا سفيان قد خالفته ثم قد ربطت كما يربط الجدى حتى يأتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد ».

و لم يستطع أبو سفيان أن يلوى شفته السفلى استهزاء بأقوال أمية بن أبى الصلت التى ظلت حية فى ضميره طوال تلك السنين ، فراح يحث راحلته على الإسراع ليفر من أشباح الماضى التى تحاول أن تمحو إشراقة الأمل فى المستقبل المجهول .

٢

راح أبو سفيان ومولاه يغذان السير . إنه يريد أن يصل إلى المدينة قبل أن تتصل خزاعة برسول الله ـــ ﷺ ـــ وأن تخبره عليه السلام بأن قريشا قد نقضت ما كان بينها وبينه من عهد . وكان أبو سفيان يطمع فى أن يشد العقد ويزيد فى المدة فقد أقرت قريش بعجزها عن وقف رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ إذا ما أراد أن يفتح مكة ، فلم يبق فى جعبتها إلا السلم أو الاستسلام .

ورجع أولئك الركب من خزاعة ، فلما كانوا بعسفان لقوا أبا سفيان ومولى له كلا على راحلة فقال لهم :

ـــ هل ذهبتهم إلى المدينة ؟

ـــ لا .

وقال بديل بن ورقاء :

ـــ إنما كنا فى الساحل نصلح بين الناس فى قتل .

ـــ أما أتيت محمدا .

ـــ نعم : ما أتيت محمدا .

وصبر أبو سفيان وانتابه قلق ، حتى إذا ما انطلق بديل والذين معه إلى مكة قال أبو سفيان لمولاه :

ـــ لئن كان جاء إلى المدينة لقد علف بها النوى .

فجاء منزلهم ففتت أبعار أباعرهم فوجد فيها النوى ، قال أبو سفيان فى

غيظ :

ــ أحلف بالله لقد جاء القوم محمدا .

وكان رسول الله ــ ﷺ ــ في المسجد ومن حوله المهاجرون والأنصار يلقون إليه أسماعهم . فقال عليه السلام :

ــ كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد فى المدة وهو راجع بسخطه .

وانطلق أبو سفيان وهو يطوى الصحراء شاردا وقد اشتد وجيب[1] قلبه . إنه كان يقطع هذه الفيافى شامخا بأنفه يتيه بشرفه فهو شيخ بنى أمية بل وسيد قريش . فكانت إيماءته أمرا وكلمته قانونا . أما اليوم فهو ذاهب إلى مسجد عدوه يلتمس منه أن يشد العقد الذى كان غائبا عنه ويزيد فى مدته ، إنه يستشعر بالذل يملأ جوانحه ولكنه يحاول أن يقهر عواطفه المتمردة ، فليس لمكة من نجاة إلا أن تنجح سفارته وأن يقبل ابن أبى كبشة تجديد العقد وزيادة المدة .

ولاحت لأبى سفيان أرباض المدينة فانبهرت أنفاسه وراح يصر على أسنانه ، فقد غاظه أن ليس له من الأمر شيء وأن مفتاح الموقف لم يعد فى يده . بل فى يد نبى الإسلام إن شاء جدد العقد وأن شاء قطعه .

وتذكر ابنته أم حبيبة . إنها هناك فى دور النبى وصارت أما للمؤمنين . فإن كانت قد تركت دين الآباء ودخلت فيما يدعو إليه ابن عبد الله فإنها لن تتخلى عنه ولن تجحد أبوته ولن يرضيها أن يعود أبوها إلى قريش وفى ركابه الخزى والخذلان . فتألقت فى نفسه بارقة أمل فعزم على أن يجيء أم حبيبة وأن يوسطها بينه وبين زوجها وأن تضم صوتها إلى أصوات قومها فى شد العقد وزيادة المدة .

وانساب أبو سفيان ومولاه فى المدينة فلم يهرع أحد لاستقباله و لم يلتفت أحد لدخوله . فاستشعر قهرا فقد كان أشراف الأوس والخزرج يأتون إليه مهطعين[١] والبشر يعلو الوجوه قبل أن يغزو محمد أفئدة القوم بسحره المبين . فتحرك سخطه وراودته فكرة أن يلوى أعنة راحلته وأن يرجع إلى مكة لولا بصيص من رجاء لمع فى ظلمات يأسه ، فاندفع إلى مسجد الرسول ليواجه واقعه كيفما يكون .

ووقف على باب المسجد ومد عينيه فألفى محمدا — ﷺ — فى أصحابه فخفق قلبه رهبة ، ولم يطل وقوفه فسرعان ما اتجه إلى دور النبى ودخل على ابنته أم حبيبة وقد افتر ثغره عن ابتسامة قلقة فلم يبد على ابنته أنها فرحت بمقدمه ، فحسب أن المفاجأة قد أذهلتها . وأراد أن يجلس على فراش النبى — ﷺ — فطوته عنه ، فأحس كأن خنجرا مسموما ضرب إلى قلبه فقال فى صوت فيه انين وإن حاول أن يبدو هادئا :

— يا بنية ، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟

— بل هو فراش النبى — ﷺ — وأنت مشرك نجس .

فدار به المكان ولو طاوع إحساساته للطمها لطمة تنفس عن غضبه ، ولكنه كبح جماح نفسه وقال :

— والله لقد أصابك بعدى شر .

فقالت فى ثقة :

— بل هدانى الله تعالى للإسلام وأنت تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر . واعجبا منك يا أبت وأنت سيد قريش وكبيرها !

— أنا أترك ما كان يعبد آبائى وأتبع دين محمد !

---

(١) مهطعين خاضعين أذلاء .

وخرج وهو حانق ، وزاد فى حنقه أنه كان يعرف فى أعماق ذاته أنه يعبد نفسه . إنه لا يريد أن يتبع دين محمد حتى لا يقر لابن عبد الله بالزعامة ، وقد عاش طوال حياته يحلم بزعامة قريش . وذهب إلى المسجد حتى أتى النبى — ﷺ — وهو يجاهد ليبدو هاشا باشا . وفر عينيه فى الحاضرين فإذا بمحمد عليه السلام ومن حوله المهاجرون والأنصار . ومد بصره إلى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن عفان وسرعان ما غض الطرف . وحيا القوم بتحية الجاهلية فردوا عليه بتحية الإسلام .

والتفت إلى رسول الله — ﷺ — وقال :

— إنى كنت غائبا فى صلح الحديبية فامدد العهد وزدنا فى المدة .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— لذلك جئت يا أبا سفيان ؟

— نعم .

— هل فيكم من حديث ؟

— معاذا الله نحن على عهدنا وصلحنا لا نغير ولا نبدل .

وصوبت أعين القوم إلى أبى سفيان . إنه يحاول أن ينكر ما كان بين بنى بكر وبين خزاعة ومعاونة قريش بنى بكر على خزاعة حلفاء رسول الله عليه السلام . إنه لا يريد أن يعترف بأن قريشا قد نقضت العهد ومزقت صلح الحديبية . فلو اعترف لأعطى المسلمين الحق المشروع فى غزو مكة . وهو ما تجشم السفر وقبل هذه السفارة المذلة إلا ليمنع سير المسلمين إلى أم القرى ليبقى له السلطان . وأرهف السمع ليلتقط ما يقول ابن عبد الله فقال الرسول — ﷺ :

— فنحن على مدتنا وصلحنا .

فأعاد أبو سفيان القول :

ـــ امدد العهد وزدنا فى المدة .

فلم يرد عليه شيئا . فقام أبو سفيان مطرقا يجر أذيال الخيبة ، وخرج من مسجد النبى عليه السلام لا يكاد يرى شيئا فقد أعماه سخطه ، حتى إذا ما خلا بنفسه راح يقاوم يأسه فهداه تفكيره إلى أن ينطلق إلى أبى بكر يلتمس منه أن يكلم له رسول الله ـــ ﷺ ـــ فخرج إلى العالية حيث كان أبو بكر ، فلما دخل عليه قال :

ـــ يا أبا بكر جدد العقد وزدنا فى المدة .

ـــ جوارى فى جوار رسول الله ـــ ﷺ ـــ وحاول أبو سفيان أن يثنى أبا بكر عن قراره وأن يزين له أن يكلم له رسول الله عليه السلام . ولكن أبا بكر أبى أن يكلم رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فى أمر صمت عنه . فقام أبو سفيان وخرج يجر رجليه وهو يحس كأنما يحمل على ظهره أثقال الأرض .

واستشعر أبو سفيان كأنما قطعت له أثواب الذل . فراحت تراوده فكرة أن يقفل راجعا إلى مكة . ولكنه أبى أن يعود بالإخفاق فعزم فى إصرار على أن يأتى أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ وأن يلتمس منهم أن يكلموا له النبى عليه السلام لعل قلب أحدهم يلين لشيخ بنى أمية ، فانطلق إلى عمر بن الخطاب ليتجرع كأس المهانة حتى الثمالة(١) .

وفى صوت خافت لون بالأسى كلم عمر . وفى صوت حازم قوى قال عمر :

ـــ أنا أشفع لكم إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فوالله لو لم أجد إلا الذر

---

(١) الثمالة : بقية الكأس .

لجاهدتكم به .

ـــ إن بيننا و بينكم حلفا .

ـــ ما كان من حلفنا جديدا أخلقه الله . و ما كان مقطوعا فلا و صله الله .

فرمى أبو سفيان عمر بن الخطاب بنظرة قاسية ثم قال :

ـــ جزيت من ذى رحم شرا .

وراح أبو سفيان يدور فى طرقات يثرب وهو حاقد على نفسه تتردد أنفاسه فى أذنيه كأنما كانت ناعية تنعى كرامته ، حتى إذا ما بلغ دار عثمان بن عفان انسل إليها مسرعا خشية أن تقع عليه أعين الشامتين الداخلين إلى المسجد والخارجين منه ، حتى إذا ما أتى عثمان قال له :

ـــ إنه ليس فى القوم أقرب بى رحما منك ، فزد فى المدة وجدد العقد فإن صاحبك لا يرده عليك أبدا .

فقال عثمان معتذرا :

ـــ جوارى فى جوار رسول الله ﷺ .

وسأل أبو سفيان وألحف وتوسل وتودد ولكن عثمان أبى أن يكلم رسول الله ﷺ . فقام أبو سفيان من عنده وقد تفصد العرق من جبينه حتى ملأ عينيه وسال على لحيته ، وخرج يصرف[1] أنيابه وراح يمسح وجهه لا يكاد يفرق بين عرقه ودموعه .

ووقف على باب دار عثمان يلتقط أنفاسه ، حتى إذا ما سكن روعه بعض الشىء رأى أن يقطع الطريق إلى دار على بن أبى طالب ، فإن كان زوج أم كلثوم بنت محمد قد رده خائبا فلعل زوج فاطمة تتحرك فيه فروسيته فيكلم

---

(١) الصريف : صوت الأنياب .

له ابن عمه وحبيبه فى تجديد العقد وزيادة المدة .

ودخل على علىّ بن أبى طالب وعنده فاطمة وحسن غلام يدب بين يديها فقال :

ــ يا على ، إنك أمس القوم بى رحما ، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا ، اشفع لى إلى محمد .

ــ ويحك يا أبا سفيان ! لقد عزم رسول الله ــ ﷺ ــ على أمر ما نستطيع أن نكلمه .

فالتفت إلى فاطمة فقال :

ــ يا ابنة محمد . هل لك أن تأمرى ابنك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

ــ والله ما يبلغ بنىّ ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله .

وتذكر أبو سفيان أن أختها زينب قد أجارت زوجها العاص بن الربيع فطمع فى أن تجيره ، فقال لها :

ــ أجيرى بين الناس .

ــ إنما أنا امرأة .

ــ قد أجارت أختك زوجها وأجاز ذلك محمد .

ــ إنما ذاك إلى رسول الله .

وفهم أبو سفيان أنها لا تريد أن تجير فى الناس حتى لا تغضب أباها ، فإذا بحسين يدخل عليهم ، فالتفت أبو سفيان إلى الحسن والحسين فقال :

ــ فأمرى صبيان ليس مثلهما يجير .

ــ إنما هما صبيان ليس مثلهما يجير .

وابتعد على عن المكان وهو واثق أن أحدا لايستطيع أن يكلم رسول الله — ﷺ — فى أمر أبى سفيان ، فقد قال عليه السلام قبل قدوم شيخ بنى أمية : « كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد فى المدة وهو راجع بسخطه » . وقد جاء أبو سفيان ليشد العقد ويزيد فى المدة ولا بد أن يرجع بسخطه كما تنبأ رسول الله — ﷺ .

وراح أبو سفيان يتلفت بأعين زائغة فقد طال مكثه بالمدينة دون أن يصل إلى شيء ، طرق جميع الأبواب فأغلقت فى وجهه ، توسل دون جدوى . طلب من ابنة محمد أن تجيره فأبت وضنت بالحسن والحسين ، ولو أن عليا قد أبى أن يكلم له رسول الله عليه السلام فهو آخر أمل . فقال لفاطمة الزهراء :

— فكلمى عليا

— فكلمه أنت .

فزحف إلى حيث كان على بن أبى طالب كما يزحف الحيوان الذى سددت إليه سهام القوم فتركته كالقنفذ فقال فى انكسار :

— يا أبا الحسن اشفع لى إلى محمد وأجرنى .

— يا أبا سفيان إنه ليس أحد من أصحاب رسول الله — ﷺ — يفتات على رسول الله — ﷺ — بجوار .

وأحس أبو سفيان أنه يريد أن ينقض وأن الأرض قد مادت تحت قدميه . إنه أتى أشراف قريش والأنصار وكل يقول : جوارى فى جوار رسول الله — ﷺ — فقال لعلى فى صوت أقرب للنحيب :

— يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد أفسدت علىّ فانصحنى .

— والله لا أعلم لك شيئا يغنى عنك ، ولكنك سيد بنى كنانة فقم وأجر بين الناس ثم الحق بأرضك .

ــ أوترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟

ــ والله ما أظنه ولكن لا أجد لك غير ذلك .

فدخل أبو سفيان فى المسجد فقام فقال :

ــ أيها الناس إنى أجرت بين الناس .

ثم جاء إلى النبى ــ ﷺ ــ فقال :

ــ يا محمد إنى أجرت بين الناس ، لا والله ما أظن أحدا يخفرنى ويرد جوارى .

فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة .

ثم ركب أبو سفيان بعيره لينقلب إلى أهله مدحورا . وإن كان غروره يزين له أن أحدا لن يخفره ويرد جواره .

وكانت قريش ترصد مقدمه فى قلق فقد طالت غيبته ، واتهمته قريش أنه صبأ واتبع محمدا سرا وكتم إسلامه ، فلما طوى الأرض التى تفصل بين المدينة ومكة دخل داره بالليل فاستقبلته زوجه هند بنت عتبة وهى متلهفة على سماع أخباره وهو فى شوق إليها . فلما دنا منها وجلس منها مجلس الرجل من امرأته قالت له :

ــ إن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل . فراح يقص عليها ما كان بينه وبين محمد وأصحابه ، فضربت برجلها فى صدره وقالت :

ــ قبحت رسول قوم ، فما جئت بخير .

فلما أصبح أبو سفيان حلق رأسه عند أساف ونائلة وذبح عندهما البدن(١)

---

(١) البدن جمع مفرده بدنة وهى الواحدة من الإبل والبقر كالأضحية تهدى إلى مكة .

ومسح رءوسهما بالدم ليدفع عنه التهمة ، فلما رأته قريش قالوا :

ــ ما وراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد أو عهد ؟

ــ لا والله لقد أبى عليَّ ، وقد تتبعت أصحابه فما رأيت قوما لملك أطوع منهم له .

وساد الوجوم . ثم قال أبو سفيان ليفر من ذلك الصمت القاتل :

ــ جئت محمدا فكلمته فوالله ما رد عليَّ شيئا ، ثم جئت إلى ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت عمر بن الخطاب فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم وقد أشار عليّ بشيء صنعته ، فوالله لا أدرى أيغنى عنى شيئا أم لا ؟

ــ وبم أمرك ؟

ــ أمرنى أن أجير بين الناس ، قال لى : لم تلتمس جوار الناس على محمد ولا تجير أنت عليه وأنت سيد قريش وأكبرها وأحقها ألا يخفر جوارك ؟ ففعلت .

ــ فهل أجاز لك ذلك محمد ؟

ــ لا وإنما قال : أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ، والله لم يزدنى .

وأحس القوم أن عليا قد سخر منه فقالوا :

ــ رضيت بغير رضا وجئت بما لا تغنى عنا ولا عنك شيئا . ولعمر الله ما جوارك بجائز وإن إخفارك إزالة خفارتك[١] عليهم لهين . والله أراد الرجل أن يلعب بك .

فقال أبو سفيان فى يأس :

ــ والله ما وجدت غير ذلك .

---

(١) الخفارة : الإجارة والحماية .

٣

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها ، فلما هم عليه السلام بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة فى ثمانية نفر من جملتهم محكم بن جثامة الليثى إلى بطن إضم ليظن ظان أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ توجه إلى تلك الناحية وتنشر بذلك الأخبار .

وانطلق أبو قتادة والذين معه فمر عليهم عامر بن الأضبط الأشجعى فسلم عليهم بتحية الإسلام فأمسك عنه القوم ، وحمل عليه محكم فقتله لشىء كان بينه وبينه وسلبه متاعه وبعيره ، ثم ساروا حتى بلغوا بطن إضم فلم يلقوا كيدا ، فقفلوا راجعين إلى المدينة ليلقوا رسول الله ـــ ﷺ ـــ .

وقال ﷺ لعائشة :

ـــ جهزينا وأخفى أمرك .

فدخل أبو بكر على ابنته عائشة وهى تعد بعض جهاز رسول الله عليه السلام ، كانت تجعل قمحا سويقا ودقيقا فقال :

ـــ أى بنية ، أمركن رسول الله ـــ ﷺ ـــ بتجهيزه ؟

ـــ نعم فتجهز .

ـــ فأين ترينه يريد ؟

ـــ لا والله لا أدرى .

ودخل عليهما رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال أبو بكر :

ـــ يا رسول الله أردت سفرا ؟

— نعم .
— أفأتجهز ؟
— نعم .
— فأين تريد يا رسول الله ؟
— قريشا واخف ذلك يا أبا بكر .
— يا رسول الله أو ليس بيننا وبينهم مدة ؟
— إنهم قد غدروا ونقضوا العهد . واطو ما ذكرت لك .

ودخل عمر بن الخطاب فسمع أبا بكر يقول :

— هم قومك .

وعلم عمر أن رسول الله — ﷺ — قد عزم على السير إلى مكة فقال :

— نعم هم رأس الكفر ، زعموا أنك ساحر وأنك كذاب . وايم الله لا تذل العرب حتى تذل أهل مكة .

وأمر رسول الله — ﷺ — الناس بالجهاز وطوى عنهم الوجه الذى يريده . وأرسل إلى أهل البادية ومن حوله من المسلمين فى كل ناحية يقول لهم :

— من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة .

فقدمت المدينة من قبائل العرب أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، حتى إذا ما اكتمل عقد المسلمين أعلم عليه السلام الناس أنه سائر إلى مكة ثم قال :

— اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها . اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا إلا فجأة .

ووقف بكل طريق جماعة ليعرف من يمر بها ، وقال لهم عليه السلام :

ـــ لا تدعوا أحدا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه .

وكان فى المسلمين من يشفق على أهل مكة ، فأبو بكر الصديق قال له مشيرا بعدم السير إلى أم القرى : « هم قومك » . فلما أمر عليه السلام بالجد فى السير أطاع ولم يخطر له على قلب أن يحذر أهل مكة ، أما حاطب بن أبى بلتعة فقد رأى أن يبعث إلى سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل يخبرهم فيه أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد خرج قاصدا مكة فكتب : « إن رسول الله قد توجه إليكم بجيش كالليل ، يسير كالسيل . وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لينصرنه الله تعالى عليكم فإنه منجز له ما وعده فيكم ، فإن الله تعالى ناصره ووليه ، وقد أحببت أن تكون لى يد بكتابى إليكم .

وراح يفكر فيمن يبعث معه بالكتاب فهداه فكره إلى سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب كانت مغنية بمكة وكانت قدمت على رسول الله ـــ ﷺ ـــ المدينة وطلبت منه الميرة وشكت الحاجة ، فقال لها رسول الله ـــ ﷺ : « ما كان فى غنائك ما يغنيك ؟ » فقالت : « إن قريشا منذ قتل منهم من قتل ببدر تركوا الغناء » . فوصلها ـــ ﷺ .

واطمأن حاطب إلى سارة وجعل لها جعلا على أن تبلغ كتابه قريشا ، فجعلته فى رأسها ثم فتلت عليه قرونها خوفا أن يطلع عليه أحد . وقال لها :

ـــ أخفيه ما استطعت ولا تمرى على الطريق فإن عليه حرسا .

فسلكت سارة غير الطريق وهى فرحة بالدنانير العشرة التى أخذتها وبالبردة التى كساها إياها وبما ينتظرها من خير لما تضع الكتاب فى أيدى سادات قريش . وفيما هى منطلقة إلى مكة أتى رسول الله ـــ ﷺ ـــ الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث عليا والزبير وطلحة والمقداد وعمارا وأبا مرثد فقال :

ـــ انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (موضع بين مكة والمدينة) فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين ، فخذوه منها وخلوا سبيلها ، فإن أبت فاضربوا عنقها .

فخرجوا حتى أدركوها فقالوا لها :

ـــ أين الكتاب ؟

فحلفت بالله ما معها من كتاب . فاستنزلوها وفتشوها والتمسوا فى رحلها فلم يجدوا شيئا ، فقال لها على كرم الله وجهه :

ـــ إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله ـــ ﷺ ـــ قط ولا كذبنا ، ولتخرجن هذا الكتاب أو لنكشفنك أو أضرب عنقك .

فلما رأت الجد منه قالت :

ـــ أعرض .

فاعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منه وهم ينظرون إليها فى ازدراء ، كانوا جميعا يمقتونها فقد كان ابن خطل يلقى عليها هجاء رسول الله ـــ ﷺ ـــ فتغنى به . ولولا أن رسول الله عليه السلام قال لهم خلوا سبيلها لسدد أحدهم إلى قلبها سهما .

وانقلبوا إلى رسول الله ـــ ﷺ بالكتاب ، فدعا رسول الله ـــ ﷺ ـــ حاطبا وعمر بن الخطاب عنده ، فقال له :

ـــ أتعرف هذا الكتاب ؟

ـــ نعم .

فقال عمر فى حدة :

ـــ يا رسول الله دعنى لأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق .

وقال حاطب :

ـــ والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت .

فنظر إليه عمر فى شزر وقال :

ـــ قاتلك الله ! ترى رسول الله يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش تحذرهم ؟

وقال حاطب :

ـــ ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششت منذ نصحت ، وما أجبتهم منذ فارقتهم .

واشتد غيظ عمر فقال :

ـــ دعنى لأضرب عنقه .

فقال رسول الله ﷺ ـــ إلى عمر وهو ينظر إلى حاطب بن أبى بلتعة رسوله إلى المقوقس فى إشفاق :

ـــ إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وقال حاطب :

ـــ يا رسول الله كنت غريبا فى قريش وأمى بين أظهرهم وأردت أن يحفظونى فيها ، وما فعلت ذلك كفرا بعد إسلام وقد علمت أن الله تعالى منزل بهم بأسه لا يغنى عنهم كتابى شيئا .

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لمن كانوا عنده :

ـــ إنه قد صدقكم ولا تقولوا له إلا خيرا .

وفاضت عينا عمر بالبكاء وأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين أمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى

وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ، إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير »(١) .

واستخلف — ﷺ — على المدينة ابن أم مكتوم وخرج لثمان عشرة ليلة خلون من رمضان سنة ثمان من الهجرة ، وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم ثلاثمائة فرس ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس ، وكانت مزينة ألفا وفيها مائة فرس ، وكانت أسلم أربعمائة معها ثلاثون فرسا ، وكانت جهينة ثمانمائة ومعها خمسون فرسا .

كان رسول الله — ﷺ — يعنى بتربية الخيل وقد أمر الله تعالى المسلمين بأن يعدوا لأعداء الله ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ليرهبوا عدوا الله وعدوهم ، فأنفق المسلمون مدخراتهم فى إعداد الخيل والسلاح . وها هم هؤلاء ينطلقون إلى مكة على ظهور الجياد لكأنهم فى حصون مشيدة .

ورجع قتادة والذين معه إلى المدينة فبلغهم أن رسول الله ﷺ — قد توجه إلى مكة ، فمالوا إليه حتى لقوه ، وقصوا عليه ما كان بينهم وبين عامر بن الأضبط الأشجعى وما كان من قتل محكم له بعد أن سلم عليهم بتحية الإسلام وقال رسول الله لمحكم :

— أقتلته بعد ما قال إنى مسلم ؟!

فقال محكم :

— يا رسول الله لو شققت عن قلبه أكنت أعلم ما فى قلبه ؟

— فلا أنت قبلت ما تكلم به ولا أنت تعلم ما فى قلبه .

— استغفر لى يا رسول الله .

ـــ لا غفر الله لك .

فقام يتلقى دمعه ببرده وأنزل الله تعالى فيه : « يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا »(١) .

(١) النساء ٩٤ .

٤

كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخاه ـــ ﷺ ـــ من الرضاعة ، وكان آلف الناس له عليه السلام قبل النبوة لا يفارقه ، وكان أبو سفيان شاعر بنى هاشم بعد أن مات الزبير بن عبد المطلب وأبو طالب . فلما بعث الله محمدا ـــ ﷺ ـــ رحمة للعباد نفس أبو سفيان بن الحارث على ابن عمه وناصبه العداء . وكان من أشد الناس أذية له ـــ ﷺ .

وكان أبو سفيان بن الحارث يلقى سمعه إلى القرآن فيربو حسده فيسب رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ، وقد خرج من قريش فى كل حروبها لابن عمه . فآيات الذكر الحكيم كانت تخز روحه فهو فى قرارة نفسه يحس إعجاز القرآن وأن شعره لن يصل إليه ، فكان القضاء على محمد هو السبيل لإسكات ذلك السحر الذى تفشى فى القبائل وعلا صوته فى الأسواق على كل الأصوات .

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ خطرا على سلطان أبى سفيان بن حرب وعلى مملكة الشعر التى يريد أن يكون أبو سفيان بن الحارث فارس حلبتها وعلى نفوذ رجال الدين وأشراف قريش ، فتكتلوا جميعا لا عن اقتناع بل دفاعا عن مصالحهم المهددة بالبوار .

ومرت السنون وأبو سفيان بن الحارث يرى نفوذهم يتقلص على مر الأيام وشأن ابن عمه يعلو ، فكان إذا خلا بنفسه يحاسبها يجد أنه ليس على صواب وأن ابن عمه على الحق . فكانت نفسه تراوده على الانطلاق إلى حيث يعلن

إسلامه كما فعل كثير من قريش ، ولكن حسده كان يتحرك فيلجمه ويحيده عن الصراط .

وذات يوم استطاع أن يقهر حسده وأن ينتصر على نفسه المتمردة فأخذ بيد ابنه وانطلق ليلحق برسول الله ﷺ . وبينما هما فى الطريق لقيا عبد الله بن أمية بن المغيرة ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب ، أخا أم سلمة أم المؤمنين لأبيها ، فقال له أبو سفيان بن الحارث :

— إلى أين ؟

— إلى رسول الله أشهد شهادة الحق .

كان أكبر القائمين على رسول الله — ﷺ — ومن أشد الناس أذية له ، لقد قال له عبد الله بن أمية بن المغيرة بمكة : « والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلما إلى السماء فتعرج فيها وأنا أنظر إليك فتأتى بصك وأربعة ملائكة يشهدون لك أن الله أرسلك » . كان من المستهزئين وكانت سخريته مريرة حتى إن رسول الله — ﷺ — لم ينس قط إساءته حتى فى أروع لحظات الانتصار ، وكان هجاء أبى سفيان بن الحارث قاذعا بذيئا ولطالما ضاق به صدره عليه السلام .

ولقى أبو سفيان بن الحارث وابنه وعبد الله بن أمية بن المغيرة جيش المسلمين بالقرب من الأبواء فطلبوا مقابلة رسول الله — ﷺ — فلم يأذن لهم ، فقال أبو سفيان :

— والله ليأذن لى أو لآخذن بيد ابنى هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت جوعا وعطشا .

والتقى على بن أبى طالب بابن عمه أبى سفيان بن الحارث ، وذهب عبد الله إلى أخته أم سلمة أم المؤمنين يسألها أن تكلم رسول الله — صلوات الله

وسلامه عليه — فيهما ، فلما دخل عليه السلام على أم سلمة قالت له :

— لا يكون ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك .

— لا حاجة لى بهما . أما ابن عمى فهتك عرضى وأما ابن عمتى فهو الذى قال لى بمكة ما قال .

وقال على بن أبى طالب لابن عمه أبى سفيان بن الحارث :

— ائت رسول الله — ﷺ — من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف : « تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين »(١) فإنه — ﷺ — لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولا منه .

فدخل أبو سفيان بن الحارث على ابن عمته فقال ما علمه على بن أبى طالب . فقال رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه :

— لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .

وكان أبو سفيان بن الحارث شاعر قريش ، فأنشد يعتذر مما كان قد مضى من فعله :

لعمرك إنى يوم أحمل راية … لتغلب خيل اللات خيل محمد

لكالمدلج الحيران أظلم ليله … فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى

هدانى هاد غير نفسى ودلنى … على الحق من طردت كل مطرد

فضرب رسول الله — ﷺ — فى صدره وقال :

— أنت طردتنى كل مطرد .

واستمر أبو سفيان بن الحارث فى إنشاده :

---

(١) يوسف ٩٤ .

أصد وأنأى جاهدا عن محمد ... وأدعى وإن لم أنتسب من محمد
هم ما هم من لم يقل بهواهم ... وإن كان ذا رأى يلم ويفند(١)
أريد لأرضيهم ولست بلائط ... مع القوم ما لم أمد فى كل مقعد
فقل لثقيف : لا أريد قتالها ... وقل لثقيف تلك : غيرى أوعدى
قبائل جاءت من بلاد بعيدة ... نزائع جاءت من سهام وسردد(٢)

ودخل عبد الله بن أمية بن المغيرة على رسول الله عليه السلام وأعلن إسلامه ، وكان أبو سفيان بن الحارث لا يرفع رأسه إلى رسول الله — ﷺ — حياء منه فقد عاداه نحو عشرين سنة يهجوه أقذع الهجاء و لم يتخلف أبدا عن قتاله ، بينا كان رسول الله عليه السلام يحبه ويقول :

— أرجو أن يكون خلفا من حمزة .

كانوا فى رمضان فصام عليه السلام وصام الناس ، ولحقه فى الطريق من القبائل بنو أسد ومن أسلم من سليم ، حتى إذا كانوا بالكديد أفطر فقد كان الحر شديدا ، وبلغه عليه السلام أن الناس شق عليهم الصيام فاستوى — ﷺ — على راحلته بعد العصر ودعا بإناء فيه ماء فشرب ثم ناوله لرجل بجنبه فشرب ، وأبى بعض الناس أن يفطروا فقيل له عليه السلام :

— إن بعض الناس صام .

— أولئك العصاة .

ثم التفت عليه السلام إلى الصحابة وقال .

---

(١) يفند : يبطل أو يخرف .

(٢) النزاع : الغرباء ، سهام وسردد : موضعان من أرض عك .

ـــ إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم .

وفى قديد عقد ـــ ﷺ ـــ الألوية والرايات ودفعها للقبائل ثم سار حتى نزل بمر الظهران ، وأعمى الله الأخبار عن قريش فلم يعلموا بوصوله إليهم . وأمر ـــ ﷺ ـــ أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار وجعل على الحرس عمر ابن الخطاب .

واندلعت ألسنة النيران فكادت تحيل الليل نهارا . وراح عمر بن الخطاب يفكر فيما كان منه فى صلح الحديبية : إنه يرى نفسه والعرق يتصبب منه وهو يثب إلى أبى بكر بعد الصلح ويرن فى أعماقه قوله : « أبا بكر ، أليس هو رسول الله ؟ » ويمس وجدانه قول أبى بكر مسا لكأنه البلسم : « بلى » . فيعود صوته يفح فى أعماقه : « أوليسوا بالمشركين ؟ » . فيسمع قول أبى بكر : « بلى » . فيدوى صوته فى عين ذاته يكاد يعصف به : « فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟! » .

واستشعر عمر بالدموع تطفر إلى مآقيه ، وعجب فى نفسه كيف بلغ به غضبه فى ذلك اليوم أن يرد على رسول الله ـــ ﷺ ـــ الكلام حتى إن أبا عبيدة بن الجراح يقول له :

« ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول ما يقول ؟ تَعَوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

إنه تَعوذ بالله من الشيطان الرجيم يوم الحديبية وفى النفس شىء . أما وهو على حرس رسول الله ـــ ﷺ ـــ وعشرة آلاف نار تتأجج فى مر الظهران على بعد بضعة أميال من مكة فإنه تعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهو نادم ندما صادقا على ما فات ، وقد كاد يخر ساجدا لما تذكر قول رسول الله عليه السلام له : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى » .. ولكنه كان على

الحرس فقال فى نفسه وقد انتابته رقة أمدت عينيه بالدموع :

« صدقت يا رسول الله » .

وتذكر عمر ما قال لما جاء فى الصلح أن من جاء مسلما إلى محمد رده إلى قريش : إنه قال فى حدة : « يا رسول الله أترضى بهذا ؟ » فتبسم رسول الله — ﷺ — وقال : « من جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا » . وقد كان . وأثبتت الأيام أنه عليه السلام كان على صواب ، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

وضايق عمر أنه لم يستطع أن يستشف ما تأتى به الأيام فى ذلك اليوم الشديد ، بينما استطاع مشركان من قريش هما مكرز وحويطب أن يريا ما ستأتى به الأحداث يوم أن جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلى المسلمين ، يرسف فى الحديد ورمى بنفسه بين أظهرهم ، فجعل المسلمون يرحبون به ويهنئونه ، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه فأخذ غصنا من شجرة به شوك وضرب به وجه أبى جندل ضربا شديدا حتى رق عليه المسلمون وبكوا ، وأخذ بتلابيبه وقال : يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلىّ ، لقد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : صدقت .

رأى مكرز وحويطب ما رأى عمر فقال حويطب لمكرز : ما رأيت قط قوما أشد حبا لمن دخل معهم من أصحاب محمد . أما إنى أقول لا نأخذ من محمد نصفا أبدا بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة . فقال مكرز : وأنا أرى ذلك ، أما هو عمر بن الخطاب وزير رسول الله ﷺ — فقد أعماه الغضب . لم ير ما رأى المشركان من فتح قريب . فقد وثب ومشى إلى جنب أبى جندل وأبوه سهيل بجنبه يدفعه وصار يقول لأبى جندل : اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون . وإنما دم أحدهم كدم كلب ومعك السيف .

كان يحرض أبا جندل على قتل أبيه سهيل بن عمرو . ولو أطاعه أبو جندل لحرم المسلمون من أكبر نصر قبل الفتح ، فقد انضم أبو جندل والذين معه إلى أبي بصير وقطعوا طريق قوافل قريش حتى أرغموا سادات قريش على أن يأتوا إلى المدينة وهم صاغرون يلتمسون تعطيل ذلك الشرط الذى ضج منه المسلمون وقالوا دون علم : « سبحان الله ! كيف نرد للمشركين من جاء مسلما ؟! » .

وتقاصرت نفس عمر لما دوى فى ضميره ذلك الحديث الذى كان بينه وبين رسول الله — ﷺ — بعد صلح الحديبية :

— يا رسول الله ألم تقل إنك تدخل مكه آمنا ؟

— بلى . فقلت لكم من عامى هذا ؟

— لا .

— فإنكم تأتونه وتطوفون به .

وتمنى عمر لو أن صيام الدهر وقيامه وعتق ما يصل إليه من رقاب يكون كفارة عما بدر منه فى ذلك اليوم الشديد ، ولم يكن وحده الذى اهتز فقد تكلم بعض الصحابة حتى بعد أن نزلت سورة الفتح وقال :

— ما هذا بفتح ، لقد صدونا عن البيت وصُدَّ هدينا . فقال — ﷺ — لما بلغه الكلام :

— بل هو أعظم الفتح ، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالبراح عن بلادهم ، وسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم الله سالمين مأجورين ، فهو أعظم الفتوح .
أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟!
أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم إذ زاغت

الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ؟

ـــ صدق الله ورسوله فهو أعظم الفتوح ، والله يا نبى الله ما فكرنا فيما فكرت ولأنت أعلم بالله وبأمره منا .

وخنقت عمر عبراته وراح يسأل نفسه : « لماذا لم ينزل الله السكينة على قلبه كما أنزلها على قلب أبى بكر ؟ » ولكن أين إيمانه من إيمان أبى بكر ؟ لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم .

وهب عليه قول أبى بكر كالنسيم :

ـــ يأيها الرجل إنه رسول الله ـــ ﷺ ، وليس يعصى ربه وهو ناصره . استمسك بغرزه حتى تموت فإنى أشهد أنه رسول الله .

وقال عمر وقد فاضت منه أنوار اليقين حتى كادت تملأ ما بين السماء والأرض :

ـــ وأنا أشهد أنه رسول الله .

٥

كان العباس بن عبد المطلب قد أسلم وأخفى إسلامه وبقى بمكة ليكون قلم مخابرات رسول الله ـــ ﷺ ـــ يوافيه بأنباء قريش . فلما كان يوم بدر أمر رسول الله عليه السلام ألا يقتل العباس إذا ما وقع أسيرا فى أيدى المسلمين ، لا لأنه عمه فما كان صلوات الله وسلامه عليه يفرق بين أهله وعامة الناس فى أمر الدين . بل ليحقن دم مسلم أخفى إسلامه ، ولكيلا يقتل مسلم مسلما وهو لا يدرى .

وأخذ عليه السلام من عمه الفداء لكيلا يكشف أمره تزكية لماله . وما أكثر ما أنفق أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وأغنياء المسلمين من أموال فى سبيل الله ، وكانت خزاعة هى الرسل على الدوام بين رسول الله عليه السلام وبين عمه ، فقد كان هوى خزاعة مع نبى الإسلام مؤمنهم وكافرهم ، فلما كان صلح الحديبية لم يخفوا ميلهم ودخلوا فى حلف رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه .

وكاد العباس أن يفضح أمره لما جاء الحجاج بن علاط إلى مكة بعد فتح خيبر يستوفى أمواله . إنه وجد بثنية البيضاء رجالا من قريش يستمعون الأخبار ويسألون عن أمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقد بلغهم أنه قد سار إلى خيبر ، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز ريفا ومنعة ورجالا ، فهم يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان ، فلما رأوه قالوا :

ـــ الحجاج بن علاط عنده والله الخبر . أخبرنا يا أبا محمد فإنه قد بلغنا أن

القاطع قد سار إلى خيبر وهى بلد يهود وريف الحجاز .

ــ لقد بلغني ذلك وعندى من الخبر ما يسركم ، هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط ، وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط ، وأسر محمد أسرا وقالوا لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن أصاب من رجالهم .

ــ إن العباس لما سمع الخبر لم يستطع أن ينهض ، فلم تكن فجيعته فى ابن أخيه فحسب بل كانت فجيعته فى رسول الإسلام عليه السلام ، فيمن أخرجه من الظلمات إلى النور ، فلما علم أن الحجاج قد ترك ابن أخيه عروسا على صفية بنت حيي بن أخطب وقد افتتح خيبر أحس كأنما ردت إليه الروح ، فلبس حلة له وتخلق وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة وطاف بها شكرا لله على نصرة دينه ، ثم قال لقريش فى اعتزاز المسلم :

ــ لقد فتح محمد خيبر ، وترك عروسا على ابنة ملكهم ، وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه .

كلام لا يقوله إلا مسلم قوى الإيمان ، وإلا لو كان الدافع إليه رابطة الدم لقال مثله أبو سفيان بن الحارث ابن عم محمد ــ ﷺ ــ وهو رفيق صباه .

والتقى العباس بابن أخيه قبل ذلك فى عمرة القضاء وكانت بينهما مناجاة ، أفضى العباس إلى ابن أخيه بما كان وأنبأ عليه السلام عمه بما سيكون . وخرج رسول الله عليه السلام فى جيش من الأبرار لفتح مكة وكان عمه العباس هناك . إنه الفتح ولن يكون بعده هجرة ؛ فإن لم يخرج عمه إليه من مكة قبل أن يدخلها عليه السلام فلن تكون له هجرة ولن يكون له ثواب المهاجرين . فبعث إليه عليه السلام سرا أن يخرج مهاجرا ليكون له الثواب الذى يستحقه بعد كل ما أدى للإسلام من خدمات فى الخفاء ، فلم تعد هناك حاجة لخدماته وقد أصبح فتح مكة على الأبواب .

وخرج العباس فى غفلة من قريش بعياله مهاجرا فلقى رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالجحفة ، فاستقبل عليه السلام عمه وقد غمره الفرح فقال :

ـــ هجرتك يا عم آخر هجرة .

ونال العباس الجزاء الأوفى ورجع معه عليه السلام إلى مكة ليكون له فضل الجهاد إلى فضل الإسلام والهجرة . وأرسل أهله وثقله إلى المدينة حتى إذا ما نزل المسلمون بمر الظهران وأوقدوا النيران رق قلب العباس لأهل مكة وقال :

ـــ واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله ـــ ﷺ ـــ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأنسوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر .

فجلس العباس على بغلة رسول الله ـــ ﷺ ـــ البيضاء فخرج عليها وألسنة النيران تتراقص وسار على ضوئها حتى جاء الأراك فقال :

ـــ لعلى أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة يخبرهم بمكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة .

وكانت قريش قد علمت بمسيرة رسول الله ﷺ ولم يعلموا إلى أى جهة ، وكانوا يرتجفون فرقا بعد أن نقضوا العهد وأخفقت سفارة أبى سفيان فى مد المدة وتجديد العقد من أن يغزوهم ، فبعثوا أبا سفيان بن حرب يتحسس الأخبار وقالوا له :

ـــ إن لقيت محمدا فخذ لنا منه أمانا .

فخرج أبا سفيان وحكيم بن حزام يتحسسان الأخبار ، وبينا هما فى الطريق لقيا بديل بن ورقاء فاستصحباه وانطلقوا ينظرون هل يجدون خبرا أو يسمعون به .

كان بديل يرجو من كل قلبه أن يكون رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد سار

إلى مكة ، فقد خرج بديل مع وفد خزاعة إلى المدينة بعد أن أغارت بنو بكر على خزاعة وعاونتهم فى ذلك قريش وقد وعد عليه السلام عمرو بن سالم بالنصر وما أخلف — صلوات الله وسلامه عليه — وعدا قط . وكان أبو سفيان يتقدم فى هجعة الليل وقد اشتد وجيب قلبه وما يدرى علة ذلك الخوف ، فما بلغ قريش مسيره ولكن أبا سفيان كان يستشعر فى قرارة نفسه أن زعامته على قريش باتت فى يد القدر ، فلو أن محمدا سار إلى مكة لا نتهى كل شيء . وكان حكيم بن حزام شارد اللب حانقا على نفسه لا يدرى سببا لانقياده لأبى سفيان بعد أن فكر فى الإسلام طويلا فانشرح له صدره . إنه لو أنصف نفسه من نفسه لهرع إلى المدينة يعلن على الملأ إسلامه كما فعل كثير من سادات قريش .

ورأوا على البعد ألسنة النيران فأغذوا السير ، وصك آذانهم صهيل الخيل لكأنه الرعد فراعهم ما سمعوا وراحوا يقلبون وجوههم فى العسكر . فانتاب أبا سفيان قلق وأحس بديل أن رسول الله عليه السلام قد أقبل لغزو مكة وفاء لما وعد به عمرو بن سالم فغمره سرور وإن جاهد حتى يخفى عن صاحبيه ما اعتمل فى صدره من فرح ، وظل حكيم بن حزام يفر المكان فى دهشة . وقال أبو سفيان :

— ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا . هذه كنيران عرفة .

عشرة آلاف نار كانت تتأجج فى جوف الليل ، إن أبا سفيان لم ير مثل هذه النيران إلا فى موسم الحج فى عرفة ، إنه لا يدرى من القوم ولماذا تجمعوا ، وكان كل ما يحس به أنه يرتجف خوفا من الرأس إلى القدم . وقال حكيم بن حزام :

— هذه والله خزاعة حمشتها الحرب .

فقال أبو سفيان و لم يفق من دهشته :

— خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

وارتفع صوت فى سكون الليل ينادى :

— يا أبا حنظلة .

فالتفت أبو سفيان ناحية الصوت . إنه صوت العباس وقد عرفه فالعباس صديقه ونديمه ، فقال :

— أبو الفضل ؟

— نعم .

— مالك فداك أبى وأمى !

— والله هذا رسول الله — ﷺ — فى الناس قد جاءكم بما لا قبل لكم به .

فقال أبو سفيان فى يأس :

واصباح قريش والله ! فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟

— والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى أتيك رسول الله — ﷺ — فأستأمنه لك .

فركب أبو سفيان خلف العباس ورجع صاحباه ، فجاء به كلما مرا بنار من نيران المسلمين قالوا :

— من هذا ؟

وإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ — والعباس عليها قالوا :

— عم رسول الله — ﷺ — على بغلته .

حتى مرا على نيران عمر وكان على الحرس ، فقال :

— من هذا ؟

وقام إلى العباس ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال :

— أبو سفيان ! عدو الله ، الحمد لله الذى أمكن منك من غير عقد ولا

عهد .

ثم راح يشده نحو رسول الله — ﷺ ، فركضت البغلة فسبقته وراح عمر يعدو خلفها . وكان سباق بين العباس وعمر إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، العباس يريد أن يستأمن لصديقه ونديمه رسول الله عليه السلام ، وعمر يريد أن يأخذ منه الأمر بقتل عدو الله .

ودخل العباس على رسول الله — ﷺ — ودخل عمر فى أثره ، فقال وهو يلتقط أنفاسه :

— هذا أبو سفيان وقد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد ، فدعنى لأضرب عنقه .

فنظر العباس إلى عمر فى إنكار ، ثم التفت إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقال :

— يا رسول الله إنى قد أجرته .

ثم جلس إلى رسول الله — ﷺ — فأخذ برأسه فقال فى نفسه : « والله لا يناجيه الليلة رجل دونى » . فعاد عمر يقول لرسول الله عليه السلام :

— دعنى لأضرب عنقه .

فقال العباس فى غضب :

— مهلا يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت مثل هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف .

فقال عمر فى نبرات صادقة :

— مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم . وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله — ﷺ — من إسلام الخطاب لو أسلم .

فقال رسول الله — ﷺ :

— أذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فائتنى به .

وذهب العباس بأبى سفيان إلى رحله . فلم يعرف أبو سفيان النوم وراحت الأفكار تنثال على رأسه ، فتذكر فيما تذكر قول أمية بن أبى الصلت له : « لكأنى بك يا أبا سفيان إن خالفته قد ربطت كما يربط الجدى حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد » . فاستشعر أبو سفيان أسى ، إنه نام فى خيام العباس يحس ضياعا لا يدرى أيصغى محمد إلى شفاعة عمه أم يستجيب لدعوة عمر فيضرب عنقه .

إنه يوم أن جاء الحجاج بن علاط يبشرهم بهزيمة محمد وبأسره وأن أهل خيبر قالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن أصاب من رجالهم تهلل بالفرح ، وعزم على أن يقتل محمدا على الملأ ليشفى غليله وغليلهم ، وإنه لو كان فى مكان محمد ما عفا أبدا عن عدوه الذى ناصبه العداء منذ أول يوم زعم فيه أنه نبى مرسل . إنه ساق الجيوش وجمع الأحزاب ليستأصل شأفته ، ولو كان قد قدر له أن ينتصر فما كان ليتردد لحظة فى ضرب عنق الذى فرق بين الأب وبنيه والزوج وزوجته وجاهد ليستل منه زعامته .

وبات يقيس تصرف رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بمقاييسه فرأى أنه هالك ، فحزن حتى الموت وتمنى بكل عواطفه لو أن الدنيا لا تشرق لها شمس ولا يطلع عليها نهار .

وراح بلال يرعى النجوم ويرصد الشمس حتى إذا ما بدأ مولد الفجر أذن بالصلاة فثار الناس ، ففزع أبو سفيان وقال للعباس :

— يا أبا الفضل ما للناس أمروا فى بشىء ؟

ــ لا ولكنهم قاموا إلى الصلاة .

وأم رسول الله المسلمين ووقف أبو سفيان بباب الخيمة ينظر ، رآهم يركعون إذا ركع ويسجدون إذا سجد ويهرعون إليه يلقون إليه الأسماع إذا ما قضيت الصلاة وينفذون ما يأمرهم به مستبشرين . فلما عاد العباس إلى رحله بعد الصلاة قال له أبو سفيان :

ــ ما رأيت ملكا مثل هذا ، لا ملك كسرى ولا ملك قيصر ولا ملك بنى الأصفر .

وظل أبو سفيان مشدوها برهة حتى قال له العباس :

ــ كلمه فى قومك هل عنده من عفو عنهم .

فانطلق العباس بأبى سفيان حتى أدخله على رسول الله ﷺ ــ فقال له ــ ﷺ :

ــ ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

ــ بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عنى شيئا بعد .

ــ ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟

لو أقر له بالرسالة فقد ذهبت زعامته ودالت دولته وقد حارب السنين فى سبيلها فقال :

ــ والله إن هذه فى النفس منها شيئا .

كان أبو سفيان يطمع فى أن يرجىء محمد عليه السلام اعترافه بنبوته لما رأى من حلمه وعفوه ، فمن يدرى فقد تأتى الرياح ذات يوم بما يشتهى وتعصف بالإسلام والمسلمين فتظل له السيادة على قومه ولا يذهب شرفه فيهم .

ورأى العباس الشر فى عينى عمر فقال لصديقه ونديمه :

ـــ ويحك أسلم واشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك..

عنقه ؟! إنه عنده أهم من كل شرف ومن كل زعامة ، وإن ابن الخطاب ليتحرق شوقا إلى ضربه فقال :

ـــ أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وكان صوته خافتا ينز أسى .

٦

ودبت الحياة فى العسكر ، وراح الناس يتأهبون للانطلاق إلى مكة وقد خفقت القلوب فى الصدور فعبير الأرض المقدسة يملأ النفوس ، وقد لاح الفتح للأعين فإن هى إلا بضعة أميال ثم يتحقق حلم السنين .

وطافت بالرءوس ذكريات ، والتف حول الرسول أصحابه يصغون إلى أوامره وهم يتذكرون كل ما قاله فى الليل . قال فيما قال : « إن بمكة أربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك وأرغب بهم فى الإسلام : عتاب بن أسيد ، وجبير بن مطعم ، وحكيم بن حزام ، وسهيل بن عمرو » . فشغلت العقول بمكارم هؤلاء الرجال وإن كانوا لهم أعداء .

وتجهز المسلمون للسير فانتاب أبا سفيان قلق شديد فلا قبل لقريش بهؤلاء الرجال ، فذهب إلى رسول الله ــ ﷺ ــ وقال :

ــ يا رسول الله ادع الناس بالأمان ، أرأيت إن اعتزلت قريش فكفت أيديها آمنون هم ؟

ــ نعم من كف يده وأغلق داره فهو آمن .

وكان العباس أعرف الناس بنديمه وصديقه فقال :

ــ يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا .

ــ نعم : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن .

فقال أبو سفيان وهو شارد :

ـ ما تسع دارى وما يسع المسجد ؟

كان رسول الله ـ ﷺ ـ عقد لأبى رويحة الذى آخى عليه السلام بينه وبين بلال لواءَ فأمره أن ينادى :

ـ من دخل تحت لواء أبى رويحة فهو آمن .

فاستشعر أبو سفيان راحة وقال :

ـ هذه واسعة .

وتأهبت القبائل للسير فقال ـ ﷺ ـ لعمه العباس :

ـ أجلسه بمضيق الوادى حتى تمر به جنود الله فيراها .

ووقف العباس وأبو سفيان بمضيق الوادى ، وأقبل خالد بن الوليد فى بنى سليم حتى إذا ما مرت بأبى سفيان وأصبحت عند محاذاته ارتفعت الأصوات مدوية :

ـ الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .

فقال :

ـ يا عباس من هؤلاء ؟

ـ هذا خالد بن الوليد .

ـ الغلام ؟

ـ نعم .

ـ ومن معه ؟

ـ بنو سُليم .

ـ ما لى ولبنى سليم ؟

ثم مر على أثره الزبير بن العوام فى خمسمائة من المهاجرين وفتيان العرب ، حتى إذا ما صاروا عند محاذاته انطلقت الأصوات من الحناجر :

— الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .

فقال أبو سفيان :

— من هؤلاء ؟

— الزبير .

— ابن أختك ؟

— نعم .

ثم مرت بنو غفار ثم أسلم ثم بنو كعب ثم مزينة ثم جهينة ثم كنانة ثم أشجع والتكبير يرتفع ليبلغ عنان السماء . ولما مرت أشجع قال أبو سفيان للعباس :

— هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد .

— أدخل الله الإسلام قلوبهم فهذا فضل الله .

وأقبل رسول الله — ﷺ — فى كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، فيها ألفا دارع وعمر بن الخطاب يقول :

— رويدا حتى يلحق أولكم آخركم .

فجعل أبو سفيان ينظر وهو مشدوه ثم قال :

— يا عباس من هؤلاء ؟

— هذا رسول الله ﷺ فى الأنصار .

— ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة .

وراح يقلب وجهه فى الكتيبة الخضراء وقد ثارت انفعالاته ، كان يرتجف فرقا على قريش وكان يمتلىء دهشة من عظم ذلك الجيش الذى كونه رسول الله ، فالتفت إلى العباس وقال :

— والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما .

— يا أبا سفيان إنها النبوة .

ـ نعم إذن .

وكانت مع سعد بن عبادة راية رسول الله ، ولما مر بأبى سفيان وحاذاه قال :

ـ يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة ، اليوم ستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا .

فلما مر بأبى سفيان رسول الله ـ ﷺ ـ وحاذاه ناداه أبو سفيان :

ـ يا رسول الله أمرت بقتل قومك ؟ فإنه زعم سعد ومن معه حين مر بنا أنه قاتلنا فإنه قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم ستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا ، أنشدك الله فى قومك فأنت أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم .

فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف :

ـ يا رسول الله فإنا لا نأمن من سعد أن يكون له فى قريش صولة .

فقال رسول الله ـ ﷺ :

ـ يا أبا سفيان كذب سعد : اليوم يوم المرحمة .. اليوم أعز الله فيه قريشا .

وأرسل رسول الله ـ ﷺ ـ على بن أبى طالب إلى سعد بن عبادة أن ينزع اللواء منه ويدفعه لابنه قيس ، فأبى سعد أن يسلم اللواء إلا بأمارة من رسول الله ـ ﷺ ، فأرسل عليه السلام بعمامته فدفع اللواء لابنه قيس .

وساد السكون لحظة ، ثم قال العباس لأبى سفيان :

ـ النجاء إلى قومك .

فامتطى أبو سفيان راحلته وانطلق يعدو حتى دخل مكة ، فراح يصرخ بأعلى صوته :

ـ يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار

أبى سفيان فهو آمن .

ودقت القلوب فى شدة فى الصدور ، وتعلقت الأعين بسيد قريش الذى جاء يعدو يحذر قومه ويدعوهم للأمان ، ورن صوت أبى سفيان فى دور مكة وصك أذنى زوجه هند بنت عتبة ، فثار غضبها ، فخرجت تشتد إلى حيث كان زوجها وقد كادت تنفجر حنقا ، إنها تعيش على أمل أن تثأر من محمد وصحبه لمقتل أبيها عتبة وعمها شيبة وأخيها الوليد . إنها كانت تؤجج نار الحقد فى صدر زوجها كلما خبت . أو تقبل أن ينتهى كفاح السنين بالتسليم ؟ إنها لن تقبل هذا الذل أبدا .

وبلغت مكان أبى سفيان وهى حانقة أعماها الغضب ، فأخذت بلحيته ونادت :

ــ يا آل غالب اقتلوا الشيخ الأحمق .

ثم قالت لزوجها :

ــ قبحت من طليعة قوم .

وهرع الناس إليها فقالت هند :

ــ هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ؟!

فقال لها أبو سفيان فى حدة :

ــ اسكتى وادخلى بيتك .

ثم التفت إلى الناس وقال :

ــ ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به . من دخل دار أبى سفيان فهو آمن .

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، وفزع أناس فقد بلغهم أن النبى ــ ﷺ ــ أمر بقتلهم وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة . كانوا ستة نفر وأربع

نسوة منهم : عبد الله بن أبى سرح أخو عثمان بن عفان من الرضاعة وكان فارس بنى عامر وكان من كتاب الوحى ثم زعم أنه يكتب على هواه ثم ارتد عن الإسلام ، وعبد الله بن حنظل وقينتاه وكان يهجو رسول الله عليه السلام هجاء قاذعا وكانت قينتاه تغنيان ذلك الهجاء . وعكرمة بن أبى جهل وكان ألد الخصام ، والحويرث بن نفيل ومقيس بن حبابة ، وهبار بن الأسود ، وكان قد أفزع زينب بنت محمد عند هجرتها إلى المدينة وكانت حاملا فأصابها نزيف كان يعاودها لم ينقطع حتى ذلك اليوم ، وكعب بن زهير وكان لا يفتأ ينظم القصائد فى ذم محمد عليه السلام والمسلمين ، والحارث بن هشام وهو أخو أبى جهل وكان يتربص بالمسلمين الدوائر ليثأر لأخيه ، وزهير بن أمية ، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب حاملة كتاب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش ، إنها مولاة عمرو بن صفى بن هاشم بن عبد مناف ، وإنها أتت رسول الله — ﷺ — من مكة إلى المدينة ورسول الله — ﷺ — يتجهز لفتح مكة ، فقال لها رسول الله — ﷺ .

— أمسلمة جئت ؟

— لا .

— أمهاجرة جئت ؟

— لا .

— فما حاجتك ؟

— كنت كثيرة العشيرة والأهل والموالى ، وقد ذهبت موالىّ واحتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطونى وتكسونى وتحملونى .

— فأين أنت من شباب مكة ؟

وكانت مغنية نائحة قالت :

— ما طلب منى شىء بعد وقعة بدر .

فحث رسول الله — ﷺ — بنى عبد المطلب وبنى المطلب فكسوها وحملوها وأعطوها نفقة ، فأتاها حاطب بن أبى بلتعة حليف بنى أسد بن عبد العزى فكتب معها إلى أهل مكة كتابا ، ولم تحمد لرسول الله — ﷺ — عطفه وبره بل راحت تتغنى بهجاء النبى — صلوات الله وسلامه عليه — حتى بعد أن أطلقت لما وجد الكتاب فى قرونها ، وصفوان بن أمية وكان أكثر سادات قريش عداء لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، فهو فى كل وقت يبدى عداوته ويؤذى المسلمين بماله ويده ولسانه ، وزهير بن أبى سلمى ، وهند بنت عتبة ، ووحشى .

وجمع صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو أناسا بالخندمة وهو جبل بمكة ليقاتلوا لا دفاعا عن مكة ولا الحرم بل عن أعناقهم ، وراح حماس بن قيس بن خالد أخو بنى بكر يعد سلاحه ويبرى نبله ويصلح من شأنه ، فقالت له امرأته مستهزئة :

— لماذا تعد ما أرى ؟

— لمحمد وأصحابه .

— والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شىء .

فقال فى انفعال :

— لأخدمنك خادما من بعض من نأسره .

— والله لكأنى بك وقد رجعت تطلب مخبأ أخبئك فيه لو رأيت خيل محمد .

وأمر رسول الله — ﷺ — خالد بن الوليد أن يدخل مع جملة من قبائل العرب من أسفل مكة ، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت وقال :

— لا تقتلوا إلا من قاتلكم .

وجعل — ﷺ — الزبير على إحدى المجنبتين وخالدا على الأخرى وأبا عبيدة على الرجالة ، وأعطى الزبير راية وأمره أن يغرزها بالحجون لا يبرح حتى يأتيه فى ذلك المحل . وتقدم خالد والزبير ، وغرز خالد رايته عند أدنى البيوت ، وغرز الزبير رايته بالحجون وانتظر حتى وافاه رسول الله — ﷺ — وبنى هناك مسجدا عرف فيما بعد بمسجد الراية .

ولما وقف رسول الله — ﷺ — على ذى طوى ، قال أبو قحافة لابنة له من أصغر ولده :

— أى بنية ، إظهرى بى على جبل أبى قبيس .

وكان قد كف بصره ، فأشرفت عليه فقال لها :

— أى بنية ماذا ترين ؟

— أرى سوادا مجتمعا .

— تلك الخيل .

— وأرى رجلا يسعى بين يدى ذلك السواد مقبلا ومدبرا .

— ذلك الوازع (الذى يأمر الخيل ويتقدم إليها) .

— قد والله انتشر السواد .

— قد والله إذا دفعت الخيل ، فأسرعى بى إلى بيتى .

فانحطت به ، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته وفى عنق الجارية طوق من فضة ، فتلقاها رجل فاقتطعه من عنقها ، فانطلقت بأبيها لا تلوى على شىء ، وبقيت فى الدار ترصد مقدم أخيها أبى بكرالصديق :

كان رسول الله على راحلته معتجرا بشقة بُرد حمراء وإنه ليضع رأسه تواضعا لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، وراح ضرار بن الخطاب

يرنو إلى رسول الله — ﷺ — فى حب بعد أن قال عليه السلام لأبى سفيان :

— يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله فيه قريش .

فهزت أريحية رسول الله — ﷺ — عدو الأمس ضرار بن الخطاب الذى فعل بالمسلمين الأفاعيل يوم أحد ، فقال :

يا نبى الهدى إليك لجا … حى قريش ولات حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأر … ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القو … م ونودوا بالصيلم الصلعاء[1]
إن سعدا يريد قاصمة الظهـ … ـر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجى لو يستطيع من الغيـ … ـظ رمانا بالنسر والعواء[2]
وغر الصدر لا يهم بشىء … غير سفك الدما وهتك النساء
قد تلظى على البطاح وجاءت … عنه هند بالسوءة السوآء
إذ ينادى بذل حى قريش … وابن حرب بدا من الشهداء
فلئن أقحم اللواء ونادى … يا حماة اللواء أهل اللواء
ثم ثابت إليه من بهم الخز … رج والأوس أنجم الهيجاء
لتكونن بالبطاح قريش … فِقمة[3] القاع فى أكف الإماء
فانهينه فإنه أسد الأسـ … ـد لدى الغاب والغُ فى الدماء
إنه مطرق يريد لنا الأمـ … ـر سكوتا كالحيَّة الصماء

فأرسل رسول الله — ﷺ — إلى سعد بن عبادة فنزع اللواء من يده وجعله

---

(١) التقت حلقتا البطان مثل فى بلوغ الأمر . والبطان : حزام يجعل تحت بطن البعير . والصيلم : الداهية الشديد .

(٢) النسر والعواء : كوكبان .

(٣) الفقمة : ضرب من الكمأة وهى البيضاء الرخوة يشبه بها الرجل الذليل .

بيد قيس ابنه ، ورأى رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن اللواء لم يخرج عنه إذ صار إلى ابنه .

ووقف خالد بن الوليد والذين معه حيث غرز رايته وراح يدعو صفوان وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل ومن معهم من قريش إلى الإسلام ، فكان ردهم أن رموا المسلمين بالنبل . وكف خالد ما استطاع ولكن صفوان والذين معه شرعوا أسلحتهم للقتال ومشوا إلى المسلمين مشى الوعول ، فلم يجد خالد بدأ من أن يقاتل من قاتلوه فأعمل فيهم السيف فقتل منهم أناسا ، واستمر يدفعهم إلى أن وصل الجزورة إلى باب المسجد ، وصعدت طائفة منهم الجبل فتبعهم المسلمون . فرأى ـــ ﷺ ـــ وهو على العقبة بارقة السيوف فقال :

ـــ ما هذا وقد نهيت عن القتال ؟

فقيل له :

ـــ لعل خالدا قوتل وبدىء فى القتال فلم يكن له بد من أن يقاتل من قاتله ، وما كان يا رسول الله ليخالف أمرك .

وقتل خالد من المشركين أربعة وعشرين من قريش وأربعة من هذيل ، وبعث رسول الله ﷺ ـــ إلى خالد وقال له :

ـــ لم قاتلت وقد نهيت عن القتال ؟

ـــ هم يا رسول الله بدءونا بالقتال ورمونا بالنبل ووضعوا السلاح ، وقد كففت ما استطعت ودعوتهم إلى الإسلام فأبوا ، حتى إذا لم أجد بدأ من أن أقاتلهم فظفرنا بهم فهربوا من كل وجه .

وفر حماس بن قيس بن خالد أخو بكر يترقب من الخوف بعد أن شهد يوم الخندمة ورأى سيوف المسلمين تحصد الرجال ، واستمر يعدو مبهور الأنفاس

حتى دخل على امرأته وقال وهو يرتجف من الرعب :

ــ أغلقى على بابى .

وتذكرت زوجه قوله :

إن يقبلوا اليوم فما علـه ... هـذا سلاح كامل وآلـة[١]
وذو غرارين[٢] سريع السلَّة

فقالت فى هزء :

ــ فأين الذى كنت تقول ؟ أين الخادم الذى وعدتنى ؟

فقل :

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فر صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد قائم كالموتمة ... واستقبلتنا بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة ... ضربا فلا تسمع إلا غمغمة
لهم نَهيتٌ[٣] خلفنا وهمهمة ... لا تنطقى فى اللوم أدنى كلمة

وهرب هبيرة بن أبى وهب زوج أم هانىء بنت أبى طالب أخت على لأبويه إلى نجران ، وقال معتذرا عن فراره :

لعمرك ما وليت ظهرى محمدا ... وأصحابه جبنا ولا خيفة القتل
ولكننى قلبت أمرى فلم أجد ... لسيفى غناء إن ضربت ولا نبلى
وقفت فلما خفت ضيعة موقفى ... رجعت لعود كالهزبر إلى الشبل

---

(١) الآله : جمع أداة الحرب .

(٢) الغرار : حد الرمح .

(٣) النهيت : زئير الأسد .

٧

دخل ــ ﷺ ــ مكة وهو راكب على ناقته القصواء مردفا أسامة بن زيد بكرة يوم الجمعة ، وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه بغير إحرام ، ولواؤه أبيض ورايته العقاب سوداء قد شهدت خيبر والفتح . ودخل عليه السلام من كداء واضعا رأسه على رحله تواضعا لله ثم قال :

ــ اللهم إن العيش عيش الآخرة .

وتقدم المهاجرون والأنصار : وكان شعار المهاجرين يا بنى عبد الرحمن ، وشعار الخزرج يا بنى عبد الله . وشعار الأوس يا بنى عبيد الله ، ولم يكن قتال فكان شعارهم الذى يعرف به بعضهم بعضا فى ظلمة الليل . حتىٰ إذا ما بلغ الحجون موضع ما غرز الزبير رايته عند شعب أبى طالب طافت برأسه عليه السلام ذكريات : رأى أيام الشدة ، أيام أن حصرت قريش فى الشعب بنى هاشم وبنى المطلب وتعاهدت قريش على أن لا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم ولا يزوجوهم ولا يتزوجوا منهم ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، ووقف فحمد الله وأثنى عليه ونظر إلى موضع قبته والتفت إلى جابر وقال :

ــ هذا منزلنا يا جابر حيث تقاسم قريش علينا .

فذكر جابر حديث المقاطعة وكان سمعه منه ــ ﷺ ــ قبل ذلك بالمدينة ، ونزل عليه السلام فى قبة من أدم ضربت له هناك ومعه فيها أم سلمة وميمونة زوجتاه ــ ﷺ ، وما كاد يستقر حتى تذكر حديث أسامة بن زيد :

— يا رسول الله أين تنزل ؟ غدا تنزل فى دارك .

— وهل ترك لنا عقيل من دار ؟

ثم سار — ﷺ — وإلى جانبه أبو بكر رضى الله عنه يحادثه ويقرأ سورة الفتح حتى جاء البيت وطاف به سبعا على راحلته ، ومحمد بن مسلمة آخذ بزمامها ليستلم الحجر بمحجن فى يده ، وكان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنما لكل حى من أحياء العرب صنم قد شدت أقدامها بالرصاص ، فجاء رسول الله — ﷺ — معه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم منها فيخر لوجهه وهو يقول :

— جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

وبقى هبل فى جوف الكعبة وقد أرخى الليل سدوله ، فقال — ﷺ — لعلى كرم الله وجهه :

— اصعد على منكبى واهدم الصنم .

— يا رسول الله بل اصعد أنت فإنى أكرمك أن أعلوك .

— فاصعد أنت .

فجلس النبى — ﷺ — فصعد علىّ كرم الله وجهه على كاهله ثم نهض به ، فخيل لعلى حين نهض به أنه لو شاء لنال أفق السماء ، فصعد فوق ظهر الكعبة وتنحى رسول الله — ﷺ — وراح علىّ يعالج الصنم حتى تمكن من رفعه فألقاه على الأرض وأبو سفيان ينظر ورسول الله يقول :

— جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

فالتفت الزبير بن العوام إلى أبى سفيان وقال :

— قد كسر هبل ، أما إنك قد كنت فى يوم أحد فى غرور حين تزعم أنه قد أنعم .

فقال أبو سفيان :

ـــ دعنى ولا توبخنى ، لو كان مع إلٰه محمد إلٰه آخر لكان الأمر غير ذلك .

وانطلق المسلمون يدفون إلى الكعبة دفيف النسور ويحنون إليها حنين الطير إلى بيضها لهم عجيج(١) منطلق من أفئدة عامرة بأنوار اليقين ، على الشفاه تسبيح وفى المآقى الدموع ، وعمر بن الخطاب مستبشر بالفتح يعكر صفاءه ذكريات يوم الحديبية ، يلوم نفسه على تلك الثورة العارمة التى ثارها لما وقع الصلح ، فما استطاع أن يرى أن ذلك الصلح هو النصر والفتح المبين .

وراح يقرأ سورة الفتح وقد سجدت كل مشاعره لله ، وراح يدعو الله أن يغفر له ما كان منه وينذر الصوم وفك الرقاب لعل ذلك يكون كفارة عما بدر منه فى ذلك اليوم الشديد .

وأرسل عليه الصلاة والسلام بلالاً إلى عثمان بن أبى طلحة يأتى بمفتاح الكعبة ، فجاء إلى عثمان فأخبره فقال :

ـــ إنه عند أمى .

فرجع بلال إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فاخبره أن المفتاح عند أمه ، فبعث إليها رسولا فقالت :

ـــ لا واللات والعزى لا أدفعه أبدا .

فقال عثمان :

ـــ يا رسول الله أرسلنى أخلصه لك منها .

فأرسله فجاء إليها فطلبه منها فقالت :

---

(١) العجيج : الصراخ .

ـــ لا واللات والعزى لا أوصله إليك أبدا :

ـــ يا أمه ادفعيه إلىّ فإنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه إن لم تفعلى قُتلت أنا وأخي ويأخذه منك غيرى .

فأدخلته حجرها وقالت :

ـــ أى رجل يدخل يده ههنا ؟ أنشدك الله أن يكون ذهاب بائرة قومك على يديك .

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ قائما ينتظر حتى إنه ليتحدر منه كالجمان من العرق ، فلما رأى أبو بكر وعمر ذلك انطلقا إلى دارها ، فبينا عثمان بن أبى طلحة يحاور أمه إذ سمعت صوت أبى بكر وعمر فى الدار ، وعمر رافعا صوته وهو يقول :

ـــ يا عثمان اخرج .

فقالت :

ـــ يا بنى خذ المفتاح فأن تأخذه أحب إلىّ من أن تأخذه تيم وعدى .

فأخذه عثمان وخرج يمشى حتى إذا كان قريبا من وجه رسول الله ـــ ﷺ ، فاستقبله عثمان ببشر واستقبله عليه السلام ببشر فأخذ منه المفتاح ، فلما أخذه قال :

ـــ ادعوا إلىّ عمر .

فجاء فقال له ـــ ﷺ ـــ ومفتاح الكعبة فى يده :

ـــ هذا الذى قلت لكم .

ودخل ـــ ﷺ ـــ هو وأسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة ، وكان خالد بن الوليد يذب الناس وهو واقف على باب الكعبة ، وأمر عليه السلام بلال بن رباح أن يؤذن فأذن وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث

ابن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد :

— أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا فيسمع ما يغيظه .

فقال الحارث :

— أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته .

فقال أبو سفيان :

— لا أقول شيئا ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى .

ورأى عليه السلام فى الكعبة صور الملائكة وصور إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما الأزلام يستقسمان . وصور الأنبياء وصورة مريم فقال :

— قاتل الله قوما يصورون ما لا يخلقون .

وأمر عليه السلام عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان أن يقدما إلى البيت ليمحوا كل صورة فيه ، ومحيت الصور وبقيت صورة إبراهيم ، فقال عليه السلام لعمر :

— يا عمر ألم آمرك ألا تترك فيها صورة ؟ قاتلهم الله حيث جعلوه شيخا يستقسم بالأزلام . « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين »(١) .

ودعا — ﷺ — بدلو ماء فأتاه به أسامة بن زيد فجعل — ﷺ — يمحوها ، ووجد حمامة من عيدان فكسرها بيده وطرحها ، وكبر فى نواحى البيت وصلى به ركعتين بين العمودين اليمانيين وبينه وبين الجدار ثلاثة أذرع .

وفتح باب الكعبة وكان أول من ولج ابن عمر فتتبع خطوات الرسول ، فلقى بلالا فسأله :

---

(١) آل عمران ٦٧ .

— هل صلى فيه رسول الله — ﷺ ؟

— نعم .

فذهب ابن عمر ليصلى حيث صلى رسول الله — ﷺ .

ووقف — صلوات الله وسلامه عليه — على باب الكعبة فقال :

— لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الأبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها .

— يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب .

ثم تلا قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم أن الله عليم خبير »(١) .

ووضع — ﷺ — يده على عضادتى الباب ثم قال :

— ماذا تقولون وماذا تظنون أنى فاعل فيكم ؟

— خيرا .

فقال أحدهم :

— نقول خيرا ونظن خيرا . أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت .

— أقول كما قال أخى يوسف : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . اذهبوا فأنتم الطلقاء .

---

(١) الحجرات ١٣ .

وتهللوا بالسرور لكأنما نشروا من القبور ، ثم جاء — ﷺ — إلى مقام إبراهيم وكان لاصقا بالكعبة فصلى ركعتين ، ثم أخره حتى لا يعوق الطائفين ، ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال :

— لولا أن تغلب بنو عبد المطلب على وظيفتهم لنزعت منها دلوا .

كانت السقاية فى بنى عبد المطلب وكان عليها العباس ، فخشى عليه السلام أن ينزع منها دلوا فيقتدى الناس به ويغلبون بنى عبد المطلب على وظيفتهم ، وانتزع له العباس دلوا فشرب منه وتوضأ فابتدر المسلمون يصبون على وجوههم .

وجلس رسول الله — ﷺ — فى المسجد والناس حوله ، فقام إليه على ابن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده فقال :

— يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية .

فقال عليه السلام :

— أين عثمان بن أبى طلحة ؟

فدعى له فقال :

— هاك مفتاحك يا عثمان . اليوم يوم بر ووفاء .

ودفع إليه رسول الله — ﷺ — المفتاح وهو يقول :

— خذوها يا بنى أبى طلحة تالده خالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم .

ودفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب .

وأتى أبو بكر بأبيه يقوده ، فلما رآه رسول الله ﷺ — قال :

— هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ؟

قال أبو بكر :

— يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت .

فأجلسه بين يديه ثم مسح صدرة ثم قال له :

ــ أسلم .

فأسلم ، وهنأ رسول الله ــ ﷺ ــ أبا بكر بإسلام أبيه ، وعند ذلك قال أبو بكر للنبى ــ ﷺ :

ــ والذى بعثك بالحق لإسلام أبى طالب كان أقر لعينى من إسلامه ، وذلك لأن إسلام أبى طالب كان أقر لعينك .

ثم أتى رسول الله ــ ﷺ ــ الصفا فعلاه حيث ينظر إلى البيت ، فرفع يديه ، فجعل يذكر الله بما يشاء أن يذكره ويدعوه والأنصار تحته ، قال بعضهم لبعض :

ــ أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ورأفة بعشيرته .

فنزل الوحى عليه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بما ذكر القوم ، فلما قضى الوحى رفع رأسه وقال :

ــ يا معشر الأنصار قلتم : أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ورأفة بعشيرته .

ــ قلنا ذلك يا رسول الله .

ــ فما أسمَّى إذا إن فعلت ذلك ؟ كيف أسمى وأوصف بأنى عبد الله ورسوله ؟ لا أفعل ذلك . إنى عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم فالمحيا محياكم والممات مماتكم .

فأقبلوا إليه يبكون ويقولون :

ــ والله ما قلنا الذى قلنا إلا الضن بالله ورسوله .

٨

لجأ عبد الله بن أبى سرح إلى عثمان بن عفان أخيه فى الرضاعة فقال :

ـــ يا أخى استأمن لى رسول الله ـــ ﷺ ـــ قبل أن يضرب عنقى .

فغيبه عثمان وأطرق عبد الله يذكر ما كان ، إنه كان قد أسلم وكان يكتب لرسول الله ـــ ﷺ ـــ الوحى ، وكان ـــ ﷺ ـــ إذا أملى عليه سميعا بصيرا كتب عليما حكيما ، وإذا أملى عليه عليما حكيما كتب غفورا رحيما .

إنه لما كتب « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر »(١) . تعجب من تفصيل خلق الإنسان فنطق بقوله فتبارك الله أحسن الخالقين قبل إملائه ، فقال ـــ ﷺ :

ـــ اكتب ذلك هكذا أنزلت .

فاستولى عليه الغرور ولعب به الشيطان فقال :

ـــ إن كان محمد نبيا يوحى إليه فأنا نبى يوحى إلىّ .

فارتد ولحق بمكة فقال لقريش :

ـــ إنى كنت أصرف محمدا كيف شئت ، كان يملى علىّ عزيز حكيم فأقول : أو عليم حكيم فيقول نعم ، كل صواب . وكل ما أقول يقول : اكتب هكذا نزلت .

---

(١) المؤمنون ١٢ ـــ ١٤ .

إن رسول الله — ﷺ — أهدر دمه ولطالما افترى عليه ، وقال ليرضى قريشا إن محمدا لا يعلم ما يقول . إنه خان الأمانة وظهرت خيانته فلم يستطع أن يقيم فى المدينة و لم يكتف بالردة والهروب بل أطلق لسانه كذبا لينال الحظوة عند أناس باعوا آخرتهم بدنياهم ، إن ذنبه عظيم ولكنه يعلم أن عفو رسول الله — ﷺ — أعظم . فلما هدأ الناس واطمأنوا خرج عثمان بن عفان ذو النورين إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فاستأمن له وكان عليه السلام يستحى من عثمان ، فعاد عثمان إلى حيث كان عبد الله بن أبى سرح فأتى به إلى النبى — ﷺ — فأعرض عنه صلوات الله وسلامه عليه فصار عثمان يقول :

— يا رسول الله أمنته .

والنبى — ﷺ — يعرض عنه ، وعباد بن بشر عنده وكان نذر إن رأى عبد الله قتله وقد أخذ بقائم السيف ينتظر النبى يشير إليه أن يقتله . فلما لم يفعل قال عليه السلام :

— نعم .

فبسط يده فبايعه ، فلما خرج عثمان وعبد الله قال — ﷺ — لمن حوله :

— أعرضت عنه مرارا ليقوم عليه بعضكم فيضرب عنقه .

وقال لعباد بن بشر :

— انتظرت أن تفى بنذرك .

— يا رسول الله خفتك ، أفلا أومضت إلىّ ؟

— إنه ليس لنبى أن يومض .

وصار عبد الله بن أبى سرح يستحى من مقابلته — ﷺ — فقال عليه السلام لعثمان بن عفان :

— أما بايعته وأمنته ؟

— بلى ، ولكن يذكر جرمه القديم فيستحى منك .

— الإسلام يجب ما قبله .

وأخبره عثمان بذلك فصار إذا جاء جماعة للنبى — ﷺ — يجىء معهم ولا يجىء إليه منفردا .

وكان ابن خطل ينطلق مرعوبا إلى الكعبة ليلوذ بها . إنه علم أن رسول الله — ﷺ — قد أهدر دمه . إنه وهو على ظهر فرسه يذكر فى وضوح كل ما اقترفه من ذنوب ، فالموت أدنى إليه من شراك نعله . إنه كان قد أسلم وكان اسمه عبد العزى فسماه رسول الله — ﷺ — عبد الله ، وبعثه رسول الله — عليه صلوات الله وسلامه — لأخذ الصدقة وأرسل معه رجلا من الأنصار يخدمه ، فنزل منزلا وأمره أن يذبح له تيسا ويصنع له طعاما ، ونام ثم استيقظ فلم يجده صنع له شيئا وهو نائم فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركا ، وكان شاعرا يهجو رسول الله — ﷺ — فى شعره وكانت له قينتان تغنيانه بهجاء رسول الله — ﷺ — الذى يصنعه .

إنه ركب فرسه وقد لبس الحديد وأخذ بيده قناة وصار يقسم :

— لا يدخلها محمد عنوة .

فلما رأى خيل الله دخله الرعب فانطلق إلى الكعبة فنزل عن فرسه وألقى سلاحه ودخل تحت أستارها ، فأخذ رجل سلاحه وركب فرسه ولحق برسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بالحجون فأخبره خبره ، فقال عليه السلام :

— اقتلوه فإن الكعبة لا تعيذ عاصيا ولا تمنع من إقامة حد واجب .

فاهتبره بأسيافهم سعد بن حريث وأبو برزة والزبير وسعد بن ذؤيب .

وأمر — ﷺ — بقتل قينتيه . فقتلت إحداهما واستؤمن من رسول الله — ﷺ — للأخرى فأمنها وأسلمت .

وخرج الحويرث بن نفيد هائما على وجهه لا يلوى على شيء . إنه كان يؤذى رسول الله — ﷺ — بمكة ويعظم القول فى أذيته وينشد الهجاء . وكان العباس عم النبى — ﷺ — حمل فاطمة وأم كلثوم بنتى رسول الله عليه السلام من مكة يريد بهما المدينة فنخس الحويرث البعير الحامل لهما فرمى بهما الأرض .

إنه فى فزع حتى الموت . فعلى بن أبى طالب فى أثره يطلبه بعد أن أهدر دمه رسول الله — صلوات الله عليه . واستمر الحويرث يعدو حتى أحس أن السماء والأرض أطبقتا عليه ، إنه يترقب فى رعب مبهور الأنفاس فعلى قد لحق به و لم يعد بينهما إلا خطوات ، وضربه على ضربة كانت وترا فتركه جثة بلا حراك .

وكان مقيس بن ضبابة فى جماعة من قريش يشرب خمرا دون أن يدرى أن رسول الله — ﷺ — أمر بقتله ، إنه كان قد أتى النبى — ﷺ — مسلما طالبا لدية أخيه هشام بن ضبابة قتله رجل من الأنصار فى غزوة ذى قرد خطأ يظنه من العدو . ودفع له النبى — ﷺ — دية أخيه ، ثم إنه عدا على الأنصارى قاتل أخيه فقتله بعد أخذ دية أخيه ، ثم لحق بمكة مرتدا .

وأخبر ابن عمه نميلة بن عبد الله الليثى أن مقيسا مع جماعة من كبار قريش يشربون الخمر ، فذهب إليه فقتله وهو قرير العين ، فلو أن غيره من المهاجرين أو الأنصار كان قد قتله فقد كان ذلك يوغر صدره على صحابى من أصحاب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه .

وأطلق هبار بن الأسود ساقيه للريح . كان عرض لزينب بنت رسول

الله — ﷺ — فى سفهاء من قريش حين بعث بها زوجها أبو العاص إلى المدينة . فأهوى إليها هبار ونخس بعيرها وضربها بالرمح فسقطت من على الجمل على صخرة وكانت حاملا ، فألقت ما فى بطنها وأهراقت الدماء و لم تزل تعانى من ذلك المرض .

إن رسول الله — ﷺ — قال لجماعة فيهم أبو هريرة :

— إن لقيتم هبارا فأحرقوه .

ثم قال :

— إنما يعذب بالنار رب النار . إن ظفرتم به فاقطعوا يده ورجله ثم اقتلوه .

وخرجوا يطلبونه ولكنهم لم يجدوه فقد هرب من رسول الله — ﷺ — فى البلاد .

وفر عكرمة بن أبى جهل إلى اليمن لما أمر رسول الله — ﷺ — بقتله . إنه كان أشد الناس هو وأبوه أذية للنبى — ﷺ — فلما أسلمت امرأته بنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام خرجت فى أثره فوجدته فى ساحل البحر يريد أن يركب السفينة ، فقالت له :

— يا بن عم جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس . لا تهلك نفسك فقد استأمنت لك .

فجاء معها حتى إذا ما رآه رسول الله — ﷺ — وثب إليه قائما فرحا به ، فقد تذكر عليه السلام أنه رأى فى منامه أنه دخل الجنة ورأى فيها عذقا فأعجبه وقال : لمن هذا ؟ فقيل لأبى جهل ، فشق ذلك عليه — ﷺ — وقال : لا يدخلها إلا نفس مؤمنة . فلما جاءه عكرمة بن أبى جهل مسلما فرح به وأول ذلك العذق لعكرمة .

وتقدم عكرمة من رسول الله — ﷺ — على استحياء ، ثم التفت إلى زوجه وقال :

— يا محمد هذه أخبرتنى أنك أمنتنى .

— صدقت ، إنك آمن .

فقال عكرمة فى انفعال :

— أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، وأنك عبده ورسوله .

وطأطأ رأسه من الحياء ، فقال له — ﷺ — :

— يا عكرمة ما تسألنى شيئا أقدر عليه إلا أعطيتكه .

— استغفر لى كل عداوة عاديتكها .

— اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها أو منطق تكلم به .

ولما نزل رسول الله — ﷺ — بأعلى مكة فر إلى أم هانىء أخت على بن أبى طالب الحارث بن هشام وزهير بن أمية فاستجارا بها فأجارتهما ، فدخل عليها أخوها علىّ كرم الله وجهه وأراد قتلهما . قال :

— والله لأقتلنهما .

— قد أجرتهما .

— تجيرين المشركين !

وحالت بينه وبينهما فخرج فأغلقت عليهما بيتها فقد كانا من أقارب زوجها هبيرة بن أبى وهب ، ثم جاءت النبى — ﷺ — بأعلى مكة فوجدت الفاتح العظيم يغتسل من جفنة فيها أثر العجين وفاطمة ابنته تستره بثوب ، فسلمت عليه فقال :

— من هذه ؟

— أم هانىء .

وكانت أم هانىء لم تسلم بعد فقال :

— مرحبا بأم هانىء .

فلما اغتسل أخذ ثوبه وتوشح به ثم صلى ثمان ركعات من الضحى ، ثم أقبل على أم هانىء فقال :

— ما جاء بك ؟

— فر إلى الحارث بن هشام وزهير بن أمية مستجيرين بى فأجرتهما .

فقال عليه السلام وهو بادى البشر :

— أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت فلا نقتلهما .

ولما ذكر ذلك لابن عباس قال :

— إنى كنت أمر على هذه الأية : « يسبحن بالعشى والإشراق »[١]

فأقول : صلاة ، صلاة الإشراق ، فما عرفت صلاة الإشراق إلا الساعة .

وأسلمت أم هانىء وانطلق عليه السلام إلى بيتها فقال لها :

— هل عندك من طعام نأكله ؟

فقالت فى استحياء :

— ليس عندى إلا كسر يابسة وأنا أستحى أن أقدمها إليك .

— هلمى بهن .

فكسرهن فى ماء وجاءت بملح فقال :

— هل من أدم ؟

— ما عندى يا رسول الله إلا شىء من خل .

— هلميه .

---

(١) ص ١٨ .

فصبه القائد المظفر والفاتح العظيم على الكسر وأكل منه ثم حمد الله ، ولا جرم فهو خير البشر ، أسوة الإنسانية الحسنة ، رسول رب العالمين .

وخرج رسول الله ﷺ ، إلى المسجد ، فجاءه عمير بن وهب فقال :

— يا نبى الله صفوان سيد قومى قد هرب ليقذف نفسه فى البحر فأمنه ، فإنك أمنت الأحمر والأسود .

— دونك ابن عمك فهو آمن .

— أعطنى آية يعرف بها أمانك .

فأعطى — ﷺ — لعمير عمامته التى دخل بها مكة ، فأنطلق عمير على ظهر راحلته يغذ السير إلى مرفأ مكة فلحقه وهو يريد أن يركب البحر ، فلما رآه صفوان بن أمية قال له :

— اغرب عنى ، لا تكلمنى .

— أى صفوان فداك أبى وأمى ، جئتك من عند أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس وابن عمك ، عزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك .

— إنى أخاف على نفسى .

— هو أحلم من ذلك وأكرم .

فرجع معه حتى وقف على رسول الله — ﷺ — وقال :

— إن هذا يزعم أنك أمنتنى .

— صدق .

— يا رسول الله أمهلنى بالخيار شهرين .

إن الله يقول : « لا إكراه فى الدين »[١] . وإن رسول الله — ﷺ —

---

(١) البقرة ٢٥٦ .

لأحق الناس باتباع أوامر ربه فقال :

ــ أنت بالخيار أربعة أشهر .

وكانت الصحابة أحرص شيء على قتل وحشى ، فإنهم ليذكرون قول رسول الله ــ ﷺ ــ يوم أحد لما وقف على جثة حمزة : ما وقفت موقفا أغيظ لى من هذا . فراحوا يقتفون أثر وحشى ولكنه تمكن من الفرار إلى الطائف .

وجلس رسول الله ــ ﷺ ــ على الصفا يبايع الناس . فجاء الكبار والصغار والرجال والنساء يبايعهم على الإسلام ، وذكريات أيام الإسلام الأولى تطوف بالأذهان . كان بيت الأرقم قائما على الصفا وكان الذين يرغبون فى الإسلام ينسلون إلى ذلك البيت ليقابلوا رسول الله ــ ﷺ ــ مستخفين من أعين الناس خشية بطش سادات قريش ، فأين الأمس من اليوم ؟ فمن بقى حيا من أشراف قريش أعلن إسلامه أو جاء يلتمس الأمان .

وتحركت الألسن بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا . وجاء ــ ﷺ ــ رجل فأخذته الرعدة ، فقال له ــ ﷺ :

ــ هون عليك فإنى لست بملك . إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .

وتقدم معاوية بن أبى سفيان ليبايع نبى الإسلام عليه السلام ، فقد وقع الإسلام فى قلبه لما كان عام الحديبية فذكر ذلك لأمه هند بنت عتبة ، فقالت له :

ــ إياك أن تخالف أباك فيقطع عنك القوت .

لم يكن أول من تفتح قلبه للإسلام فى بيت أبى سفيان ، فأم حبيبة قد سبقته

وأعلنت إسلامها وأكرمها الله فصارت أما للمؤمنين ، فأسلم وأخفى إسلامه فقال له يوما أبو سفيان وكأنه شعر بإسلامه : أخوك خير منك ، هو على ديني .

ولما كان يوم الفتح أظهر إسلامه ولقى رسول الله — ﷺ — فرحب به ، وجاء عبد الله بن الزبعرى وكان ممن يؤذى رسول الله — ﷺ — أشد الأذية ، فأسلم واعتذر إلى رسول الله — ﷺ — فقبل عذره ، وكان شاعرا مجيدا فقال يمدح رسول الله — ﷺ — :

منع الرقاد بلابل وهموم ... والليل معتلج الرّواق بهيم (١)
مما أتانى أن أحمد لامنى ... فيه فِبتُ كأننى محموم
يا خير من حملت على أوصالها ... عيرانه سرح اليدين غشوم (٢)
إنى لمعتذر إليك من الذى ... أسديت إذ أنا فى الضلال أهيم
أيام تأمرى بأغوى خطة ... سهم وتأمرنى بها مخزوم
وأمد أسباب الردى ويقودنى ... أمر الغواة . وأمرهم مشئوم
فاليوم آمن بالنبى محمد ... قلبى ومخطىء هذه محروم
مضت العداوة وانقضت أسبابها ... ودعت أواصر (٣) بيننا وحلوم (٤)
فاغفر فِدًى لك والداى كلاهما ... وارحم فإنك راحم مرحوم
وعليك من سمة المليك علامة ... نور أغر وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبة برهانه ... شرفا وبرهان الإله عظيم

---

(١) معتلج الرواق بهيم : شديد الظلام أسود .

(٢) العيرانة من الإبل : الشديدة النشيطة . سرح اليدين : سويتهما . غشوم : لا يثنيها عن مرادها شيء .

(٣) الأواصر : الصلات .

(٤) الحلوم : العقول .

٩

فرغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ من بيعة الرجال فراح يبايع النساء ، وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة خوفا من رسول الله ـــ ﷺ . فلما دنين من رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال لهن :

ـــ بايعننى على أن لا تشركن بالله شيئا ولا تسرقن .

فقالت هند بنت عتبة :

ـــ والله أن كنت أصيب من مال أبى سفيان الهنة[١] بعد الهنة وما كنت أدرى أكان ذلك حلالا أم لا .

فقال أبو سفيان وكان حاضرا :

ـــ أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل ، عفا الله عنك .

فضحك النبى وعرفها فقال لها :

ـــ وإنك لهند بنت عتبة .

ـــ نعم فاعف عما سلف ، عفا الله عنك يا نبى الله .

ثم كشفت عن نقابها فقال عليه السلام :

ـــ مرحبا بك .

ثم راح عليه السلام يقول :

ـــ ولا تزنين .

---

(١) الهنة : الشىء اليسير .

فقالت هند :

ــ أوتزنى الحرة يا رسول الله ؟!

ــ ولا تقتلن أولادكن .

قالت هند :

ــ ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا !

فضحك عمر وتبسم ــ ﷺ ــ ثم قال :

ــ ولا تأتين ببهتان[1] تفترينه .

قالت هند :

ــ والله إن إتيان البهتان لقبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .

ــ ولا تعصينني فى معروف .

فقالت هند :

ــ والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى معروف .

وقالت بعض النسوة :

ــ ما هذا المعروف الذى لا ينبغى أن نعصيك فيه ؟

ــ لا تنحن ولا تخمشن وجها ولا تنشدن شِعرا ولا تحلقن شَعرا ولا تخرقن قرنا ولا تشققن جيبا[2] ولا تدعين بالويل .

وفرغ رسول الله ــ ﷺ ــ من بيعة النساء ولم يصافحهن بل غمس يده فى إناء وأمرهن فغمسن أيديهن ، فكانت هذه البيعة .

وراح ــ ﷺ ــ ينظر إلى مكة وهو متفرح فى الله ثم قال :

ــ هذا ما وعدنى ربى .

---

(١) البهتان : الباطل .

(٢) الجيب : فتحة الصدر من القميص

ثم قرأ : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾[١] .

وعاد رسول الله — ﷺ — إلى قبته وجلس بين نسائه أم سلمة وميمونة ونساء من بنى عبد المطلب ، فإذا بمولاة لهند بنت عتبة تستأذن فأذن لها ، فدخلت عليه — ﷺ — بهدية هى جديان مشويان فقالت له :

— إن مولاتى تعتذر إليك وتقول إن غنمها اليوم لقليل الوالدة .

— اللهم بارك لكم فى غنمكم وأكثر والدتها .

وجاءت إليه هند بنت عتبة عدوة الأمس القريب منشرحة الصدر تستفتيه ، قالت :

— يا رسول الله إن أبا سفيان رجل ممسك . فهل علىّ من حرج أن أطعم من الذى له عيالنا ؟

— لا عليك أن تطعميهم بالمعروف .

وسار الحارث بن هشام فى مكة — بعد أن أجارته أم هانىء وأجاز رسول الله جوارها — يتلفت ، إنه يخشى بطش عمر بن الخطاب . وبلغ المسجد فجلس به وإذا به يرى عمر مقبلا فيخفق قلبه ويرتجف من الرأس إلى القدم . ولكن عمر يمر عليه وهو جالس فلا يتعرض له فيستشعر راحة . ثم ينهض ويسير بين المسلمين وهو آمن بأمان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — .

وطافت بذهنه مواقفه فى كل موطن مع المشركين فإذا بخجل يغمره . إنه آذى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أشد الأذى وقد صفح عنه الصفح الكريم وأجاره لأن أم هانىء قد أجارته . إنه لعلى خلق عظيم . وأثرت

(١) سورة النصر .

فى نفس الحارث مكارم أخلاق نبى الإسلام عليه السلام فإذا به يبرأ من أمراض قلبه ، وإذا بأنوار تشرق فى وجدانه ، وإذا به ينطلق فى الحرم كالمسحور .

ولقيه وهو داخل المسجد ، فلقيه صلوات الله وسلامه عليه بالبشر ، فوقف عليه السلام حتى جاءه فسلم عليه فأحس الحارث روحه تهفو إلى الرسول — ﷺ — وقلبه يمتلى بأنوار اليقين ، فينطق لسانه بشهادة الحق وفى الصدر انشراح وفى عينيه دموع ، فقال له عليه السلام :

— الحمد لله الذى هداك . ما كان مثلك يجهل الإسلام .

والتقى حسان بن ثابت بالحارث بن هشام فإذا بالذكريات تطوف برأسيهما . إن الحارث بن هشام قد فر يوم بدر عن أخيه أبى جهل فعيره حسان بفراره ، فاعتذر الحارث بن هشام عن ذلك بقوله :

الله يعلم ما تركت قتالهم ... حتى رموا مهرى بأشقر مزبد(١)
وعلمت أنى إن أقاتل واحدا ... أقتل ولا يضرر عدوى مشهدى
فصدفت عنهم والأحبة فيهم ... طمعا لهم بعقاب يوم مرصد

حسَّن الحارث الفرار يوم بدر وزعم أنه أعرض عنهم لطمعه فى أن يعقب الله له يوما يرصد الشر لهم ويمكنه منهم ، وما دار بخلده أن الله أبقاه ليخرج ذات يوم فى زمن عمر إلى الشام من مكة بأهله وماله مجاهدا ، وأن أهل مكة سيتبعونه يبكون فيرق ويبكى ويقول :

— أما لو كنا نستبدل دارا بدارنا أو جارا بجارنا ما رأينا بكم بدلا ، وإنها النقلة إلى الله .

---

(١) يريد بالأشقر الدم والمزبد الذى علاه الزبد

وما خطر له على قلب أنه سيموت شهيدا يوم اليرموك ليحيى عند ربه فى عليين .

وجاء النبى — ﷺ — عبد الله بن السائب بن أبى السائب ، وكان شريكا له فى الجاهلية ، فقال له :

— مرحبا بأخى وشريكى .

فأخذ عثمان وغيره يثنون عليه ، فقال لهم — صلوات الله وسلامه عليه — :

— لا تعلمونى به كان صاحبى ، كان لا يدارى ولا يمارى .

والتفت إليه — صلوات الله وسلامه عليه — وقال :

— قد كنت تعمل أعمالا فى الجاهلية لا تتقبل منك ، وهى اليوم تتقبل منك .

وكان سهيل بن عمرو قد اختبأ مع المختبئين فراسل وليده عبد الله ليأخذ أمانا منه — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله أبى تؤمنه .

— نعم ، فهو آمن بالله فليظهر .

ثم قال رسول الله — ﷺ — لمن حوله :

— من لقى سهيل بن عمرو فلا يحد إليه النظر . فلعمرى إن سهيلا له عقل وشرف وما مثل سهيل يجهل الإسلام .

فخرج ابنه عبد الله إليه فأخبره بمقالة رسول الله — ﷺ — فقال سهيل :

— كان والله برا صغيرا برا كبيرا .

فراح سهيل بن عمرو يقبل ويدبر دون أن يتعرض له أحد أن لم يدخل الإسلام ، فمقالته — ﷺ — الحميدة حببت فيه أعداء الأمس حتى الذين

لم يؤمنوا بدينه ، وشرحت بشاشته صدور الذين فى قلوبهم مرض للإسلام ، فقد حدث فضالة بن عمير بن الملوح نفسه بقتل النبى — ﷺ — وهو يطوف بالبيت ، فلما دنا منه رسول الله ﷺ — قال :

— يا فضالة .

— نعم يا رسول الله .

— ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

— لا شىء . كنت أذكر الله .

فضحك النبى ثم استغفر له ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . فوالله ما رفع يده عن صدره حتى ما خلق الله شيئا أحب إليه منه .

وقد هم حويطب بن عبد العزى العامرى بالإسلام أكثر من مرة ، كل ذلك يعوقه الحكم وينهاه ويقول له :

— تضع شرفك وتدع دين آبائك لدين محدث وتصير تابعا ؟

وما بقى من قريش أحد من كبرائها الذين بقوا على دين قومهم كان أكره لما هو عليه منه ، فأقام بمكة وقريش تسلم رجلا رجلا . فلما كان يوم الحديبية حضر وشهد الصلح ومشى فيه حتى تم وكل ذلك يريد الإسلام ويأبى الله عز وجل إلا ما يريد .

فلما كتب الصلح كان أحد شهوده وقال :

— لا ترى قريش من محمد — ﷺ — إلا ما يسوؤها .

ودخل رسول الله — ﷺ — مكة ، فخاف حويطب على نفسه خوفا شديدا فخرج من بيته وفرق عياله فى مواضع يأمنون فيها ، ثم انتهى إلى بستان عوف وكان فيه فإذا به يجد أبا ذر الغفارى وجها لوجه وكانت بينه وبينه خلة ، والخلة أبداً نافعة . فلما رآه هرب منه فقال أبو ذر :

ـــ أبا محمد .

ـــ لبيك .

ـــ ما لك ؟

ـــ الخوف .

ـــ لا خوف عليك . تعال أنت آمن بأمان الله جل وعز .

فرجع إليه وسلم عليه ، فقال أبو ذر :

ـــ اذهب إلى منزلك .

ـــ هل لى سبيل إلى منزلى ؟ والله ما أرانى أصل إلى بيتى حيا حتى ألقى فأقتل أو يدخل علىّ منزلى فأقتل وإن عيالى لفى مواضع شتى .

ـــ فاجمع عيالك فى موضع وأنا أبلغ معك منزلك .

فبلغ معه وجعل ينادى على بابه :

ـــ إن حويطب آمن فلا يهيج .

وانصرف أبو ذر إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأخبره ، فقال عليه السلام :

ـــ أوليس قد أمنا الناس كلهم إلا من أمرت بقتله ؟

فاطمأن حويطب ورد عياله إلى مواضعهم ، وعاد إليه أبو ذر فقال :

ـــ يا أبا محمد ، حتى متى وإلى متى ؟ قد سبقت فى المواضع كلها وفاتك خير كثير ويبقى خير كثير . فأت رسول الله فأسلم تسلم . رسول الله أبر الناس وأحلم الناس وأوصل الناس ، شرفه شرفك وعزه عزك .

ـــ فأنا أخرج معك فآتيه .

فخرج مع أبى ذر حتى أتى رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالبطحاء وعنده أبو بكر وعمر ، فوقف على رأسه وسأل أبا ذر :

ـــ كيف يقال إذا سُلّم عليه ؟

ـــ قل : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله .

فقالها ، فقال عليه السلام :

ـــ وعليك السلام . أحويطب ؟

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ الحمد لله الذى هداك .

وسر رسول الله ـــ ﷺ ـــ بإسلامه .

ونامت مكة أول ليلة فى أحضان الإسلام ، فلما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك ، فقام رسول الله ـــ ﷺ ـــ خطيبا بعد الظهر مسندا ظهره إلى الكعبة ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

ـــ أيها الناس إن الله تعالى قد حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض ويوم خلق الشمس والقمر ووضع هذين الجبلين ، فهى حرام إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر يسفك فيها دما ولا يعضد فيها شجرة . ولم تحل لأحد كان قبلى ولن تحل لأحد يكون بعدى . ولم تحل لى إلا هذه الساعة غضبا على أهلها . ألا قد رجعت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فمن قال لكم : إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا له : إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم .

يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل ، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين : إن شاءوا قدم قاتله ، وأن شاءوا فعقله .

ثم ودى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ذلك الرجل الذى قتلته خزاعة وهو ابن الأقرع الهذلى من بنى بكر ، فإنه دخل مكة وهو على شركه فعرفته خزاعة

فأحاطوا به فطعنه منهم خراش بنصال فى بطنه حتى قتله ، فلامه — ﷺ — وقال :

— لو كنت قاتلا مسلما بكافر لقتلت خراشا .

ونادى منادى رسول الله — ﷺ — بمكة :

— من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره .

فقام الناس إلى الأصنام التى كانت فى الدور فراغوا عليها باليمين فتركوها جثاثا[(١)] . وعمدت هند بنت عتبة إلى صنم كان فى بيتها وجعلت تضربه بالقدوم وتقول :

— كنا منك فى غرور .

(١) جثاثا : الجث : القطع ، وتركوها جثاثا: تركوها محطمة .

١٠

كان ــ ﷺ ــ متكئا على حصيرة فى القبة التى ضربت له بالحجون بعد أن جاء نصر الله والفتح وتطهر أول بيت وضع للناس ليكون منارة التوحيد من أوثان الشرك وأصنام الضلال ، وتحررت مكة من الخوف والقلق والفراغ ، وغمرها نور إلٰهى ملأ صدور الناس انشراحا وأفئدتهم هدوءا وفتح أمام أعينهم آمالا ، فقد باتت سعادة الدارين حقيقة ملموسة ، ففى الأرض عزة وفى السماء خلود .

وكان ــ ﷺ ــ فى قمة انتصاراته ، فقد فتحت مكة أبوابها طوعا أو كرها لاستقباله ، وهرع إليه أعداء الأمس يعلنون شهادة الحق ، وصلوا خلفه لله وحده بعد أن حطموا آلهتهم بأيديهم . إن كفاح السنين قد توج بالنصر المبين ، فلم يغير ذلك النصر من طباع رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بل زاده تواضعا لله رب العالمين .

إنه مع الله يعيش بالله وفى الله ، يرجو رحمة الله ويتقى الله ويتبع رضوان الله ويتوكل على الله ولا يتبع أهواء الناس ، حسبه الله يبتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة ، فوقع أجره على الله ففتح له فتحا مبينا وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأتم نعمته عليه وهداه صراطا مستقيما ونصره الله نصرا عزيزا .

وراح عليه السلام يستنشق عبير مكة والذكريات تجيش فى رأسه وقد امتلأ حنينا إلى أيام رسالته الأولى.إنه ليذكر خديجة أم المؤمنين حاضنة الإسلام من صدقته لما كذبه الناس وواسته لما عزت المواساة وكانت له وزير صدق على

الدوام فهوى فؤاده إليها . إنها ترقد خلفه فى المعلاة وإنه ليستشعر رغبة فى زيارة قبرها لتشاركه فرحة الانتصار كما شاركته آلام الاضطهاد وقسوة التعذيب . ليتها كانت فى هذه اللحظة الحاسمة إلى جواره تشرف على مكة وقد رقدت هانئة قريرة العين فى أحضان الإسلام .

وانتابته رقة ففرت من عينه دمعة ، فما فارقت ذهنه صورة خديجة سيدة نساء قريش فى أيام الشدة وفى أيام الرخاء ، فقد كان يحن إلى مواساتها إذا ما دهمته الأحداث ، ويتمنى أن تكون معه لتقاسمه أفراحه إذا ما جاء نصر الله . إنها فى ضميره على الدوام وإن غضبته لما أرادت عائشة أن تنفس عن غيرتها من طول ذكره لحاضنة الإسلام بالخير لهى سر قلبه الذى لم يخب حبه أبدا : « والله ما أبدلنى خيرا منها ، آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الولد دون غيرها من النساء » .

وخرج عليه السلام من القبة التى ضربت له بالحجون وسار إلى المعلاة حيث ترقد خديجة منذ ذلك اليوم الذى لا ينساه . إنه عاد إلى الدار بعد أن خلت ممن كانت له وزير صدق على الدوام وقد نال منه الكفار ونثروا على رأسه التراب فلم يجد من يشكو إليها ، فسح الدموع على الغالية التى كانت تمسح بحنانها الآلام ، كل الآلام .

وبلغ المعلاة ووقف على قبرها يقرئها السلام ، وإذا بأحداث الأيام الأولى تطوف بذهنه فيرى نفسه وهو يعدو مفزوعا من غار حراء بعد أن انصرف عنه جبريل الأمين حتى أتاها فجلس إلى فخذها ملتصقا ، وسرى فى وجدانه حديثه الذى حدثها به فإذا بصوتها الرقيق الذى كان البلسم وكان العزاء وكان التصديق والتأييد ينبعث لكأنما كان نبض الحياة : « أبشر يا بن عم واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة » .

إنه يراها وهى تجمع عليها ثيابها ثم تنطلق إلى ورقة بن نوفل ، وإنه ليسمع روايتها عن ورقة : قدوس قدوس ! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت . ورأى نفسه وهو يطوف بالكعبة وقد لقيه ورقة بن نوفل ، وسمع من وراء السنين قول ورقة : والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنَّه ولتؤذينَّه ولتخرجنَّه ولتقاتلنَّه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه .

ومس ذاكرته قول جبريل : « أقرىء خديجة السلام من ربها » . فأطرق أمام القبر فى إجلال ، وزاد وجده لما تذكر جوابها : « الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام » ، وانثالت على رأسه الذكريات فرأى خديجة فى أيام الحصار فى شعب أبى طالب ، فلولاها لهلك الناس ، فحكيم بن حزام كان يبعث إلى المحصورين بقمح إكراما لعمته خديجة . إنها ظلت إلى جواره تخفى آلام الجوع حتى رفع الحصار وقد أوشكت على البوار دون أن تفلت من بين شفتيها كلمة تذمر أو استياء . أنفقت أموالها فى سبيل الله ورسوله عن طيب خاطر ، وهجرت الترف راضية النفس ، ولم تسأله يوما النفقة كما فعلت نساؤه من بعدها ، إنها وحدها الحبيبة وما استطاعت أخرى أن تزحزحها عن قلبه وإن طال عهد الفراق .

وتخايلت له قلادتها فثارت فى نفسه مشاعر رقيقة ، إنها أهدتها إلى ابنتهما زينب ليلة زفافها ، وقد بعثت بها زينب إلى المدينة عقب هزيمة المشركين فى بدر لتفدى بها زوجها الأسير . فما إن رأى القلادة حتى امتلأ فؤاده شجوا وشجنا وحنينا وقال وقد رق لها رقة شديدة : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها

وتردوا عليها مالها فافعلوا .

إنها كانت تعد العاص بن الربيع بمنزلة ولدها فكان عليه السلام يكرمه إكراما لها ، وقد فرح بإسلامه وتمنى لو أن الطاهرة أم المؤمنين قد شهدت إسلام ابن أختها الحبيب . وإن نفسه لتتفتح لكل ما تفتحت له نفس خديجة ، وإنه ليحب كل من أحبت . وإنه ليذكر ذلك اليوم الذى أقبلت فيه أختها هالة إلى المدينة ، إنه سمع صوتها فى فناء داره وكان يشبه صوت خديجة فانتفض وقال فى وجد : « اللهم هالة ! » .

وهب نسيم الشتاء باردا على وجهه — صلوات الله وسلامه عليه ، فأفاق من الذكريات لحظات ثم دار على عقبيه وانطلق إلى مكة . وما لبث أن احتلت صورة المسلمة الأولى أقطار رأسه فإذا به يسير إلى مكان مولده بسوق الليل ، وراح يرنو إلى دار أبيه عبد الله فى حب وأسى ، فابن عمه عقيل بن أبى طالب أخذ بيت عبد الله لما هاجر عليه السلام إلى المدينة ، فلم يعد له دار فى أم القرى أحب أرض الله إليه .

ومد بصره إلى دار أبى طالب فتذكر يوم مات جده عبد المطلب ويوم اختصم فيه أعمامه ، ويوم انتقل وهو كسير الفؤاد من بيت جده إلى بيت عمه . وترقرقت فى عينيه دمعة لما طافت بذهنه فاطمة بنت أسد امرأة عمه وهى تحنو عليه تمسح برقتها آلام يتمه : إنه لا ينسى العطف السابغ الذى غمرته به وقد نزل معها فى قبرها وألبسها قميصه وقد أحس أنه فقد الأمومة الرءومة مرتين : مرة فى الأبواء لما ماتت أمه آمنة بنت وهب بين يديه ، ومرة أخرى لما فاضت روح فاطمة بنت أسد أم ربيبه على وحبيبه .

وسار إلى زقاق العطارين ووقف ساهما إلى دار خديجة أم المؤمنين ، إنه فى هذه الدار بنى بالطاهرة سيدة نساء قريش أم المؤمنين حاصنة الإسلام وأول من

تحركت شفتاها بشهادة الحق . إنه فى هذه الدار شهد مولد أولاده ، وقد ظل ساكنا فيها حتى هاجر إلى المدينة فأخذها عقيل بن أبى طالب .

شهدت هذه الدار آماله وآلامه وفجر شبابه ومبدأ رسالته ، هبط عليه فيها الوحى واختبأ عند الحجر الذى كان فى دهليزها من حجارة جيرانه أبى لهب وعقبة بن أبى معيط وأبى الحكم،إنهم كانوا لا يفتئون يلقون عليه الحجارة كلما رأوه يخرج من داره فكان يختبىء من قذائفهم ، حتى إذا ما انصرفوا خرج إلى الطريق فيتلقاه الصبيان بأناشيد الهجاء التى نظمها فى ذمه عمرو بن العاص ، إنه قاسى كثيرا وصبر كما صبر من قبل أولو العزم من الرسل ، وقد جنى ثمرة الصبر الحلوة فتحا مبينا ونصرا مؤزرا .

وعاد عليه السلام إلى الحرم فطاف به سبعا ثم راح يفكر ، إن أصحابه من أهل الضعف فى حاجة إلى مال وقد قال لأهل مكة : اذهبوا فأنتم الطلقاء . إنه أطلقهم من الأسر والاسترقاق و لم يغنم منهم شيئا . فرأى أن يقترض ما يحتاج إليه أهل الضعف من أصحابه فاستقرض — ﷺ — من ثلاثة نفر من قريش : أخذ من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم فرَّقها ، ومن عبد الله بن أبى ربيعة أربعين ألف درهم ، ومن حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم فرَّقها فى أصحابه أهل الضعف .

وجاء إليه ﷺ — سعد بن أبى وقاص وقد أخذ بيد ابن وليدة زمعة ، ومعه عبد بن زمعة ، فقال سعد :

— يا رسول الله هذا ابن أخى عتبة بن أبى وقاص عهد إلىّ أنه ابنه ، قال : إذا قدمت مكة انظر ابن وليدة ابن زمعة ولدته على فراشه .

فنظر — ﷺ — إلى ذلك الولد فإذا هو أشبه الناس بعتبة بن أبى وقاص ، فقال لعبد بن زمعة :

ـــ هو أخوك يا عبد بن زمعة من أجل أنه ولد على فراش أبيك زمعة ، الولد للفراش وللعاهر[1] الحجر .

وقال لزوجته سودة بنت زمعة ، لما رأى على .بن وليدة ابن زمعة من شبه عتبة :

ـــ احتجبى منه يا سودة فليس لك بأخ .

وسرقت امرأة فأراد ـــ ﷺ ـــ قطعها ، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعون به ، فلما كلمه أسامة فيها تلون وجهه ـــ ﷺ ـــ وقال :

ـــ أتكلمنى فى حد من حدود الله ؟

فقال أسامة وهو يضطرب رهبة :

ـــ استغفر لى يا رسول الله .

ثم قام ـــ ﷺ ـــ خطيبا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :

ـــ أما بعد ، فإن ما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

---

(١) للعاهر : عاهر المرأة أتاها ليلا للفجور .

١١

بعث رسول الله ـ ﷺ ـ فيما حول مكة السرايا يدعو لله عز وجل ، وكان ممن بعث خالد بن الوليد ، فخرج خالد ومعه من قبائل العرب سليم بن منصور ومدلج بن مرة ، فوطئوا بنى جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح فقال خالد :

ـ ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا .

فلما أمرهم خالد أن يضعوا السلاح قال رجل منهم يقال له جحدم :

ـ ويلكم يا بنى جذيمة ! إنه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار ، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق . والله لا أضع سلاحى أبدا .

فأخذه رجال من قومه فقالوا :

ـ يا جحدم أتريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح ، ووضعت الحرب وأمن الناس . فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ، ووضع القوم السلاح لقول خالد .

وتذكر خالد ما كان فى الجاهلية بين بنى جذيمة وقريش ، إن عمه الفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قد خرج وعوف بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة وعفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس تجارا إلى اليمن ، ومع عفان ابنه عثمان ومع عوف ابنه عبد الرحمن ، فلما أقبلوا حملوا مال رجل من بنى جذيمة بن عامر كان هلك باليمن إلى ورثته ، فادعاه رجل منهم يقال له خالد بن هشام ولقيهم بأرض بنى جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميت فأبوا

عليه ، فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذوه وقاتلوه فقتل عوف بن عبد عوف والفاكه بن المغيرة ، ونجا عفان بن أبى العاص وابنه عثمان ، وأصابوا مال الفاكه بن المغيرة ومال عوف بن عبد عوف فانطلقوا به .

وتذكر خالد أن عبد الرحمن بن عوف قتل خالد بن هشام قاتل أبيه ، وأن قريش قد همت بغزو بنى جذيمة فقالت بنو جذيمة :

ـــ ما كان مصاب أصحابكم عن بلادنا ، إنما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم ، فنحن نعقل لكم ما كان لكم قبلنا من دم أو مال .

فقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب .

ووجد خالد أن عمه الفاكه بن المغيرة لم يثأر له وأن بنى جذيمة كلها قد أصبحت فى قبضة يده ، فراودته فكرة الانتقام . إنهم لم يعلنوا إسلامهم ، وبينما كانت الفكرة تداعب رأسه جاءه عبد الله بن حذافة السهمى وقال :

ـــ إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم من الإسلام .

فأمر بهم خالد أن يكتفوا ثم عرضهم على السيف ، فقام إليه عبد الله بن عمر ينكر عليه فعله ، فعبد الله يعلم أن لا إكراه فى الدين ، فأعرض عنه خالد ، فقام إليه سالم مولى أبى حذيفة ينهاه ويراجعه ، ولكن خالدا أمر بضرب الرقاب ، فقتل منهم وانفلت رجل من القوم ليأتى رسول الله ـــ ﷺ ـــ .

وقال جحدم لقومه حين وضعوا السلاح ورأى ما يصنع خالد ببنى جذيمة :

ـــ يا بنى جذيمة ضاع الضَّرب . قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه .

وكان ابن أبى حدود السلمى يومئذ فى خيل خالد بن الوليد . فقال له فتى

من بنى جذيمة وهو فى سنه وقدجُمع يداه إلى عنقه برمّة (حبل بال) ونسوة مجتمعات غير بعيد منه :

— يا فتى .

— ما تشاء ؟

— هل أنت آخذ بهذه الرمة فقائدى إلى هؤلاء النسوة حتى أفضى إليهن حاجة ، ثم تردنى بعد فتصنع بى ما بدا لكم ؟

— والله يسير ما طلبت .

فأخذه برمته فقاده بها حتى وقف عليهن . فقال لفتاة(١) فى وجد :

— أسلمى حبيش على نفد من العيش .

وراح ينشد شعرا يبثها فيه لواعج نفسه ، ثم انصرف به ابن أبى حدرد فضربت عنقه ، فقامت إليه حين ضربت عنقه فأكبت عليه فما زالت تقبله حتى ماتت عنده .

وكان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — نائما فرأى كأنه لقم لقمة حيس(٢) فالتذ طعمها ، فاعترض فى حلقه منها شىء حين ابتلعها ، فأدخل على يده فنزعه ، فلما استيقظ قص رؤياه على أصحابه فقال أبو بكر الصديق :

يا رسول الله هذه سرية من سراياك تبعثها فيأتيك منها بعض ما تحب . ويكون فى بعضها اعتراض فتبعث عليا فيسهله .

---

(١) قصة عبد الله بن علقمة وذكر خبره مع حبيشة ذكرها الأصفهانى فى الجزء ٧ : ٢٨٠ (طبعة دار الكتب المصرية) .

(٢) الحيس : أن يخلط السمن والتمر والأقط : شىء يعقد مع اللبن ويجفف .

وجاء الرجل الذى انفلت من القوم إلى رسول الله — ﷺ — فأخبره ما فعل خالد ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— هل أنكر عليه أحد ؟

— نعم قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة فزجره خالد فسكت عنه ، وأنكر عليه رجل أخر طويل مضطرب فراجعه فاشتدت مراجعتهما .

فقال عمر بن الخطاب :

— أما الأول يا رسول الله فابنى عبد اللهِ ، وأما الآخر فسالم مولى أبى حذيفة :

ثم دعا رسول الله — ﷺ — على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال :

— يا على اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك .

فخرج على حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله — ﷺ — فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ليدى لهم ميلغة[١] الكلب ، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقيه من المال ، فقال لهم على كرم الله وجهه حين فرغ منهم :

— هل بقى لكم بقية من دم أو مال لم يؤد لكم ؟

— لا .

— فإنى أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطا لرسول الله — ﷺ — مما لا يعلم ولا تعلمون .

---

(١) اليلغة : شيء يحفر من الخشب ويجعل ليلغ فيه الكلب .

ففعل ثم رجع إلى رسول الله — ﷺ — فأخبره الخبر ، فقال :

— أصبت وأحسنت .

ثم قام رسول الله — ﷺ — فاستقبل القبلة قائما شاهرا يديه ، حتى لُيرى ما تحت منكبيه يقول :

— اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد .

وأقبل عبد الله بن عمر على أبيه يقص عليه ما كان من أمر خالد ، فساء ابن الخطاب ما كان من ابن الوليد وبذرت فى قلب عمر بن الخطاب بذرة كراهية ما يفعل خالد من أمر الجاهلية ، وستنمو هذه البذرة على مر الأيام حتى يعزل عمر خالد بن الوليد وهو فى قمة مجده .

وكان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام فى ذلك ، فقال له عبد الرحمن بن عوف :

— عملت بأمر الجاهية فى الإسلام .

فقال له خالد :

— إنما ثأرت بأبيك .

فقال عبد الرحمن .

— كذبت ، قد قتلت قاتل أبى ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة .

واشتد الجدال بينهما ، وانضم عمر بن الخطاب إلى عبد الرحمن بن عوف فبلغ رسول الله — ﷺ — فقال :

— مهلا يا خالد دع عنك أصحابى ، فوالله لو كان لك أحد ذهبا ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحته .

وحسب عمر أن رسول الله — ﷺ — لن يستعمل خالدا بعدما عمل بأمر الجاهلية فى الإسلام ، ولكن رسول الله — عليه السلام كان يعلم أن

خالدا قريب عهد بالجاهلية ولكنه سيف من سيوف الله المسلولة ، فبعثه إلى العزى وكانت بنخلة ، وكانت إلٰهة ترمز إلى كوكب الصباح وكان لها بيت يعظمه هذا الحى من قريش وكنانة ومضر كلها ، وكانت سدنتها وحجابها بنى شيبان من بنى سليم حلفاء بنى هاشم ، فلما سمع صاحبها السلمى بمسير خالد إليها علق عليها السيف وارتفع فى الجبل الذى هى فيه وهو يقول :

أيا عـــز شدى لا شوىَّ(١) لها على خالد ألقى القنـــاع وشمرى
ياعـز إن لم تقتلى المرء خالـــدا فبوئى بـإثم عاجـل أو تـنصَّرى

فانقص عليها خالد والذين معه فهدموها وخالد يقول :

يـا عـز كفـرانك لا سبحـــانك إنى رأيت الله قـــد أهـــانك

فانقضت بذلك عبادة إيزيس المصرية من بلاد العرب وإن بقيت بصورة أو بأخرى فى روما المسيحية ، كما انقضت من قبل عبادة أبولو إله الشعر لما تحطم هبل . وتطهرت الكعبة من آلهة المصريين والسوريين واليونان والرومان التى جلبها التجار العرب من تلك البلاد لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم .

(١) لا شوى لها : لا تبقى على شىء .

١٢

كان سواع على صورة امرأة . إنه تمثال جلب من أرض ما بين النهرين وكان قوم نوح يعبدونه فعبدته هذيل وحجت إليه وجعلت له خزانة توضع فيها كل ما يهدى إلى آلهة القوم . وكانت هذيل ككل العرب يؤمنون بالله ولكنهم كانوا يعتقدون أن آلهة الأرض تقربهم إلى إله السماء زلفى ، وكانت الأصنام والأوثان ترمز إلى الكواكب والنجوم فكان العرب يقولون إنها بنات الله !

جاء نوح ليدعو إلى عبادة الله وحده ، ثم طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وعادوا إلى اتخاذ الأصنام آلهة تشفع لهم عند الله ، فأطلقوا على تمثال امرأة اسم سواع بن نوح كأنما يأبى البشر إلا أن يحيل أئمة التوحيد إلى رموز الشرك والفسوق .

ولما تم لرسول الله ــ ﷺ ــ فتح مكة أرسل عليه السلام عمرو بن العاص فى جماعة من أصحابه إلى سواع ليكسره ويهدم محله ، فانتهى إلى ذلك الصنم وعنده سادنه ، فلما رأى عمرو بن العاص والذين معه أوجس منهم خيفة ، وقال لعمرو :

ــ ما تريد ؟

فقال عمرو :

ــ أمرنى رسول الله ــ ﷺ ــ أن أهدمه .

فراح السادن يتلفت فى رعب . أين عباد سواع الذين كانوا يهرعون إليه خاشعين ؟! أين الذين كانوا يأتون إليها مهطعين ملبين ؟! أين الذين كانوا

يسألونها خاشعين ؟ أين هذيل وأين صناديدها ؟

واستيأس السادن من القوم ، إنهم تخلوا عن آلهتهم فهل يتخلى عنها أبوها الذى فى السموات ، فراح يرنو إلى الصنم فى رجاء ثم يرفع بصره إلى السماء . وأحس عمرو بن العاص يتقدم إلى الصنم وفى يده المعول فقال السادن وهو مرعوب : ما تريد ؟

— أن أهدمه .

— لا تقدر .

— لِمَ ؟

— تُمنع .

فرماه عمرو بنظرة ازدراء وقال :

— حتى الآن أنت على الباطل ؟ وهل يسمع أو يبصر ؟!

فدنا عمرو منه فكسره وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا شيئا ، فنظر عمرو إلى السادن نظرة اتهام فأطرق الرجل حياء ، ثم رفع رأسه ودار حوار بينه وبين عمرو ، عمرو يشرح مبادىء الإسلام وصدر الرجل ينشرح للإسلام ، حتى إذا ما رأى عمرو أنوار اليقين تتلألأ فى وجه الرجل قال له :

— كيف رأيت ؟

قال السادن فى إيمان :

— أسلمت لله .

وأرسل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سعد بن زيد الأشهلى فى عشرين فارسا إلى صنم مناة ليهدم محله ، فلما وصلوا إلى الصنم قال السادن لسعد :

— ما تريد ؟

فقال سعد بن زيد فى ثبات :

ـــ هدم مناة .

وأحس السادن كأن الأرض قد زلزلت تحت قدميه ، أيقف مكتوف اليدين وهو يرى هدم رمز الآلهة ؟ إن سادات الأوس والخزرج كانوا يحجون إلى هذا الحرم وكانوا يذبحون عنده وكانوا يمضون أياما فى عبادة وخشوع وابتهال لمناة بعد عودتهم من الحج . وما كانت مراسم الحج تتم إلا بالطواف حول الصنم .

إنه ليذكر أول يوم سمع فيه ذكر مناة بسوء فى قرآن محمد ، جاء أحد الذين اعتنقوا الإسلام ورتل أمامه : « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قِسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى »(١). فانتفض غضبا وضاق بتلك السخرية اللاذعة ببنات الله ، وانتظر أن تهوى قارعة من السماء تصيب الصابىء الذى سفه أحلام الآباء وسب الآلهة . ولكن الأيام راحت تمر وذلك الصابىء ينتقل من نصر إلى نصر حتى أرسل أتباعه ليقوضوا الصنم المعبود : أتترك السماء هؤلاء العابثين دون عقاب ؟!

ووقف أمام الصنم وحده ليصد عنه كيد المسلمين ، ولكنه كان أهون من أن يحول بينهم وبين مناة . إنه ضعيف قد حاول أن يدافع عن إلهة الحظ والموت قدر طاقته ، ولكن الرجال كانوا أقوى منه فنحوه عن طريقهم ، فقال لسعد ابن زيد وهو يتقدم لهدم مناة :

ـــ أنت وذاك .

---

(١) النجم ١٩ ـــ ٢٣ .

والتفت إلى الصنم وقال فى إيمان :

— مناة دونك بعض صبيانك .

فهوى سعد بن زيد الأشهلى بالمعول على الصنم وراح أصحابه يعاونونه ، والسادن ينظر وهو يكاد أن يموت رعبا . وتناثرت الحجارة هنا وهناك والسادن يتمزق من الحزن ويتلوى من الألم قد ذهبت نفسه شعاعا ، ففى لحظة اندك إيمانه وأصبح قلبه هواء .

وانصرف سعد بن زيد الأشهلى والذين معه من الفرسان مستبشرين بينا وقف السادن يتلفت فى شرود وهو يستشعر فراغا ، قد ترك وحيدا فى وادى الضياع .

١٣

وقع الرعب فى قلب رجال هوازن وثقيف لما فتح الله على رسوله مكة ، وخشوا أن يسير بجيشه إليهم ، فمشى أشراف هوازن وثقيف بعضهم إلى بعض وقالوا :

ـــ قد فرغ لنا فلا ناهية .

فطنوا إلى أنه لم يعد هناك مانع له ـــ ﷺ ـــ دونهم ، فراحوا يحشدون الجموع ويقولون :

ـــ والله إن محمدا وصحبه لاقوا أقواما لا يحسنون القتال .

وراحت القبائل تتأهب للقتال ، وخرجت قبيلة بنى سعد بن بكر وهم الذين كان رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ مسترضعا فيهم لتضع نفسها تحت إمرة مالك بن عوف النصيرى ، وكان إليه جماع أمر الناس .

وكان دريد بن الصمة فارس هوازن وسيد بنى جشم لا يزال على دين قومه . إنه كان حليف بنى سليم وكان قد رأى الخنساء فأعجبته فذهب إلى أبيها فخطبها إليه . فقال له أبوها :

ـــ مرحبا بك أبا قرة ، إنك للكريم لا يطعن فى حسبه والسيد لا يرد عن حاجته والفحل لا يقرع أنفه . ولكن لهذه المرأة فى نفسها ما ليس لغيرها وأنا ذاكرك لها وهى فاعلة .

ثم دخل إليها وقال :

ـــ يا خنساء أتاك فارس هوازن وسيد بنى جشم دريد بن الصمة يخطبك

وهو من تعلمين .

فقالت :

ــ يا أبت أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح . وناكحة شيخ بنى جشم هامة(١) اليوم أو غد ؟!

فخرج إليه أبوها فقال :

ــ يا أبا قرة قد امتنعت ، ولعلها أن تجيب فيما بعد .

فقال :

ــ قد سمعت قولكما .

كان ذلك من سنين ، ولكن دريد بن الصمة لم يستطع أن ينسى يوما أن الخنساء قد رفضته رغما عن علو شأنه وكثرة ماله وعلو ذكره . وقد كان بين هوازن وبنى سليم حلف وقد دخلت بنو سليم فى الإسلام ، فخرج دريد ليحضر حرب المسلمين لعله يثأر من الإهانة التى لحقته مذ رفضت الخنساء أن تقبله زوجا ، وراحت الأبيات التى هجاها بها تطوف بذهنه :

وقال الله يا ابنة آل عمرو　　من الفتيان أمثالى ونفسى

فلا تلدى ولا ينكحك مثلى　　إذا ما ليلة طرقت بنحس

كان دريد قد عمى وصار لا ينتفع إلا برأيه ومعرفته بالحرب . فسار يقوده مرض قلبه ليلتقى بمالك بن عوف الذى أمر الناس بأخذ أموالهم ونسائهم وأبنائهم معهم ، فانطلق حتى نزل بأوطاس ووافاه هناك دريد بن الصمة ، فقال دريد للناس :

---

(١) الهامة : طائر يزعم العرب أنه يمثل روح المقتول . ولا يزال يصيح : اسقونى . حتى يؤخذ بثأره .

— بأى واد أنتم ؟

— بأوطاس .

— نعم مجال الخيل ، لا حزن[١] ضِرْس ولا سهل دَهس ، ما لى أسمع رغاء البعير ونُهاق الحمير وبكاء الصغير وبُعار الشاء وخوار البقر ؟

— ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم .

— أين مالك ؟

كان مالك فى الثلاثين من عمره وكان دريد قد جاوز المائة . إن مالكا قد توافق معه على أن لا يخالفه فإنه قال له : إنك تقاتل رجلا كريما قد أوطأ العرب وخافته العجم وأجلى يهود الحجاز إما قتلا أو خروجا عن ذل وصغار . فقال له لا نخالفك فى أمر تراه . فلما قال : أين مالك ؟ قيل له :

— هذا مالك .

— يا مالك أما إنك أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا اليوم كائن له ما بعده من الأيام . ما لى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير وبعار الشاء وخوار البقر ؟

— سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

— ولم ؟

— أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم .

فقال دريد فى ضيق :

— راعي ضأن والله ، ما له وللحرب ! .

(١) الحزن : الغليظ من الأرض ، والضرس : الشدي . الدهس : المكان السهل ليس برمل .

ثم أشار عليه برد الذرية والأموال وقال:

ـــ هل يرد المنهزم شيء ؟! إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضحت فى أهلك ومالك . ويحك ! إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئا . ارفعهم إلى متمنَّع بلادهم وعليا فوقهم ، ثم الق الصباء (جمع صابئ) على متون الخيل . فإن كانت لك لحق بك من وراءك . وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك .

وساد الصمت برهة ثم قال دريد :

ـــ ما فعلت كعب وكلب ؟

قال الناس :

ـــ لم يشهدها منهم أحد .

فقال دريد فى يأس :

ـــ غاب الحد والجِد ، لو كان يوم علا ورفعة ما غابا .

وأشار عليه بأمور و لم يقبلها مالك منه وقال :

ـــ والله لا أطيعك ، إنك قد كبرت وضعف رأيك .

فقال دريد لهوازن :

ـــ قد شرط مالك ألا يخالفنى ، فقد خالفنى فأنا أرجع إلى أهلى .

فمنعوه ، وقال مالك :

ـــ والله لتطيعننى يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى .

وكره أن يكون لدريد فيها رأى أو ذكر ، قالوا :

ـــ أطعناك .

وصفت الخيل ثم الرجالة المقاتلة ثم صفت النساء على الإبل ثم صفت

الغنم ثم صفت النعم ثم قال للناس :

ــ إذا رأيتمونى شدوا عليهم شدة رجل واحد .

وراح دريد ينظر إلى هوازن فى حزن ثم قال :

ــ هذا يوم لم أشهده و لم يفتنى .

ثم أنشأ يقول :

يــا ليتنــى فيها جَـذَع[1] أخب فيها وأضع[2]

أقــود وطفــاء الزَّمــع كــأنها شاة صدع[3]

ولما سمع رسول الله ــ ﷺ ــ بخبرهم بعث إليهم عبد الله بن أبى حدرد السلمى وأمره أن يدخل فى الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم . ففعل ثم أقبل على رسول الله ــ ﷺ ــ فأخبره الخبر ، فدعا رسول الله ــ ﷺ ــ عمر بن الخطاب فأخبره الخبر فقال عمر :

ــ كذب ابن أبى حدرد .

فقال ابن أبى حدود :

ــ إن كذبتنى فربما كذبت بالحق يا عمر ، فقد كذبت من هــو خير منى .

فقال عمر فى غضب :

ــ يا رسول الله ألا تسمع ما يقول ابن أبى حدرد ؟

ــ قد كنت ضالا فهداك الله يا عمر .

وخرج المسلمون من مكة قد قصروا الأعنة وشحذوا الأسنة وأشعروا

---

(١) الجذع : الشاب .

(٢) الخبب والوضع : ضربان من السير .

(٣) الوطفاء : طويلة الشعر . والزمع : الشعر الذى فوق مربط قيد الدابة والشاة (هنا) : الوعل ، والصدع : من الأوعال والظباء والحمر .

قلوبهم الجرأة ولزموا الطاعة ، ولكن كان فيهم أناس من المؤلفة قلوبهم وأناس خرجوا للحرب و لم يدخل الإسلام قلوبهم منهم سهيل بن عمرو وصفوان ابن أمية وقد خرج للقتال وما خلق الله خلقاأبغض إليه من رسول الله — ﷺ .

وكان قد ذكر لرسول الله — ﷺ — أن عند صفوان بن أمية أدرعا له وسلاحا ، فأرسل إليه فقال :

— يا أمية أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدا .

فقال صفوان :

— أغصبا يا محمد ؟

— بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك .

— ليس بهذا بأس .

فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح .

فطلب منه رسول الله أن يكفيهم حملها ففعل .

واستعار — ﷺ — من ابن عمه نوفل ابن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح فقال له :

— كأنى أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين وكان فى جيش المسلمين عبد الله بن أبى . ربيعة وكان له عبيد من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن وكان عددهم كثيرا ، فقيل لرسول الله — ﷺ — حين خرج إلى حنين :

— هل لك فى جيش بنى المغيرة تستعين بهم ؟

فقال عليه السلام :

— لا خير فى الحبش . إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا ، وإن فيهم لخلتين حسنتين : إطعام الطعام . والبأس يوم البأس .

وانطلق رسول الله — ﷺ — ومعه ألفان من أهل مكة مع عشرة الآف من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة ، فكانوا اثنى عشر ألفا .

واستعمل رسول الله — ﷺ — عتاب بن أسيد بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس على مكة أميرا على من تخلف من الناس .

ونظر رسول الله — ﷺ — إلى الجيش فإذا بالرماح رفعت حتى كادت تسد الأفق ، فقال :

— لن نغلب اليوم عن قلة .

وسار الجيش وفيه أناس حديثو عهد بالجاهلية . وكان لكفار قريش ومن سواهم من العرب سدرة (شجرة النبق) عظيمة خضراء يقال لها « ذات أنواط » يأتونها كل سنة يعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما ، فرأوا وهم يسيرون مع رسول الله — ﷺ — سدرة خضراء عظيمة فتنادوا من جنبات الطريق :

— يا رسول الله احعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط .

فقال :

— الله أكبر ، قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى : « اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون »(١) إنها السُنن ، لتركبن سَنن من كان قبلكم .

وانطلق الجيش فى طريق الطائف ، إن رسول الله — ﷺ — قد انطلق ذات يوم هو وزيد بن حارثة فى نفس الطريق بعد أن ماتت خديجة وعمه أبو طالب وطرده المكيون من البلد الحرام ، إنه جاء إلى الطائف وهو يرجو أن يستجيبوا لدعوته ، ويجد عندهم المنعة والسلام ولكنهم سخروا منه ، وجلس سفهاؤهم على جانبى الطريق يضربون قدميه بالحجارة حتى سالت منهما

---

(١) آل عمران ١٣٨ .

الدماء . إنه ناء من الألم ولكنهم لم يتركوه ليستريح بل أقاموه ليرضخوا قدميه بالحجارة وضحكاتهم تتصاعد من جنبات الطريق : طريق الآلام وقسوة الجاهليين .

وانتهى رسول الله — ﷺ — إلى مضيق حنين مساء ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال ، وكان على المسلمين أن يجتازوا ذلك المضيق ليصلوا إلى الوديان الخصيبة خلف جبال أوطاس حيث صف مالك بن عوف الرجال والفرسان والنساء والإبل والأغنام والنعم .

إنه مكان موحش جوانبه شديدة الانحدار ، والمضيق ضيق لا يسمح بتقدم جيش إلا إذا تقدم فى جماعات صغيرة ، وما كان هناك مكان للفرسان ليصولوا ويجولوا فى المعركة فلما جاء السحر عبأ رسول الله — ﷺ — أصحابه وصفهم صفوفا ووضع الألوية والرايات فى أهلها مع المهاجرين ، لواء يحمله على بن أبى طالب ، وراية يحملها سعد بن أبى وقاص ، وراية يحملها عمر بن الخطاب ، ولواء الخزرج يحمله حباب بن المنذر ، ولواء الأوس مع أسيد بن حضير ، وفى كل بطن من بطون الأوس والخزرج لواء وراية يحملها رجل منهم مسمى ، كذلك قبائل العرب فيها الألوية والرايات يحملها قوم منهم مسمون ، وكان رسول الله — ﷺ — قد قدم سُليما من يوم خرج من مكة واستعمل عليهم خالد بن الوليد ، فلم يزل على المقدمة حتى قدم الجعرانة ، وانحدر رسول الله — ﷺ — فى وادى حنين على تعبئته وركب بغلته البيضاء « دُلْدل » ولبس درعين والمغُفر والبيضة ، واتجه المسلمون إلى مضيق حنين وهم على ثقة من أنهم لن يغلبوا اليوم عن قلة .

١٤

استقبل المسلمون وادى حنين وانحدروا فى واد من أودية تهامة متسع منحدر إنما ينحدرون فيه انحدارا ، فما راعهم وهم منحطون إلا الكتائب قد شدوا عليهم شدة رجل واحد فى عماية الصبح . فإن مالك بن عوف والذين معه كانوا قد سبقوهم إلى الوادى وكمنوا لهم فى شعابه وأحنائه ومضايقه وراحوا يلفون على المسلمين الصخور من عل وأصلوهم وابلا من نبالهم كأنهم جراد منتشر لايكاد يسقط لهم سهم ، ثم هجموا عليهم بغتة بأسيافهم فانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد .

وقال أبو قتادة لعمر بن الخطاب فى دهش :

ــ ما شأن الناس ؟

ــ أمر الله .

كان الطلقاء أهل مكة أول من انهزم ، قال بعضهم لبعض :

ــ اخذلوه . هذا وقته .

فانهزموا وتبعهم الناس .

وانكشفت الخيل خيل بنى سُليم مولية وتبعهم الناس منهزمين ، وانحاز رسول الله ــ ﷺ ــ ذات اليمين وجعل يقول :

ــ يا أنصار الله وأنصار رسوله ، أنا عبد الله ورسوله، أين أيها الناس ؟ هلموا إلىّ ، أنا رسول الله . أنا محمد بن عبد الله .

وكان العباس بن عبد المطلب آخذا بزمام بغلة رسول الله ــ ﷺ ــ

وكان امرأ جسيما شديد الصوت ، فقال عليه السلام لما رأى الناس لا يلوون على شيء :

ـــ يا عباس اصرخ ، يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السَّمرة[١] .

فراح صوت العباس يدوى فى جنبات وادى حنين :

ـــ يا معشر الأنصار .. يا معشر أصحاب السَّمرة .

وصلت صوت العباس أذنى أبى سفيان بن حرب ، فقال أبو سفيان معبرا عما فى قلبه من الضغن :

ـــ لا تنتهى هزيمتهم دون البحر .

وكانت الأزلام لا تزال معه فى كنانته ، وصاح كُلدة بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية :

ـــ ألا بطل السحر اليوم .

فقال له صفوان وهو لا يزال مشركا فى المدة التى جعل له رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ اسكت فض الله فاك فوالله لأن يُربّنى (يملكنى) رجل من قريش أحب إلىّ من أن يربنى رجل من هوازن .

وثبت مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ من المهاجرين أبو بكر وعمر ، ومن أهل بيته على بن أبى طالب وأبو سفيان بن الحارث وابنه والفضل بن العباس وربيعة ابن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن بن أم أيمن بن عبيد .

وبلغ صوت العباس مسامع الأنصار فأجابوا :

---

(١) شجرة الطلح وهى الشجرة التى كانت عندها بيعة الرضوان .

ــ لبيك .. لبيك .

فراح الرجال يثنون أبعرتهم فلا يقدرون على ذلك لكثرة الأعراب المنهزمين ، فيأخذون دروعهم فيقذفونها فى أعناقهم ويأخذون سيوفهم وتروسهم ويقتحمون عن رواحلهم ويخلون سبيلها ، وانطلقوا إلى حيث كان رسول الله ــ ﷺ ــ كأنهم الأبل قد حنت على أولادها .

وكان رجل من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء فى رأس رمح له طويل أمام هوازن وهوازن خلفه ، إذا أدرك طعن برمحه ، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه .

وراحت سيوف هوازن تلعب فى رقاب المسلمين دون أن يثبت لهم أحد ، فلما اجتمع إلى رسول الله ــ ﷺ ــ مائة من الصابرين استقبلوا الناس فاقتتلوا وارتج المكان بشعار المقاتلين :

ــ يا للأنصار .

وتصافحت السيوف واهتزت الرماح وقطعت الرقاب وطعنت الصدور وسقطت الأجساد ، واشتد القتال وصاح المقاتلون :

ــ يا للخزرج .

وكانوا صبرا عند الحرب فأشرف رسول الله ــ ﷺ ــ فى ركائبه ، فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون فقال :

ــ الآن حمى الوطيس (١) .

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب .

---

(١) الوطيس : المعركة والتلاحم .

وراح شيبة بن عثمان بن أبى طلحة يدنو من رسول الله — ﷺ — وهو يقول :

— اليوم أدرك ثأرى من محمد ، اليوم أقتل محمدا .

وكان أبوه قتل يوم أحد ، فاستدبر رسول الله — ﷺ — وهو يريد أن يقتله بعثمان بن طلحة . فأطلع الله رسوله على ما فى نفسه فالتفت عليه السلام إليه وضرب فى صدره وقال :

— أعيذك بالله يا شيبة .

فأرعدت فرائصه ، فنظر إليه شيبة وهو أحب إليه من سمعه وبصره فقال :

— أشهد أنك رسول الله ، وأن الله أطلعك على ما فى نفسى .

واستمر ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جمله الأحمر إذا أدرك طعن برمحه وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه ، فمال إليه على بن أبى طالب ورجل من الأنصار يريدانه ، فأتاه على من خلفه فضرب عرقوبى الجمل فوقع على عجزه ، ووثب الأنصارى على الرجل فضربه ضربة أطنّ قدمه بنصف ساقه فسقط عن رحله صريعا ، واشتد القتل فى هوازن والتفت رسول الله — ﷺ — إلى أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو آخذ بثفَر (١) بغلته فقال :

— من هذا ؟

— أنا ابن عمك يا رسول الله .

وانشرح صدر رسول الله — ﷺ ، فالحارث كان لا يفارقه أبدا قبل الرسالة ، وقد اشتدت عداوته لابن عمه بعد الرسالة ، فلما أسلم كان رسول الله — ﷺ — يرجو أن يكون عوضا عن عمه حمزة . وقد صبر الحارث

---

(١) الثفر : السير فى مؤخر السرج .

فى ذلك اليوم وصال وجال لإعلاء كلمة الإسلام ، كما صال وجال أسد الله وأسد رسوله من قبل .

وراح أبو سفيان بن الحارث يلعب بسيفه يحثو رءوس الكافرين ، إنه يريد الموت دون ابن عمه رسول الله ورسول الله عليه السلام ينظر إليه . فقال العباس :

— يا رسول الله أخوك وابن عمك أبو سفيان فارض عنه .

— غفر الله له كل عداوة عادانيها .

ثم التفت عليه السلام إلى أبى سفيان بن الحارث وقال فى حب :

— يا أخى .

فقبل أبو سفيان بن الحارث رجله عليه السلام فى الركاب .

والتفت رسول الله — ﷺ — فرأى أم سليم ابنة ملحان وكانت مع زوجها أبى طلحة وهى حازمة وسطها ببرد لها وإنها لحامل بعبد الله بن أبى طلحة ومعها جمل أبى طلحة ، وقد خشيت أن يغلبها الجمل فأدنت رأسه منها فأدخلت يدها فى خزامته مع الخطام ، فقال لها رسول الله — ﷺ — :

— أم سليم ؟

— نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله . اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل .

— أو يكفى الله يا أم سليم .

ومع أم سليم خنجر فقال لها أبو طلحة :

— ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟

— خنجر أخذته ، إذا دنا منى أحد من المشركين بعجته به .

فقال أبو طلحة وهو يبتسم :

— أسمعت يا رسول الله ؟

ومشى أبو طلحة إلى الأعداء مشى الوعول يضرب بسيفه وقد أطل منه المنون ، يقتل ويسلب حتى استلب وحده عشرين رجلا ، ورأى أبو قتادة الأنصارى رجلين يقتتلان مسلما ومشركا ، وإذا رجل من المشركين يريد أن يعين صاحبه المشرك على المسلم ، فأتاه أبو قتادة فضرب يده فقطعها ، واعتنقه الرجل بيده الأخرى وكاد يقتله لولا أن الدم راح ينزف من يده فسقط إعياء ، فضربه أبو قتادة فقتله وشغله عنه القتال ، ومر به رجل من أهل مكة فسلبه وأبو قتادة يجتلد بسيفه يقاتل عن دين الله .

وراح مالك بن عوف يستميت فى القتال وكلمات دريد بن الصمة تدوى فى نفسه : « راعى ضأن والله ما له وللحرب » ، فتثير حنقه وتدفعه إلى الإقدام ، وأقبلت خيل الله إلى حيث كان رسول الله عليه السلام ، وأفاق المسلمون من المفاجأة فراحوا يقاتلون فى سبيل الله بقلوب عامرة باليقين ، فكثر القتل فى المشركين وتصدعت صفوفهم ودارت الدائرة على أهل حنين ، فجعل المسلمون يقتلون فريقا وفريقا يأسرون ، وأمكن الله رسوله — ﷺ — من أعدائه ، فقالت امرأة من المسلمين :

قد غلبت خيل الله خيل اللات　　　وخيلـه أحـق بالثبـات

وانهزمت هوازن واشتد القتل من ثقيف فى بنى مالك ، فقتل منهم سبعون رجلا تحت رايتهم فيهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن حبيب ، وكانت رايتهم مع ذى الخمار عوف بن الربيع ، فلما قتل أخذها عثمان بن عبد الله فقاتل بها حتى قتل ، فلما بلغ رسول الله — ﷺ — قتله قال :

— أبعده الله ! فإنه كان يبغض قريشا !

وقتل مع عثمان بن عبد الله غلام له نصرانى أغْرل[١] فصاح بأعلى صوته :

ــ يا معشر العرب يعلم الله أن ثقيفا غُرل .

وكان المغيرة بن شعبة وهو من ثقيف فى صفوف المسلمين ، فخشى أن تذهب عنهم فى العرب فأخذ بيده وقال :

ــ لا تقل ذلك فداك أبى وأمى ، إنما هو غلام لنا نصرانى .

ثم جعل يكشف له عن القتلى ويقول له :

ــ ألا تراهم مختتنين كما ترى !

وكانت راية الأخلاف مع قارب بن الأسود ، فلما انهزم الناس أسند رايته إلى الشجرة وهرب هو وبنو عمه وقومه من الأحلاف ، فلم يقتل من الأحلاف غير رجلين : رجل من بنى غبرة يقال له وهب ، وآخر من بنى كُبَّة يقال له الجُلاح ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ حين بلغه مقتل الجلاح :

ــ قتل اليوم سيد شباب ثقيف إلا ما كان من ابن هنيدة .

ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف وهو يكاد يموت غما ، فقد أعرض عن نصيحة دريد بن الصمة وحبس قومه للموت وفضح أهله . وعسكر بعضهم بأوطاس وتوجه بعضهم نحو نخلة ، ولم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا بنو غبرة من ثقيف . وتبعت خيل رسول الله ــ ﷺ ــ من سلك فى نخلة من الناس ولم تتبع من سلك الثنايا .

وكان دريد بن الصمة فى هودج فأدركه ربيعة بن رفيع فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة فإذا برجل ، فأناخ به فإذا شيخ كبير وإذا هو دريد بن الصمة فارس جشم الذى لم يبق منه إلا الرأى ولا يعرفه الغلام ، فقال له

---

(١) الأغرل : غير المختتن .

دريد :

ــ ماذا ترى بى ؟

ــ أقتلك .

ــ ومن أنت ؟

ــ أنا ربيعة بن رفيع السلمى .

إنه من بنى سليم حلفاء الأمس ، إنه من قبيلة الخنساء التى قالت لأبيها يوم جاء يخطبها : يا أبت أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح وناكحة شيخ بنى جشم هامة اليوم أو غد ؟!. وضربه الغلام بسيفه فلم يغن شيئا فقال :

ــ بئس ما سلحتك به أمك ! خذ سيفى هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فإنى كذلك كنت أضرب الرجل ، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب والله يوم منعت فيه نساءك .

وذهب الغلام إلى الرجل وكان فى الهودج وأتى بسيف دريد ثم ضربه فأرداه . فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله اياه فقالت :

ــ أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثا .

فقالت عمرة بنت دريد فى قتل ربيعة دريدا :

لعمرك ما خشيت على دريد ... ببطن سميرة جيش العناق

جزى عنه الإله بنى سليم ... وعقتهم بما فعلوا عقاق

وأسقانا إذا قدنا إليهم ... دماء خيارهم عند التلاقى

فرب عظيمة دافعت عنهم ... وقد بلغت نفوسهم التراقى

ورب كريمة أعتقت منهم ... وأخرى قد فككت من الوثاق

ورب منوه بك من سليم ... أجبت وقد دعاك بلا رماق

فكـان جزاؤنـا منهم عقوقـا وهمّـا مـاع منـه مخ ساق
عـفت آثـار خيـلك بعـد أيـن بـذى بقـر إلى فيـف النهاق[1]

وبعث رسول الله ـ ﷺ ـ فى آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشقرى ، فأدرك من الناس بعض من انهزم فناوشوه القتال .

ولقى أبو عامر عشرة أخوة من المشركين فحمل عليه أحدهم فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول :

ــ اللهم اشهد عليه .

فقتله أبو عامر .

ثم حمل عليه آخر فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول :

ــ اللهم اشهد عليه .

فقتله أبو عامر ، ثم جعلوا يحملون عليه رجلا رجلا ويحمل أبو عامر وهو يقول ذلك ، حتى قتل تسعة وبقى العاشر ، فحمل على أبى عامر وحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول :

ــ اللهم اشهد عليه .

فقال الرجل :

ــ اللهم اشهد عليه .

فكف عنه أبو عامر فأفلت منه .

ورمى سلمة بن دريد أبا عامر بسهم فقتله ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعرى وهو ابن عمه فقاتلهم ففتح الله على يديه وهزمهم .

واستحر القتل من بنى نصر فى بنى رئاب ، ورأى عبد الله ابن قيس وهو أحد بنى وهب بن رئاب ما نزل بقومه فقال :

ــ يا رسول الله هلكت بنو رئاب .

---

(١) أين : التعب والمشقة ، وذو بقر موضعان ، والفيف : القفر ، والنهاق موضع .

فقال ﷺ :

— اللهم اجبر مصيبتهم .

وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة فوقف فى فوارس من قومه على ثنيَّة من الطريق وقال لأصحابه :

— قفوا حتى تمضى ضعفاؤكم وتلحق أخراكم .

فوقف هناك حتى مضى من كان لحق بهم من منهزمة الناس ، وطلعت خيل ومالك وأصحابه على الثنيَّة فقال لأصحابه:

— ماذا ترون ؟

— نرى قوما واضعى رماحهم بين اذان خيلهم طويلة بواد هم (بطون افخاذهم) .

— هؤلاء بنو سليم ولا بأس عليكم منهم .

فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادى ، ثم طلعت خيل أخرى تتبعها فقال لأصحابه :

— ماذا ترون ؟

— نرى قوما عارضى رماحهم أغفالا على خيولهم .

— هؤلاء الأوس والخزرج ولا بأس عليكم منهم .

ثم طلع فارس فقال لأصحابه :

— ماذا ترون ؟

— نرى فارسا طويل الباد ، واضعا رمحه على عاتقه . عاصبا رأسه بملاءة حمراء .

— هذا الزبير بن العوام وأحلف باللات ليخالطنكم فاثبتوا له .

فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنيَّة أبصر القوم فانطلق إليهم وراح يطاعنهم حتى أزاحهم عنها ، وفر الناس لا يلوون على شىء .

ومر رسول الله ـــ ﷺ ـــ بامرأة والناس مزدحمون عليها فقال :

ـــ ما هذا ؟

ـــ امرأة قتلها خالد بن الوليد .

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لبعض من معه :

ـــ أدرك خالدا فقل له : إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدا أو امرأة أو عسيفا (أجيرا) .

وكان بجاد رجلا من بنى سعد بن بكر قد أحدث حدثا ، فقال ـــ ﷺ ـــ لمن عنده :

ـــ إن قدرتم على بجاد فلا يفلتنكم .

فانطلقوا فى أثره حتى ظفروا به فساقوه وأهله ، وساقوا معه الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله ـــ ﷺ ـــ من الرضاعة فعنفوا عليها فى السياق ، فقالت للمسلمين :

ـــ تعلَّموا والله أنى لأخت صاحبكم من الرضاعة .

فلم يصدقوها حتى أتوا بها إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقالت :

ـــ يا رسول الله إنى أختك من الرضاعة .

ـــ وما علامة ذلك ؟

ـــ عضة عضضتنيها فى ظهرى وأنا متوركتك .

فعرف رسول الله ـــ ﷺ ـــ العَلامة فبسط لها رداءه فأجلسها عليه وخيرها وقال :

ـــ إن أحببت فعندى مُحبَّة مكرَّمة ، وإن أحببت أن أمتعك وترجعى إلى قومك فعلت .

فقالت :

— بل تمتعنى وتردنى إلى قومى .

فاعطاها غلاما له يقال له مكحول وجارية وردها إلى بنى سعد مكرمة معززة ، وذكريات طفولته تطوف برأسه كالأطياف .

وهزم الله الكفار ورجع المسلمون إلى رحالهم فجعل النبى — ﷺ — يمشى فى المسلمين ويقول :

— من يدلنى على رحل خالد بن الوليد .

كان عليه السلام قد علم أن خالدا جُرح .

فنزل عليه فوجده قد أسند إلى مؤخرة رحله لأنه قد أثقل بالجراحة ، فراح عليه السلام يضمد جرحه ، والتفت عليه السلام فرأى عائذ بن عمر وقد أصابته رمية فى جبهته فسال الدم على وجهه وصدره ، فسد النبى — ﷺ — الدم بيده عن وجهه إلى ترقوته . واستمر عليه السلام يعود الجرحى ويواسيهم فيعيد البشر إلى الوجوه ويبث الأمل فى القلوب .

وأنزل الله عز وجل فى يوم حنين : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم »(١) .

---

(١) التوبة : ٢٥ — ٢٧ .

١٥

علم رسول الله – ﷺ – أن مالك بن عوف وقوما من أشراف قومه لحقوا بالطائف عند انهزامهم ، وأن أولئك القوم تحصنوا فى حصن به وأدخلوا فيه ما يصلحهم ، فتوجه إليهم بعد أن بعث بالسبى والغنائم إلى الجعرانة مع بديل بن ورقاء الخزاعى ، وكان سبى حنين ستة آلاف رأس غير من أسر من الرجال والنساء والولدان .

وكان فى جيش المسلمين الطفيل بن عمرو الدوسى وقد ملأت أقطار رأسه صورة صنم قومه فاستشعر رغبة جامحة فى أن يحرقه ليخلو لدوس وجه الله ، فدنا من رسول الله – ﷺ – وهو فى طريقه إلى الطائف وقال فى انفعال :

– يا رسول الله ابعثنى إلى ذى الكفين صنم عمرو بن حُمَمة حتى أحرقه .

فبعثه رسول الله – ﷺ – فى شوال سنة ثمان ليهدم ذا الكفين وأمره أن يستمد قومه ويأتيه بالطائف . فانطلق الطفيل بن عمرو والدماء تتدفق فى عروقه حارة والأفكار تنثال على رأسه . إنه يرى نفسه يوم أن قدم مكة ورسول الله – ﷺ – بها ، ويرى أشراف قريش وهم يمشون إليه ويقولون له :

– يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا .

وارتسمت على شفتيه بسمة هازئة . إنه يسخر من نفسه ويتساءل فى عجب : كيف أجمع فى ذلك اليوم ألا يسمع منه شيئا ولا يكلمه وهو الشاعر اللبيب الذى يستطيع أن يميز سحر البيان من قبيح الحديث ، وكيف انصاع لهم حتى حشا فى أذنيه حين غدا إلى المسجد قطنا فرقا من أن يبلغه شىء من قوله ؟ ترى كيف كان حاله لو لم يسمعه الله بعض قوله ؟ أكان حارب رسول الله — ﷺ — مع الذين حاربوه ؟ ولو أنه حاربه أكان يموت كافرا كما مات كثير من الذين قاتلوه وقتلوا قبل أن يفتح مكة ويسود السلام ربوعها ؟ وسرت فى بدنه رعدة ، وسرعان ما أحس فضل الله عليه أن هداه إلى الإسلام فسجد لله شكرا على ظهر راحلته .

ورأى نفسه وهو يتبع رسول الله — ﷺ — فى زقاق العطارين وهو يستشعر أنه يسلك سبل السلام ، إن قلبه ليخفق بين جنبيه كما خفق فى ذلك اليوم ، وإنه ليرى نفسه فى وضوح وهو ينزل فى دار خديجة درجات ثم يستأذن فى الدخول على رسول الله . وإنه لينفعل وهو على ظهر راحلته مثل ذلك الانفعال الذى اعتراه وهو يتقدم إلى حيث كان عليه السلام . إنها لحظات لا تنسى ، إنه أحس كأنما عبير طيب ضمخ روحه وأن أنوارا سماوية شاعت بين جوانحه وأن فرحا فياضا غمر نفسه وأن أمنا انتشر فى وجدانه وأن سلاما نزل بردا على فؤاده . وسار وهو مأخوذ بسحر ما سمع من آيات بينات حتى إذا دخل عليه قال وقد تهلل بالفرح :

— يا محمد إن قومك قد قالوا لى إنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنَّه ولا تسمعنَّ منه شيئا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسُف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك فسمعته قولا حسنا فاعرض علىّ أمرك .

وراح الطفيل بن عمرو ينظر إلى الأفق البعيد وهو شارد تتلون قسمات وجهه بانفعالات نفسه ، فصوت رسول الله — ﷺ — يأتى من أعماق الماضى كأنه البشرى يعرض عليه الإسلام ويتلو عليه القرآن فى صوت جهورى أخاذ يمس أوتار القلب ويحرك منابع الحنان ، فجرت دموعه تبلل لحيته وقال فى إيمان عميق :

— أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله . إنه لا يستطيع أن يحبس عبراته كلما تذكر ذلك اليوم فهو يوم أغر حفرت أحداثه فى سويداء فؤاده ، فهو يذكر كل ما كان فيه من انفعالات وحوار ، إنه قال لرسول الله — ﷺ — بعد أن شهد شهادة الحق :

— يا نبى الله إنى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام .

إنه انطلق إلى قومه فى ذلك الوقت كما هو منطلق إليهم الساعة يتأجج بالحماس يستشعر كأن راحلته لا تطوى الأرض ، وران فى جوفه الحوار الذى كان بينه وبين أبيه :

— إليك يا بنى ؟

— أسلمت وتابعت دين محمد — ﷺ — .

— أى بنى فدينى دينك .

— فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال أعلمك ما علمت .

وسرعان ما لاحت لعين خياله صورة سادن ذى الكفين تملأ الأفق ، إنه غاضب ثائر يحاول أن يحول بينه وبين أن يحرق إلـهه . ودارت فى ذهنه معركة رهيبة بينه وبين ذلك السادن . إنه يهجم عليه بالنار التى يحملها فى يمينه والسادن يدفعه فى ضراوة كأنه لبؤة تدافع فى استماتة عن أشبالها ، وهو يبتهل

إلى ذى الكفين فى صوت مفزوع أن يمده بعونه . وجلجل فى ضمير الطفيل صوته بالتكبير فخيل إليه أن الوديان والجبال تؤذن فى إيمان : الله أكبر .. الله أكبر .

وانثالت على رأسه الذكريات ، إنه دعا دَوسا إلى الإسلام فأبطئوا عليه وما استجاب له إلا أبو هريرة ، إنه استشعر فى ذلك الوقت غما وود لو أن عذاب الله ينزل بقومه الذين أبوا أن يخرجوا من الظلمات إلى نور الله . إنه كان يتمزق غيظا كلما رأى الناس ينطلقون إلى حمى ذى الشرى خاشعين يسألونه الرزق وإطالة الأعمار ، ويا طالما قال لهم : إنكم تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا . فكانوا يجعلون أصابعهم فى آذانهم ويستغشون ثيابهم ويصرون ويستكبرون استكبارا .

وضاق بقومه فجاء رسول الله — ﷺ — بمكة فقال له :

— يا نبى الله ، إنه قد غلبنى على دوس الزنا ، فادع الله عليهم .

وتقاصرت نفس الطفيل لما مس أذنيه صدى صوت رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — إنه لم يدع الله عليهم بل دعا لهم فقال :

— اللهم اهد دوسا . ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

وقال الطفيل فى نفسه :

— صدق الله العظيم : إنك لعلى خلق كريم يا رسول الله .

وانحدرت الشمس ثم راح قرص الذهب الأحمر يغوص فى الأفق الغربى والطفيل بن عمرو يطوى القفار والفكر يهيم فيما كان . إنه يحس وقد خلا بنفسه أن فاتته بعض المشاهد مع رسول الله عليه السلام : فقد مضى بدر وأحد والخندق وهو فى قومه يدعوهم إلى الإسلام . ثم قدم على رسول الله — ﷺ — بمن أسلم معه من قومه ورسول الله — ﷺ — بخيبر ، حتى

نزل المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس ، ثم لحق برسول الله ـ ﷺ ـ بخيبر فأسهم لهم مع المسلمين .

وراح يطيب نفسه ويقنعها بأنه إن كان قد فاته جهاد فقد كان فى جهاد . وجعل يشكر الله أن قيض له الهجرة وكان فضل الله عليه عظيما .

ولاح له جبل دوس والماء يهبط منه فاشتد وجيب قلبه . فعند محنية الوادى صنم ذى الكفين . ترى أيستطيع سادنه أن يقف فى وجه جموع المسلمين المزمجرة المتدفقة لدك الإفك والشرك بعد أن فاضت أفئدتهم بأنوار اليقين ؟ ولوى الطفيل شفته السفلى استهزاء ثم اندفع على راحلته حتى إذا جاء قومه دعاهم إلى الخروج لحرق الصنم الذى لا يملك لنفسه نفعا أو ضرا .

وانطلقت الجموع كالسيل إلى صنم عمرو بن حممة الدوسى فوقف السادن مشدوها لا يحرك ساكنا ، وتقدم الطفيل والذين معه فهدموا ذا الكفين وجعل الطفيل يحش النار فى وجهه ويقول :

يا ذا الكفين لستُ من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إنى حششت[1] النار فى فؤادكا

وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعا وقد حملوا معهم دبابة[2] ومنجنيقا[3] ليوافوا رسول الله ـ ﷺ ـ بالطائف .

---

(١) حش النار : أوقدها .

(٢) الدبابة : آلة تتخذ فى الحروب يدخل فى جوفها الرجال ثم تدفع فى أصل الحصن فينقبونه وهم فى جوفها .

(٣) والمنجنيق : آلة ترمى بالحجارة لتهدم الحصون .

١٦

انهزم مالك بن عوف فانسحب بفلول جيشه إلى الطائف وأغلق أبواب المدينة ، ثم دخل هو والذين معه حصنا حصينا بعد أن أدخل فيه ما يصلحهم لسنة وأغلقوه عليهم وتهيئوا للقتال ، فقد كانوا واثقين أن رسول الله ــ ﷺ ــ سيسير إليهم ليقاتلهم ، فما كان عليه السلام بتاركهم وقد بدءوه بالعداوة قبل أن يقضى على فتنتهم أو يدخلوا فى السلم كافة .

وسار رسول الله ــ ﷺ ــ من حنين يريد الطائف ، وقدم خالد بن الوليد على مقدمته . ومر جيش المسلمين بقبر فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ هذا قبر أبى رغال .

كان أبرهة قد خرج بأمر نجاشى الحبشة فى جيش عظيم ليقضى على ديانات العرب ويهدم بيوت عبادتهم ، ويتقدم حتى يتصل نصارى الحبشة بنصارى الشام فيرفع بذلك الصليب على الجزيرة العربية كلها . وانطلق أصحاب الفيل حتى إذا ما بلغوا الطائف وأرادوا هدم بيت اللات المقدس تلقى أهل الطائف القائد العظيم بالخضوع وأظهروا له الولاء والطاعة وزينوا له هدم البيت العتيق ، فهو البيت الذى تهوى إليه كل قلوب العرب وهو الرباط الوحيد بينهم وإن اختلفوا فى الملل والنحل . وقدموا إليه أبا رغال ليكون دليلا له ليوصله إلى مكة .

ونظر المسلمون إلى قبر أبى رغال فى غضب واحتقار . وتحرك الحقد فيهم على الرجل الذى قاد جيش الأعداء لهدم أول بيت وضع للناس ، ولولا أن

حمى الله بيته وأرسل على أصحاب الفيل طيرا أبابيل(١) ترميهم بحجارة من سجيل لكان بيت أبيهم إبراهيم قد درس ولما عاد مرة أخرى ليكون منارة للتوحيد ، فهجموا ثائرين على قبر الخائن ونبشوه .

وانطلق جيش المسلمين فسلك رسول الله — ﷺ — على نخلة اليمانية ، ثم على قرن ثم على المليح ، ثم على بحرة الرغاء من ليَّة فابتنى بها مسجدا فصلى فيه . ونزل المسلمون ببحرة الرغاء فعدا رجل من بنى ليث على رجل من هذيل فقتله ، فقتله — ﷺ — به وهو أول دم أقيد به فى الإسلام .

وكان حصن مالك بن عوف على مرمى البصر من عسكر المسلمين ، فأمر — ﷺ — به فهدم . ثم سار عليه السلام بطريق يقال لها الضيقة ، فلما توجه فيها رسول الله — ﷺ — سأل عن اسمها فقال :

— ما اسم هذه الطريق ؟

— الضيقة .

— بل هى اليسرى .

ثم خرج منها على نخب حتى نزل سدرة يقال لها الصادرة قريبا من مال رجل من ثقيف ، فأرسل إليه رسول الله — ﷺ : إما أن تخرج وإما أن نخرب عليك حائطك (بستانك) . فأبى أن يخرج فأمر رسول الله — ﷺ — بإخراجه .

ثم مضى رسول الله — ﷺ — حتى نزل قريبا من الطائف فضرب به عسكره قريبا من الحصن الذى تحصن فيه مالك بن عوف والذين معه ، فسرعان ما تراموا بالنبل ، وانهالت القذائف على المسلمين فأصيب ناس منهم

---

(١) أبابيل : جماعات متتابعة .

بجراحات وكان أبو سفيان بن حرب يتقدم ليسدد سهامه فإذا بسهم يصيب عينه ، فأتى النبى — ﷺ — وعينه فى يده فقال :

— يا رسول الله هذه عينى أصيبت فى سبيل الله .

ورُمى عبد الله بن أبى بكر الصديق بسهم فحُمل إلى حيث كان أبوه والدم ينزف منه غزيرا ، وأصيب سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية إصابة أردته قتيلا ، ورُمى ثابت بن الجذع من الأنصار رمية قاتلة ، وحاول المسلمون أن يدخلوا الحصن فلم يقدروا عليه . فلما أصيب أولئك النفر من أصحاب رسول الله — ﷺ — بالنبل وضع عسكره بعيدا عن مرمى النبال .

وكان مع رسول الله — ﷺ — امرأتان من نسائه إحداهما أم سلمة بنت أبى أمية فضرب لهما قبتين ، ثم صلى بين القبتين وراح يحاصر ثقيفا ويقاتلهم قتالا شديدا والنبل يتطاير من الحصن إلى الأرض ومن الأرض إلى الحصن وأنات تنبعث من الحصن وأجساد ترتطم بالأرض ، واستشهد السائب بن الحارث بن قيس وأخوه عبد الله بن الحارث .

ودخل — ﷺ — خيمة أم سلمة وعندها أخوها عبد الله بن أبى أمية ، وهيت المخنث وكان لعبد الله ، وكان هيت يقول :

— إن فتح الله عليكم الطائف فسل النبى — ﷺ — بادية بنت غيلان بن سلمة بن معتّب فإنها هيفاء شمَوع(١) نجلاء(٢) . إن تكلمت تغنت وإن قامت تثنت ، تقبل بأربع وتدبر بثمان ، مع ثغر كأنه الأقحوان(٣) . وبين رجليها كالإناء المكفوء ، كما قال قيس بن الخطيم :

---

(١) شموع : مضيئة .

(٢) نجلاء : واسعة العين .

(٣) الأقحوان : نبات الربيع له نور أبيض .

تغترق الطرف وهى لاهية كأنما شف وجهها نُزُف
بين شكول النساء خلقتها قصد(١) فلاجبلة ولاقضف(٢)

فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — :

— لقد غلغلت النظر يا عدو الله .

ثم جلاه عن المدينة إلى الحمى وقال :

— لا يدخل على أحد من نسائكم .

واستؤنف القتال فأقبل خالد بن الوليد ونادى :

— من يبارز ؟

فلم يطلع إليه أحد . ثم كرر ذلك فلم يطلع إليه أحد . وناداه عبد ياليل :

— لا ينزل إليك منا أحد ، ولكن نقيم فى حصننا فإن به من الطعام ما يكفينا سنين ، فإن أقمت حتى يذهب هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعا نموت عن آخرنا .

وتطايرت السهام بين الجانبين فأصاب سهم عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فقتله قبل أن يفتح الله على المسلمين الطائف ، وقبل أن يسأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بادية بنت غيلان . ذلك الرجل الذى وفد على كسرى فقال له كسرى :

— أى ولدك أحب إليك ؟

فقال :

---

(١) قصد : وسط .

(٢) القضف :النحافة .

— الغائب حتى يقدم ، والمريض حتى يعافى ، والصغير حتى يكبر .

ولم يشهد حصار الطائف عروة بن مسعود عظيم ثقيف ولا غيلان بن سلمة ، كانا بجُرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضبور وهى آلات حربية حديثة ستغير خطط القتال رأسا على عقب .

وأشرقت شمس اليوم الرابع فإذا بالطفيل بن عمرو الدوسى قد قدم ومعه من قومه أربعمائة ودبابة ومنجنيق واستبشر المسلمون بآلات الحرب الحديثة ، ودخل نفر من أصحاب رسول الله — ﷺ — تحت دبابة وكانت من جلود ، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالا ، فأمر رسول الله — ﷺ — بقطع أعنابهم وتحريقها فوقع الناس فيها وقطعوا قطعا ذريعا ، فسألوه أن يدعها لله وللرحم فقال رسول الله — ﷺ :

— إنى أدعها لله وللرحم .

ونادى رسول الله — ﷺ — :

— أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر .

فخرج منهم ثلاثة وعشرون رجلا ونزل منهم شخص فى بكرة فقيل له أبو بكرة وكان عبدا للحارث بن كلدة طبيب ثقيف ووالد النضر بن الحارث الذى كان يقول : « والله ما محمد بأحسن حديثا منى وما حديثه إلا أساطير الأولين » ، فأعتقهم رسول الله — ﷺ — ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يموّنه ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة .

وخشى أبو سفيان بن حرب على ابنته آمنة بنت أبى سفيان وكانت عند عروة بن مسعود ، وخاف على نساء من قريش وبنى كنانة فتقدم والمغيرة بن

شعبة إلى الطائف فناديا ثقيفا : أن أمنونا حتى نكلمكم . فأمنوهما فدعوا نساء من نساء قريش وبنى كنانة ليخرجن إليهما فأبين . فعاد أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة إلى صفوف المسلمين وقد أطرقا حزنا يخافان على نساء قريش وبنى كنانة اللاتى تزوجن فى ثقيف السباء .

واستأذن رسول الله ـــ ﷺ ـــ عيينة بن حصن الخليع المطاع الذى تتبعه ألف امرأة فى أن يأتى ثقيفا فى حصنهم ليدعوهم إلى الإسلام فأذن له فى ذلك ، فأتاهم فدخل فى حصنهم فقال لهم :

ـــ تمسكوا فى حصنكم ، فوالله لنحن أذل من العبيد ولا تعطوا بأيديكم ولا تتأثروا بقطع هذا الشجر .

فرجع إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال له :

ـــ ما قلت لهم يا عيينة ؟

ـــ أمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه وحذرتهم النار ودللتهم على الجنة .

ـــ كذبت . إنما قلت لهم : تمسكوا فى حصنكم .

ـــ صدقت يا رسول الله . أتوب إلى الله وإليك من ذلك .

ونام القوم ، ولما استيقظ رسول الله عليه السلام قال لأبى بكر الصديق :

ـــ يا أبا بكر إنى رأيت أنى أهديَت لى قعبة (قدح) مملوء زبدا فنقرها ديك فهراق ما فيها .

فقال أبو بكر الصديق :

ـــ ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد .

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ وأنا لا أرى ذلك .

واستشار رسول الله ـــ ﷺ ـــ نوفل بن معاوية الديلى فى الذهاب

أو المقام ، فقال له :

ــ يا رسول الله ثعلب فى جحر إن أقمت أخذته وإن تركته لم يضرك .

فأمر رسول الله ــ ﷺ ــ عمر بن الخطاب فأذن فى الناس بالرحيل ، فقبح الناس ذلك وقالوا .

ــ نرحل و لم يفتح علينا ؟!

فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ فاغدوا على القتال :

فغدوا فانهالت السهام عليهم من الحصن كوابل من المطر فأصاب الناس جراحات ، فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ إنا قافلون إن شاء الله .

فسروا بذلك وأذعنوا وجعلوا يرحلون ورسول الله ــ ﷺ ــ يضحك تعجبا من سرعة تغير رأيهم ، ونادى سعيد بن عبيد بن أسيد وهو ينظر إلى أهل الطائف وهم فى حصنهم :

ــ ألا إن الحى مقيم .

فقال عيينه بن حصن :

ــ أجل والله مجدة كراما .

فقال رجل من المسلمين :

ــ قاتلك الله يا عيينة ، أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله ــ ﷺ ــ وقد جئت تنصر رسول الله ــ ﷺ !

ــ إنى والله ما جئت لأقاتل ثقيفا معكم ولكنى أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أتَّطئها لعلها تلد لى رجلا ، فإن ثقيفا قوم

مناكير(١) .

ورجعوا إلى رسول الله — ﷺ — وقال لهم عليه السلام :

— قولوا لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

فلما ارتحلوا واستقبلوا قال :

— قولوا آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون .

وقالوا :

— يا رسول الله ادع على ثقيف أهل الطائف .

فقال :

— اللهم اهد ثقيفا وأت بهم مسلمين .

وانحدر المسلمون إلى الجعرانة ، فلقى سراقة رسول الله — ﷺ — وهو واضع الكتاب الذى كتبه له — ﷺ — عند الهجرة بين أصبعيه وينادى :

— أنا سراقة وهذا كتابى .

وتذكر أبو بكر يوم أن هاجر مع رسول الله — ﷺ — إلى المدينة وراح سراقة يتبعهما لينال جائزة قريش . إن أبا بكر ليذكر ذلك الكتاب الذى يضعه سراقة بين إصبعيه فقد كتبه بخط يده . ونظر — ﷺ — إلى سراقة وقال :

— هذا يوم وفاء ومودة . أدنوه .

فأدنوه منه وساق إليه الصدقة وسأله عن الضالة من الإبل ترد حوضه الذى ملأه لإبله هل له فى ذلك من أجر ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— نعم ، فى كل ذات كبد حراء أجر .

---

(١) مناكير : ذوى دهاء وفطنة .

١٧

وانصرف رسول الله عن الطائف فرجع إلى الجعرانة فانتهى إليها ليلة الخميس لثلاث خلون من ذى القعدة . وأحصى السبى فكان ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفا ، والغنم أكثر من أربعين ألفا ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، فاستأنى رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالسبى أن يقدم عليه وفدهم وبدأ بالأموال فقسمها . وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل ، قال :

ـــ وابنى يزيد ؟

ـــ أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل .

ـــ وابنى معاوية ؟

فأعطاه أربعين أوقية ومائة من الإبل . فقال :

ـــ بأبى أنت وأمى يا رسول الله لأنت كريم فى الحرب وفى السلم . لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، وقد سالمتك فنعم المسالم أنت . هذا غاية الكرم جزاك الله خيرا .

وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ، ثم سأله مائة أخرى فأعطاه إياها ، ثم سأله مائة فأعطاه وقال له :

ـــ يا حكيم هذا المال خضر حلو من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى .

فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها وقال :

ــ يا رسول الله والذى بعثك بالحق نبيا لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا .

فكان أبو بكر يدعو حكيما ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئا ، ثم إن عمر دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله .

وأعطى النضير بن الحارث بن علقمة بن كلدة مائة من الإبل ، وأعطى أسيد بن جارية الثقفى مائة من الإبل ، وأعطى العلاء بن جارية الثقفى خمسين بعيرا . وأعطى مخرمة بن نوفل خمسين بعيرا ، وأعطى الحارث بن هشام مائة من الإبل ، وأعطى سعيد بن يربوع خمسين من الإبل ، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ، وأعطى قيس بن عدى مائة من الإبل ، وأعطى عثمان بن وهب خمسين من الإبل وأعطى سهيل بن عمرو مائة من الإبل ، وأعطى حويطب بن عبد العزى مائة من الإبل ، وأعطى هشام بن عمرو العامرى خمسين من الإبل ، وأعطى الأقرع بن حابس التميمى مائة من الإبل ، وأعطى عيينه بن حصن مائة من الإبل ، وأعطى العباس بن مرداس أربعين من الإبل ، فقال العباس بن مرداس :

كانت نهابا تلافيتها   بكرى على المهر فى الأجرع[(١)]
وإيقاظى القوم أن يرقدوا   إذا هجع الناس لم أهجع
فاصبح نهبى ونهب العبيـ   ـد[(٢)] بين عيينه والأقرع
وقد كنت فى الحرب ذا تدرأ[(٣)]   فلم أعط شيئا ولم أمنع

---

(١) الأجرع : السهل .

(٢) العبيد : اسم فرس عباس بن مرداس .

(٣) ذا تدرأ : ذا دفع عن قومى .

إلا أفائــــل[١] أعطــــيتها عديـــد قوائمهـــا الأربـــع
ومـا كان حصن ولا حـابس يفوقـان مـرداس فى المجمـع
وما كنت دون امرىء منهمـا ومـن تضع اليـوم لا يرفـع

فقال رسول الله — ﷺ — :

— اقطعوا عنى لسانه .

فأتى به أبو بكر الصديق إلى الغنائم وقال له :

— خذ منها ما شئت .

— إنما أراد رسول الله — ﷺ — أن يقطع لسانى بالعطاء .

فكره أن يأخذ منها شيئا ، فبعث رسول الله — ﷺ — إليه بحلة ، وقيل :

— يا رسول الله ، أعطيت عيينه بن حصن والأقرع بن حابس مائة وتركت جعيل بن سراقة .

— أما والذى نفسى بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيينه والأقرع ، ولكننى تألفتهما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه .

وكان جعيل بن سراقة من فقراء المسلمين وكان رجلا صالحا دميما قبيحا ، وكان رسول الله — ﷺ — يحبه وإن رسول الله عليه السلام ليعطى الرجل وغيره أحب منه خشية أن يكب فى النار على وجهه . وقد قال عليه السلام :

— إن من الناس ناسا نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان .

أعطى رسول الله عليه السلام المؤلفة قلوبهم من الخمس فاجتمع إليه الناس

---

(٤) أفائل : الصغار من الإبل .

وصاروا يقولون :

ـــ يا رسول الله أقسم علينا .

وتدفقوا نحوه حتى ألجئوه إلى شجرة فاختطفت رداءه فقال :

ـــ ردوا ردائى أيها الناس ، فوالله إن كان لى شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كدودا .

ثم قام ـــ ﷺ ـــ إلى جنب بعيره فأخذ وبرة من سنامه ثم رفعها ثم قال :

ـــ أيها الناس ، والله ما لى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط والمخيط فإن الغلول يكون على أهله عارا وشنارا ونارا يوم القيامة .

فجاء شخص من الأنصار بكبة من خيوط شعر وقال :

ـــ يا رسول الله أخذت هذه الكبة أعمل بها بردعة بعير لى دبر .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ أما نصيبى منها فلك .

ففهم الأنصارى أنه عليه السلام قد طابت نفسه فى الخمس وأما حق المسلمين فليس له أن يجود به ، فقال الرجل :

ـــ أما إذ بلغت هذا فلا حاجة لى بها .

وألقاها . وقالت امرأة عقيل بن أبى طالب لعقيل :

ـــ إنى قد علمت أنك قد قاتلت فماذا أصبت من الغنيمة ؟

وكان عقيل قد أخذ إبرة من الغنيمة قبل أن تقسم بين المسلمين ، فدفعها إلى امرأته وهو يقول :

ـــ دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك .

فسمع منادى رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول :

— من أخذ شيئا فليرده حتى الخياط .

فرجع وأخذها منها وألقاها فى الغنائم .

وكان أبو جهم بن حذيفة العدوى على الأنفال فجاءه خالد بن البرصاء وأخذ من الأنفال زمام شعر فمانعه أبو جهم . فلما تمانعا ضربه أبو جهم بالقوس فشجه شجة منقلة ، فاستعدى عليه خالد بن البرصاء رسول الله — ﷺ — فقال له عليه السلام :

— خذ خمسين شاة ودعه .

فقال خالد فى إصرار :

— أقدنى منه .

— خذ مائة ودعه .

— أقدنى منه .

— خذ خمسين ومائة ودعه وليس لك إلا ذلك ، ولا أقيدك من وال عليك .

ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم ثم فرقها وقسمها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجل أربع من الإبل وأربعون شاة ، فإن كان فارسا أخذ أربع عشرة من الإبل أو عشرين ومائة شاة ، وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم للفرس الزائد ، فلم يعط الزبير إلا لفرس واحد وكان معه أفراس وقال بعض المنافقين :

— هذه القسمة ما عدل فيها ولا أريد بها وجه الله .

فأخبر بذلك النبى فغضب — ﷺ — غضبا شديدا واحمر وجهه وقال :

— من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ رحمة الله على أخى موسى عليه

السلام لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر .

فقام إليه عمر بن الخطاب فقال :

— يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟

— لا .

ثم أدبر فقام إليه خالد بن الوليد فقال :

— يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟

— لا . لعله أن يكون يصلى .

فقال خالد :

— وكم من مصل يقول لسانه ما ليس فى قلبه .

— إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم .

وأعطى رسول الله — ﷺ — ما أعطى من تلك العطايا فى قريش بعد أن بايعه من بنى أمية : أبو سفيان بن حرب وطليق بن سفيان بن حرب وخالد ابن أسيد ابن أبى العيص بن أمية ، ومن بنى عبد الدار بن قصى : شيبة بن عثمان ابن أبى طلحة وأبو السنابل بن يعكك وعكرمة بن عامر بن هاشم ، ومن بنى مخزوم : زهير بن أمية بن المغيرة وهشام بن الوليد بن المغيرة وسفيان بن عبد الأسد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم والسائب بن أبى السائب ، ومن بنى عدى : مطيع بن الأسود وأبو جهم بن حذيفة ، ومن بنى جمح صفوان بن أمية وأحيحة بن أمية بن خلف وعمير بن وهب بن خلف . ومن بنى سهم : عدى بن قيس ، ومن بنى عامر ، حويطب بن عبد العزى وهشام بن عمر .

ومن أفناء القبائل : من بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة : نوفل بن معاوية ، ومن بنى سليم : عباس بن مرداس . ومن بنى غطفان : عيينه بن حصن ، ومن بنى تميم الأقرع بن حابس . فلما أعطى رسول الله — ﷺ — ما أعطى

من تلك العطايا فى قريش وقبائل العرب و لم يكن فى الأنصار منها شىء وجدوا فى أنفسهم وغضبوا حتى كثرت منهم القالة ، فقال بعضهم :

— إن هذا لهو العجب . يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟

— إن سيوفنا تقطر من دماء قريش وإن غنائمنا ترد عليهم .

— إذا كانت شديدة ندعى إليها ويعطى الغنيمة غيرنا .

— سيوفنا تقطر من دمائهم وهم يذهبون بالغنم ، فإن كان من أمر الله صبرنا وإن كان من أمر رسول الله استعتبناه .

وقال حسان بن ثابت يعاتبه فى ذلك :

زادت هموم فماء العين منحدر   سحًّا إذا حفلته عبرة درر

وجدا بشماء إذ شماء بهكنة[1]   هيفاء لا دنس فيها ولا خور

دع عنك شماء إذ كانت مودتها   نزرا وشر وصال الواصل النزر

وأت الرسول فقل يا خير مؤتمن   للمؤمنين إذا ما عُدّد البشر

علام تدعى سليم وهى نازحة   قدام قوم هم آووا وهم نصروا

سماهم الله أنصارا بنصرهم   دين الهدى وعوان الحرب تستعر

وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا   لنائبات وماخاموا[2] وماضجروا

والناس إلب علينا فيك ليس لنا   إلا السيوف وأطراف القنا وزر[3]

نجالد الناس لا نبقى على أحد   ولا نضيِّعُ ما توحى به السور

---

(١) شماء : امرأة وبهكنة : كثيرة اللحم .

(٢) خاموا : جبنوا .

(٣) الوزر : الملجأ .

ولا تهر(١) جناة الحرب نادينا ونحن حين تلظَّى نارها سعر
كما رددنا ببدر دون ما طلبوا أهل النفاق وفينا ينزل الظفر
ونحن جندك يوم النعف(٢) من أحد
إذا حزبت بطرا(٣) أحزابها مضر

وقال بعضهم :

ـــ لقى والله رسول الله ـــ ﷺ ـــ قومه .

فدخل عليه سعد بن عبادة فقال :

ـــ يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفيء الذى أصبت ؛ قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظاما ولم يكن من الأنصار منها شيء .

ـــ فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

ـــ يا رسول الله ما أنا إلا من قومى .

ـــ فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة .

فخرج سعد فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم . فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال :

ـــ قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار .

فأتاهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

---

(١) تهر : تكره .

(٢) النعف : أسفل الجبل : وحزبت : جمعت .

(٣) البطر : كفران النعمة .

ــ يا معشر الأنصار ما قالة بلغتنى عنكم وجِدَة[١] وجدتموها علىّ فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

ــ بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل .

ــ ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟

ــ بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل .

ــ أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقتم ولصُدقتم : أتيتنا مكذبا فصدَّقناك، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لُعاعة (بقلة خضراء) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا :

ــ رضينا برسول الله قَسْما وحظا .

---

(١) وجد : غضب وحزن .

١٨

استأنى رسول الله — ﷺ — بسبى هوازن فقد كان يرجو أن يأتى أهلهم مسلمين ، ولكنه مكث عليه السلام بالجعرانة ثلاثة عشر يوما دون أن يقدم وفد هوازن فراح يقسم السبى بين المسلمين بعد أن كساهم قبطية قبطية ، وهى ثياب بيض تتخذ من كتان مصر . فأعطى على بن أبى طالب جارية يقال لها ريطة بنت هلال بن حيان بن عميرة بن هلال بن ناصرة بن قصية بن نصر بن سعد بن بكر ،وأعطى عثمان بن عفان جارية يقال لها زينب بنت حيان بن عمرو بن حيان ، وأعطى عمر بن الخطاب جارية فوهبها لعبد الله بن عمر ابنه فبعث بها إلى أخواله من بنى جمح ليصلحوا له منها ويهيئوها حتى يطوف بالبيت ثم يأتيهم .

ونظر عيينه بن حصن إلى عجوز كبيرة فقال :

— هذه أم الحى لعلهم أن يغلوا بفدائها ، وعسى أن يكون لها فى الحى نسب .

فأخذها وهو يطمع فى أن يعظم فداؤها . وأمر رسول الله — ﷺ — بحبس أهل مالك بن عوف النصرى بمكة عند عمتهم أم عبد الله بن أبى أمية ، و لم يجز أن تجرى السهمان فى مال مالك بن عوف الذى جمع القبائل لحربه ثم لما انهزم تحصن فى حصن الطائف وأرسل السهام وقتل الرجال :

وفد وفد هوازن على رسول الله — ﷺ — وهم أربعة عشر رجلا ورأسهم زهير بن صرد وفيهم أبو برقان عم رسول الله — ﷺ — من

الرضاعة وقد أسلموا ، فقالوا :

— يا رسول الله إنا أهل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا .

وقام أبو صرد فقال :

— يا رسول الله إنا أهل وعشيرة ، فامنن علينا وعلى النسوة اللاتى كن معك يكفلنك ، ولو أنا ملحنا (أرضعنا) للحارث بن شمر أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به لرجونا عطفه وعائدته علينا ، وأنت خير المكفولين ، ثم أنشد :

امنن علينا رسول الله فى كرم ... فإنك المرء نرجوه وننتظر
امنن على بيضة قد عاقها قدر ... ممزق شملها فى دهرها غير
يا خير طفل ومولود ومنتجب ... فى العالمين إذا ما حصل البشر
إن لم تداركهم نعماء تنشرها ... يا أرجح الناس حلما حين يختبر
فامنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك يملؤه من محضها درر
إذ كنت طفلا صغيرا كنت ترضعها ... واد يزينك ما تأتى وما تذر
لا تجعلنا كمن شالت نعامته(١) ... واستبق منا فإنا معشر زهر
يا خير من مرحت(٢) كمت الجياد به ... عند الهياج إذا ما استوقد الشرر
إنا لنشكر آلاء وإن كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدّخر
إنا نؤمل عفوا منك تلبسه ... هذى البرية إذ تعفو وتنتصر

---

(١) شالت نعامتهم : ماتوا وتفرقوا . والنعامة : الجماعة .

(٢) مرحت الخيل : نشطت وتبخترت .

فاغفر عفا الله عما أنت واهبه يوم القيامة إذ يهدى لك الظفر

فقال رسول الله — ﷺ :

— أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟

— يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا . فرد إلينا أبناءنا ونساءنا فهو أحب إلينا .

فأرشدهم عليه السلام إلى ما يفعلون ، فلما صلى الظهر قاموا وقالوا ما لقنهم إياه عليه السلام :

— إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا .

فقال عليه السلام :

— أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم .

وقال المهاجرون :

— وما كان لنا فهو لرسول الله — ﷺ .

وقالت الأنصار :

— وما كان لنا فهو لرسول الله — ﷺ — .

وقال الأقرع بن حابس :

— أما أنا وبنو تميم فلا .

وقال عيينة بن حصن الخليع المطاع :

— أما أنا وبنو فزارة فلا .

وقال عباس بن مرداس :

— أما أنا وبنو سليم فلا .

فقالت بنو سليم :

— بلى . ما كان لنا فهو لرسول الله — ﷺ —

فقال عباس لبنى سليم :

— وهنتمونى .

فقال رسول الله — ﷺ : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض ، من أول سبى أصيبه ، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم .

أخذ رسول الله على نفسه فى سبيل تحرير الرقاب أن يدفع لكل من لم تطب نفسه أن يرد ما فى يده ستة أبعرة من أول ما يفىء الله عليه ، فرد الناس ما فى أيديهم إلا عيينة بن حصن فقد أبى أن يرد العجوز وقد طمع فى أن يعظم فداؤها .

وجاء ابنها إلى عيينة فقال :

— هل لك فى مائة من الإبل ؟

— لا .

فرجع عنه فتركه ساعة ، وجعلت العجوز تقول لابنها :

— ما إربك فى بعد مائة ناقة ؟ اتركه فما أسرع ما يتركنى بغير فداء .

فلما سمعها عيينة قال :

— ما رأيت كاليوم خدعة . والله ما أنا من هذه إلا فى غرور ، ولا جرم والله لأبعدن أثرك منى .

ثم مر بها ابنها فقال له عيينة :

— هل لك فيما دعوتنى إليه ؟

— لا أزيدك على خمسين .

— لا أفعل .

ثم لبث ساعة فمر به وهو معرض عنه ، فقال له عيينة :

— هل لك فى الذى بذلت لى ؟

قال له الفتى :

— لا أزيدك على خمس وعشرين فريضة .

— والله لا أفعل .

فلما تخوف عيينة أن يتفرق الناس ويرتحلوا قال :

— هل لك فيما دعوتنى إليه إن شئت ؟

— هل لك إلى عشر فرائض ؟

— لا أفعل .

وتأهب الناس للرحيل فناداه عيينة :

— هل لك إلى ما دعوتنى إليه إن شئت ؟

— أرسلها وأحمدك .

— لا والله ما لى حاجة بحمدك .

فأقبل عيينة على نفسه لائما لها يقول :

— ما رأيت كاليوم أمرا أنكد .

— أنت صنعت هذا بنفسك . عمدت إلى عجوز كبيرة . والله ما ثديها بناهد ولا بطنها بوالد ولا فوها ببارد ولا صاحبها بواجد ، فأخذتها من بين ما ترى .

— خذها لا بارك الله لك فيها .

— يا عيينة إن رسول الله — ﷺ — قد كسا السبى فأخطأها من بينهم الكسوة ، فهل أنت كاسيها ثوبا ؟

— لا والله ما لها ذاك عندى .

— لا تفعل .

فما فارقه حتى أخذ منه سمل ثوب . ولقى عيينة بن حصن الأقرع بن حابس فشكا إليه ما كان من أمره وأمر العجوز ، فقال له الأقرع :

— إنك والله ما أخذتها بيضاء غريرة(١) ، ولا نصفا وثيرة(٢) .

وقال النبى — ﷺ — لوفد هوازن :

— ما فعل مالك بن عوف ؟

— يا رسول الله هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف .

— أخبروه أنه إن أتى مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل .

وانطلق رجل إلى حيث كان مالك بن عوف فأسر له ما قال رسول الله — ﷺ — ، فخاف مالك ثقيفا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله — ﷺ — قال له ما قال فيحبسوه ، فأمر براحلة فهيئت له وأمر بفرس له فأتى به إلى الطائف ، فخرج ليلا فجلس على فرسه وركضه حتى أتى الدهناء فإذا براحلته حيث أمر بها أن تحبس فركبها ، فلحق برسول الله — ﷺ — فأدركه بجعرانة قبل أن ينطلق إلى مكة .

واستقبله عليه السلام بالترحاب ورد عليه أهله وماله ، ورأى مالك بن عوف جود النبى وحلمه وعفوه وزهده فى الدنيا ومكارم أخلاقه ، فأنشد :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... فى الناس كلهم بمثل محمد

---

(١) الغريرة : المتوسطة من النساء فى السن .

(٢) الوثيرة من النساء : السمينة اللينة .

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتـدى(١)
ومتـى تشأ يخبرك عمـا فى غـد

وإذا الكتيبـة عرّدت(٢)أنيـابها بالسمهـرى وضرب كل مهنـد
فكأنـه لـيث على أشبالـه وسط الهباءة خادر فى مرصد(٣)

فاستعمله رسول الله — ﷺ — على من أسلم من قومه وتلك القبائل من ثمالة وسلمة وفهم ، فخرج ليقاتل بهم ثقيفا حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

وتزوج عبد الرحمن بن عوف بادية بنت غيلان بن مسلمة ، وخرج عبد الله بن عمر ليطوف بالبيت ثم يأتى أخواله من بنى جمح ليصيب تلك المرأة التى وهبها له أبوه عمر بن الخطاب من سبى هوازن ، فلما انتهى من طوافه وخرج من الحرم فإذا الناس يشتدون فقال :

— ما شأنكم ؟

— رد علينا رسول الله — ﷺ — نساءنا وأبناءنا .

— تلكم صاحبتكم فى بنى جمح فاذهبوا وخذوها .

ورد رسول الله — ﷺ — إلى صفوان بن أمية السلاح الذى كان قد أخذه عارية مضمونة . ورد الأموال التى كان قد اقترضها لينفقها على فقراء المسلمين بعد أن فتح الله عليه مكة ، فراح صفوان بن أمية يقلب النظر فى الإبل والأغنام التى ملأت الوادى وقد قسمها عليه السلام بنفس راضية على أعداء

(١) اجتدى : طالبوه بالعطاء .

(٢) عردت أنيابها : نفذت واشتدت ، والسمهرى : السيف .

(٣) الهباءة : الغبار يثور عند اشتداد الحرب ، والخادر : الأسد فى عرينه ، والمرصد : المكان يرقب منه . يصفه باليقظة .

الأمس فامتلأ إعجابا بالرجل الذى خرج من مكة و لم يكن هناك رجل أبغض إلى قلبه منه ، فإذا بخلقه العظيم يستولى على فؤاده وإذا بالكراهية تتبختر ليحل مكانها حب عظيم للنبى الكريم الذى أسر القلوب ، كل القلوب .

وقال قائل فى هوازن يذكر مسيرهم إلى رسول الله — ﷺ — مع مالك بن عوف بعد إسلامه :

اذكر مسيرهم للناس إذ جمعوا ومالك فوقه الرايات تختفق

ومالك مالك ما فوقه أحد يوم حنين عليه التاج يأتلق

حتى لقوا الباس حين الباس يقدمهم عليهم البيض(١) والأبدان والدرق(٢)

فضاربوا الناس حتى لم يروا أحدا حول النبى وحتى جنه الغسق

ثمَّت نزِّل جبريل بنصرهم من السماء فمهزوم ومعتنق

منَّا ولو غير جبريل يقاتلنا لمنَّعتنا إذن أسيافنا العتق

وفاتنا عمر الفاروق إذ هُزموا بطعنة بلَّ منها سرجه العلق(٣)

وحبسن إسلام مالك بن عوف فراح يقاتل بمن أسلم من قومه وبقبائل ثمالة وسلمة وفهم ثقيفا ، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه وأخذه ،وأرسل بالخمس مما يغنم إلى رسول الله — ﷺ . فلما ضيق على ثقيف قال أبو محجن الثقفى :

هابت الأعداء جانبنا ثم تغزونا بنو سَلمة

وأتانا مالك بهم ناقضا للعهد والحُرمة

وآتونا فى منازلنا ولقد كنا أولى نَقِمة

(١) البيض : الخوذات توضع على الرءوس .

(٢) الدرق : الصلب من كل شىء .

(٣) العلق : الدم .

١٩

خرج رسول الله ـ ﷺ ـ من الجعرانة معتمرا وذلك ليلة الأربعاء لثنتى عشرة ليلة مضت من ذى الحجة ، فأحرم بعمرة وأمر ببقايا الفىء فحبس بمجنة بناحية مر الظهران .

وانطلق المسلمون إلى البيت الحرام وقد أثر فى نفوسهم ذلك الكرم الفياض الذى غمر به رسول الله ـ ﷺ ـ المؤلفة قلوبهم وأعداء الأمس ووفد هوازن الذين جاءوا مسلمين فرد إليهم نساءهم وأبناءهم بعد أن وقعت المقاسم مواقعها .

وكانت أم سلمة بنت زاد الركب بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم فى هودجها تنظر فى انفعال إلى الوادى الذى غص بالغنائم التى قسمها رسول الله ـ ﷺ ـ بين المسلمين ، وإلى سادات المدينة وسادات قريش وسادات القبائل وقد لبسوا ملابس الإحرام وقد ارتفعت أصواتهم بالتلبية لـرب العالمين ، فترقرقت فى مآقيها الدموع وعادت بها ذكرياتها إلى أيام الاضطهاد والتعذيب ، فرأت نفسها وهى تهاجر إلى الحبشة مع زوجها عبد الله بن عبد الأسد بن هلال فرارا بدينها . إنها ولدت له هناك زينب وسلمة وعمر ودُرَّة ، وقد عادت إلى مكة لما بلغ المسلمين فى الحبشة أن قريشا قد آمنت بالنور الذى أنزل مع رسول الله عليه السلام . ولكنها لما بلغت مرفأ مكة علمت أن قريشا قد حبست المسلمين وبنى هاشم وبنى المطلب فى شعب أبى طالب فعادت وزوجها أبو سلمة إلى الحبشة لتكون فى جوار ملك لا يظلم عنده أحد .

ورأت نفسها يوم أن هاجرت إلى المدينة ويوم أن خرج أبو سلمة إلى أحد فرماه أبو أسامة الجشمي فى عضده بسهم فمكث شهرا يداوى جراحه ، ثم برأ الجرح وبعث رسول الله ـــ ﷺ ـــ أبا سلمة إلى قطن فى المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهرا فغاب تسعا وعشرين ليلة ، ثم رجع فدخل المدينة لثمان خلون من صفر سنة أربع والجرح منتفض . إنها لتذكر ذلك التاريخ وتذكر ما كان بعده فقد مات أبو سلمة متأثرا من جراحه لثمان خلون من جمادى الآخرة من نفس السنة .

وحضره النبى وهو يجود بأنفاسه فلما فاضت روحه كبر ـــ ﷺ ـــ تسع تكبيرات ، فقيل له :

ـــ يا رسول الله أسهوت أم نسيت ؟

ـــ لم أسه و لم أنس ، ولو كبرت على أبى سلمة ألفا كان أهلا لذلك .

وطاف بذهنها يوم أن بعث إليها رسول الله ـــ ﷺ ـــ يخطبها وقد جاوزت سن الشباب معها عيال صغار وفى بيت النبى عليه السلام عائشة وحفصة ، فأرسلت إلى النبى ـــ ﷺ ـــ تعتذر بأنها غيرى مسنة ذات عيال .

ويا طالما تذكرت رده الكريم الذى مس أوتار قلبها وكان لها النور الذى أضاء حياتها مع الرسول عليه السلام ، « أما إنك مسنة فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال فإلى الله ورسوله » .

ودخلت أيم العرب على سيد المرسلين أول العشاء عروسا ، وقامت من آخر الليل تطحن . ومنذ تلك الليلة ذاقت عظمة البساطة التى يحياها كل من نزل دور النبى ـــ صلوات الله وسلامه عليه ، واستمرأت بنت زاد الركب حياة التقشف مع إمام الزاهدين .

ورفت على شفتيها بسمة رضا فقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ قبل أن يتزوجها : إن لعائشة منى شعبة ما نزلها أحد . فلما تزوجها سئل رسول الله ـ ﷺ ـ فقيل :

ـ يا رسول الله ما فعلت الشعبة ؟

فسكت رسول الله ـ ﷺ ، فعلم الناس أنها قد نزلت عنده .

ورأت بخيالها رسول الله عليه السلام وهو يحنو على أولادها ، إنه كان يأتيها فيقول : « أين زناب ؟ » وقد اختار ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ابنها سلمة الذى شب فى حجره عليه السلام زوجا لابنة عمه حمزة أسد الله وأسد رسوله وسيد الشهداء .

وقفز إلى ذهنها حادث لم تستطع أن تنساه : إنه عليه السلام كان عندها وابنتها زينب فى حجرها فجاءته الزهراء مع ولديها الحسن والحسين فضمهما إليه ثم قال :

ـ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد .

إنها بكت فى ذلك اليوم فنظر إليها رسول الله ـ ﷺ ـ وسألها :

ـ ما يبكيك ؟

ـ يا رسول الله خصصتهم وتركتنى وابنتى .

ـ إنك وابنتك من أهل البيت .

وقالت وهى فى هودجها فى صوت خافت وإن كان نابضا بالتأثر والانفعال :

ـ صدق الله تعالى : إنك لعلى خلق عظيم يا رسول الله .

ولاحت أرباض مكة فارتفعت أصوات المسلمين بالتلبية لله وحده لا شريك له .

وقد تهللت الوجوه بالبشر وامتلأت الأفئدة راحة والصدور انشراحا ، فقد كانت أول مرة يتدفق فيها المهاجرون والأنصار وسادات قريش إلى مكة وقد اتحدت قبلتهم وارتفعت تلبيتهم وشهدوا جميعا باللسان والقلب إن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

ووقعت الأعين على أول بيت وضع للناس وقد طهر من الأوثان والأصنام وعاد مرة ثانية منارة للتوحيد كما كان يوم أن رفع القواعد من البيت إبراهيم وإسماعيل ، فخفقت القلوب وجدا فى الصدور وهوت الأنفس إلى البيت العتيق ، وارتفعت الأصوات بالابتهال إلى رب العالمين : ربنا تقبل منا إنك أنت السمع العليم .

وراح رسول الله — ﷺ — يطوف بالبيت وجبال مكة ووديانها تسترجع دعوة خليل الرحمن إبراهيم : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم »(١) .

وانتهى الطواف والدعاء فصلى عليه السلام ركعتين عند مقام إبراهيم ثم خرج المسلمون إلى الصفا للسعى تخليدا لذكرى هاجر المصرية أم العرب يوم كاد ابنها إسماعيل يموت عطشا عند بيت الله المحرم ، فأخذت تهرول بين الصفا والمروة لعلها تلمح قادما من بعيد يروى ظمأ ابنها الذى أشرف على الهلاك من شدة العطش .

وجعل الأنصار يسعون بين الصفا والمروة وقد اطمأنت قلوبهم فقد كانوا يكرهون الطواف بين الصفا والمروة لأنهما كانا من مشاعر قريش فى الجاهلية

---

(١) البقرة ١٢٩ .

فتركوه فى الإسلام . فلما أنزل الله تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم »(١) . راحوا يسعون بينهما وقد أشرقت أفئدتهم بأنوار اليقين .

وفرغ رسول الله — ﷺ — من عمرته وتأهب للرجوع إلى المدينة . فجاء أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وشيبة بن عثمان ابن أبى طلحة وسادات بنى المغيرة وحويطب بن عبد العزى ليودعوه وقد تعلقت أفئدتهم به .

واستخلف عليه السلام عتَّاب بن أسيد على مكة وكان عمره عشرين سنة ، وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس ، ولما استعمل النبى — ﷺ — عتَّاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهما ، فقام فخطب الناس فقال :

— أيها الناس ، أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله — ﷺ — درهما كل يوم فليست بى حاجة إلى أحد .

وخرج عليه السلام من مكة ووقف أهلها يودعونه وفى القلوب لوعة وفى المآقى عبرات ، وخرج معه عمه العباس بن عبد المطلب فلم يعد هناك ما يفعله فى أم القرى بعد أن هدى الله أهلها إلى الإسلام . وكانت أم سلمة فى هودج وميمونة أم المؤمنين فى هودج وانطلق الركب قاصدا المدينة فسلك عليه السلام فى وادى الجعرانة حتى خرج على سَرِف فإذا بذكريات حبيبة تتزاحم فى رأس ميمونة آخر نساء رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه .

إن أختها أم الفضل زوج العباس عم النبى كانت أول امرأة آمنت برسول

---

(١) البقرة ١٥٨ .

الله — ﷺ — بعد خديجة ، ولطالما حدثتها عن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فهفا إليه فؤادها . ولم تكن أم الفضل وحدها هى التى ارتبطت بالإسلام من أهلها فأختها من أمها أسماء بنت عميس كانت زوج جعفر بن أبى طالب وقد تزوجت من بعده أبا بكر الصديق ، وأختها سلمى بنت عميس كانت زوج حمزة بن عبد المطلب ، وكانت أمهن جميعا هند بنت عوف بن زهير : إنها أكرم عجوز فى مكة ، ولو أن الأسباب قد ارتبطت بين إحدى بناتها ورسول الله عليه السلام لأصبحت أكرم عجوز فى الأرض أصهارا .

كان اسمها برة وقد مات عنها زوجها أبو رهم بن عبد العزى العامرى . إنها ما إن استمعت إلى حداء عبد الله بن رواحة يوم أن جاء آخذا بخطام ناقة رسول الله عليه السلام بعد صلح الحديبية ليطوف المسلمون بالحرم ، وما إن ملأت عينيها من النبى — صلوات الله وسلامه عليه — حتى استولت عليها فكرة أن تنال شرف الزواج من نبى الله وأن تصبح أما للمؤمنين . وما يمنعها أن تحقق حلمها الذى طالما راودها فى يقظتها وهى أخت أم الفضل وأسماء بنت عميس وسلمى بنت عميس الأخوات المؤمنات ؟!

إنها همست بسر قلبها إلى أم الفضل وقصت أم الفضل على العباس سر برة ، فانطلق العباس إلى ابن أخيه عليه السلام يعرض عليه الزواج من برة التى وهبت نفسها للنبى . وعاد إليها العباس وقد تهلل بالبشر فخفق قلبها سرورا امتزج بخوف ، فقد قرأت فى وجهه القبول ولكنها كانت متلهفة على أن تلتقط أذناها الخبر السار الذى يخرج من بين شفتيه .

وقال العباس إن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — قد استجاب للعرض ، فانتابتها نشوة وأحست أنها قد ارتفعت حتى كادت تلمس نجوم

السماء ، فإنه لشرف ما بعده شرف أن تصبح أم المؤمنين ولما تتجاوز السادسة والعشرين ، وإنه لشرف لأمها العجوز فستصبح بعد أن يتزوج عليه السلام ابنتها برة أكرم عجوز فى الأرض أصهارا .

وتذكرت ذلك اليوم الأغر الذى خرجت فيه من مكة فى صحبة أبى رافع مولى رسول الله عليه السلام لتلحق بالمسلمين . إن قبتها ضربت هنا فى سرف وقد بنى بها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فى هذه البقعة المباركة وسماها هنا ميمونة ؟ فقد كان زواجه بها فى المناسبة الميمونة التى دخل فيها مكة لأول مرة منذ أن خرج منها مهاجرا فى سبيل الله .

وراحت ميمونة تدير عينيها فى المكان وهى فى قمة النشوة . إن روحها قد هفت إلى سرف وإن قدرها قد حدد هنا فى سرف وإن مكانتها التى نالتها كانت بفضل ما كان بينها وبين الرسول عليه السلام فى سرف . فأصبحت سرف هى مهوى الفؤاد وإنها لترجو أن تكون مثواها الأخير لما يحين الحين لتدس فى التراب .

وأخذ المسلمون الطريق إلى مر الظهران وراحوا يقلبون وجوههم فى ملكوت الله ، ينعمون بمشاهدة جماله وجلاله وينقطعون إليه ويتوكلون عليه ويلهجون بالثناء عليه أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين .

وسار رسول الله — ﷺ — على ناقته القصواء متواضعا لله قد سدده الله لكل جميل ، ووهب له كل خلق كريم ، وجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة مقوله ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأتاه حكمة وعلما ، وفتح به أعينا عميا ، وقلوبا غلفا ،

وآذانا صما ، وجعله رحيما بالمؤمنين ، رحمة للعالمين ، سمحا سهلا برا طلقا لطيفا ، ولو كان أمام الصادقين والصديقين فظا غليظ القلب لانفض الناس من حوله .

وانحدر المسلمون إلى مجنة فساق رسول الله — ﷺ — ما بقى من الفىء ليقسمه على فقراء المدينة ، فما خطر له على قلب أن يبقيه لنفسه ولأهل بيته فقد اختار جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ؛ فالدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ، إنه لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ، وإنه لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر .

شبعة وجوعتان ، كان هذا حاله وحال أهل بيته مذ حمل أمانه النبوة ، وقد أفاء الله عليه الخير العميم فكان له الخمس من الغنائم وما أكثرها ، وكان الخمس مردودا على الناس ، وكان نصيبه فى فىء هوازن آلاف الرءوس فقسمها على حديثى العهد بالإسلام ليؤلف قلوبهم ، وساق ما بقى من الفىء إلى المدينة ليقسمه بين المحتاجين ثم يعود سيرته الأولى : شبعة وجوعتان . فقد آثر أن يجوع يوما ويشبع يوما ، فأما اليوم الذى يجوع فيه فيتضرع إلى الله ويدعوه ، وأما اليوم الذى يشبع فيه فيحمده ويثنى عليه .

وانطلق رجل على ظهر جواده ينهب الأرض حتى دخل المدينة فقال إن رسول الله — ﷺ — قد أقبل بعد أن فتح الله عليه مكة وهزم هوازن فى حنين ، فانطلق الناس فرحين مستبشرين ليستقبلوا رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، وصعدت النسوة على أسطح الدور ليشاهدن نبى الله وقد عاد مكللا بالنصر . وتقدمت خيل الله تثير النقع ، ورأى المسلمون الرسول عليه السلام على ناقته القصواء وقد طأطأ رأسه تواضعا لله ، فخف الرجال إلى

صاحب الجمل الأحمر يسلمون عليه وفى القلوب أشواق وفى الوجـوه إشراق ، وارتفعت صيحات الترحيب من على جانبى الطريق ومن فوق الأشجار ومن الدور ، وعادت الذكريات إلى ذلك اليوم الذى أقبل رسول الله — ﷺ — مهاجرا مع صديقه أبى بكر . أين هذا اليوم من ذلك اليوم ؟ فقد كانا وحيدين و لم يكن الناس يعرفون أيهما رسول الله ، أما اليوم فالأعين كلها قد تعلقت بنبى الله الذى نصره الله وقد ملأت أنواره جوانح الصدور ، وأخرج أقوامه من الظلمات إلى النور .

وكان عبد الله بن أبىّ بن سلول رأس المنافقين بين المستقبلين قد اغتصب ابتسامة ترحيب بعد أن طوى نفسه على مرض قلبه ، إنه قد امتلأ حقدا على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وعلى المسلمين ، وقد زاد فى حنقه ذلك النصر المبين الذى توج هامات المؤمنين ، فمكة قد فتحت قلوبها قبل أبوابها للرجل الذى اغتصب منه المجد التليد ، فالأوس والخزرج كادوا أن يضعوا على رأسه التاج لولا أن جاء ابن عبد الله إلى يثرب بالدين الجديد الذى بهر الناس وجعلهم عنه يعرضون .

إنه لا يستطيع أن ينسى أن محمدا هو الذى حرمه التاج مهما مضت السنون ، وإنه يعيش على أمل واحد ، أن يرى هزيمة محمد قبل أن يموت . فإن كان محمد قد فتح مكة فإن الروم قد أحسوا خطره وإنهم ليجمعون الجموع ليقضوا على ذلك الذى وحد العرب قبل أن يصبحوا بفضل تعاليم محمد أمة تهدد مصالح الروم فى المنطقة .

وعانق عبد الله بن أبى بن سلول رسول الله — ﷺ — وهنأه بالفتح وإن كان يتربص به الدوائر وبالمسلمين . وانتهى الاستقبال الحار وانصرف الرجال إلى أهليهم ، وانطلق رسول الله — ﷺ — إلى دار فاطمة ليزورها ويقبل الحسن والحسين قبل أن يدور على أزواجه ، فقد كان بيت الزهراء أول ما يبدأ به .

٢٠

سار أبو العاص بن الربيع إلى داره وقد أمسك فى يده ابنه على ، وراح أبو العاص يتلفت بنظرات زائغة لا تستقر عيناه على شىء ، فلما دنا من الباب انقبض صدره وخفق قلبه أسى وترقرقت الدموع فى مقلتيه ، ولولا ابنه الصغير الذى أردفه خلفه جده العظيم رسول الله ـ ﷺ ـ يوم فتح مكة لأجهش بالبكاء .

ودخل الدار فإذا بها ساكنة سكون القبور ، وإذا بها مظلمة وإن فاضت فيها أشعة شمس النهار ، وإذا بها موحشة بلا حياة فقد ذهبت الحبيبة التى كانت نبض بهجته وأنفاس سروره وروح أنسه وفؤاد دنياه . واستشعر رغبة فى أن يشم عبير ذكراها فانطلق إلى حيث كانت قلادتها ، تلك القلادة التى كانت لخالته خديجة والتى أدخلتها بها عليه حين بنى عليها فأخرجها وجعل ينظر إليها فى وجد ورق لها رقة شديدة ، وبلغ انفعاله منتهاه فلم يستطع أن يحبس عبراته فجرت على خديه حتى بللت لحيته . فلما رأى على بكاء أبيه استعبر ، فضمه أبو العاص إليه فى حنان وارتمى به على أول مقعد صادفه وهاجمته الذكريات .

إنه يرى سادات قريش يمشون إليه فيقولون :

ـ فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت .

ـ لا والله إنى لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى بامراتى امرأة من قريش .

ويرى نفسه وقد خرج صناديد قريش إلى بدر وهو فيهم ؛ إنه أصيب فى الأسارى فكان فى المدينة عند رسول الله ـ ﷺ ، وبعث أهل مكة فى فداء

أسرائهم فبعثت زينب فى فدائه بقلادتها . إنه يرى بخياله رسول الله — ﷺ — وقد رق رقة شديدة ، وإنه ليسمع فى أغوار نفسه صوت رسول الله — ﷺ — الجهورى العذب يقول :

— إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا .

وراح يمسح رأس ابنه فى حنان ويشمه فى حب فهو بضعة منها ، وهو الدوحة المباركة من رسول الله — ﷺ ، فإن كانت زينب قد مضت فقد بقى له منها على وإنه ليرجو أن يشب بطلا مثل على فارس الإسلام زوج خالته الزهراء .

وعادت إلى رأسه الذكريات ؛ إنه يرى نفسه وقد قفل راجعا إلى مكة فإذا بالحبيبة تهرع إليه لتضمه إلى صدرها فى حب وفى عينيها دمعتان حائرتان ومن بين شفتيها تتدفق عبارات الترحيب وشكر الله على أن أعاده إليها سالما . وإذا به ينسى فى غمرة اللقاء الحار ما وعد به رسول الله لحظات ، ولكن سرعان ما أفاق من نشوته وقص عليها فى أسى ما كان بينه وبين رسول الله عليه السلام ، فقد أخذ عليه أبوها أن يخلى سبيل زينب إليه .

إنه كان يحبها من أعماق قلبه وقد كانت تحبه بكل حاسة من حواسها ، ولكنها ما كانت تستطيع أن تعصى رغبات أبيها — صلوات الله وسلامه عليه ، فتجهزت وخرجت يصحبها أخوه كنانة بن الربيع فى رائعة النهار . إنه أحس وهى تخرج نياط قلبه تتقطع وأن الأرض قد مادت تحت قدميه وأن الدنيا قد أصبحت ظلاما فى ظلام .

وخرج رجال من قريش فى طلبها حتى أدركوها بذى طوى ، فروعها هبار بن الأسود بن المطلب زوج أم هانىء بنت أبى طالب عم أبيها بالرمح . فلما ريعت طرحت ذا بطنها وعاد بها أخوه وهى تهريق الدماء . إنها لم تزل تهريق

الدماء حتى ماتت هنا فى هذه الدار بين ذراعيه .

وهب أبو العاص ثائرا وراح يصر على أنيابه فى غيظ ، فرسول الله — ﷺ — قد أهدر دم هبار لما فتح مكة وقد انطلق هو خلفه يبحث عنه ليشفى غليل نفسه . ولكن هبارا قد فر ونجح إلى حين فى أن يفلت من غضبه . فإن كان هبار قد فر مرعوبا فى ذلك اليوم فلن يتركه طويلا يمشى على الأرض ، فلا بد أن يظفر به فيقتله لعل النار التى تتلظى فى أحشائه تهدأ .

إنه ذهب إلى هند أم هانىء بنت أبى طالب بعد أن أسلمت يسألها عن زوجها فأخبرته أنه فر إلى نجران .

وقال حين بلغه إسلامها :

أشاقتك هند أم أتاك سؤالها ... كذاك النوى أسبابها وانفتالها
وقد أرقت فى رأس حصن ممنع ... بنجران يسرى بعد ليل خيالها
وعاذلة هبت بليل تلومنى ... وتعذلنى بالليل ضل ضلالها
وتزعم أنى إن أطعت عشيرتى ... سأردى وهل يردين إلا زيالها
فإنى لمن قوم إذا جد جدُّهم ... على أى حال أصبح اليوم حالها
وإنى لحام من وراء عشيرتى ... إذا كان من تحت العوالى(١) مجالها
وصارت بأيديها السيوف كأنها ... مخاريق(٢) ولدان ومنها ظلالها
وإنى لأقلى الحاسدين وفعلهم ... على الله رزقى نفسها وعيالها
وإن كلام المرء فى غير كنهه ... لكالنبل تهوى ليس فيها نصالها
فإن كنت قد تابعت دين محمد ... وعطفت الأرحام منك حبالها

---

(١) العوالى : الرماح .

(٢) المخاريق : المناديل تلف ليلعب بها .

فكونى على أعلى سحيق بهضبة ململمة[1] غبراء يبس بـــلالها

إنه فكر فى ذلك الحين أن ينطلق خلفه إلى نجران . ولولا أنه لم يشأ أن يدع ابنه عليا الصغير بين يدى جده رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — حتى لا يشغله به لخرج يطلبه ليثأر منه . وراح يذرع المكان صاعدا هابطا كأسد حبس فى قفص وقد تأججت فى صدره نار حقده وثارت دماؤه حارة فى عروقه وارتسمت على وجهه ضراوة لم يكن لأحد بها عهد .

وحانت منه التفاتة نحو ابنه فألفاه يمد إليه عينيه فى قلق ، فذهب إليه واحتواه بين ذراعيه وراح يمسح رأسه بيده فى حنان . وسرعان ما شرد واستسلم للذكريات فقد ملأت رأسه صورته وقد أقبل قافلا من الشام ؛ إنه كان يحصى الأرباح فإذا بسرية لرسول الله — ﷺ — تفجأه فتصيب ما معه فيطلق ساقيه للريح حتى يدخل المدينة . وتحت جنح الليل يدخل على زينب بنت رسول الله — ﷺ — يستجير بها ، إنه لا ينسى كيف استقبلته الزوجة الكريمة بعد غياب طال ست سنوات . إنها غمرته بعطفها حتى سكن روعه وكان الفجر وسرى صوت بلال بالأذان كأنه السحر . إنه قد استشعر كأن قلبه قد انفتح لنداء السماء ولولا خشيته من أن يقال أسلم رهبة لخرج إلى رسول الله — ﷺ — وأعلن إسلامه .

ومس أذنيه صوت رسول الله — ﷺ — وهو يكبر والناس يكبرون معه ، وجاء صوت زينب من أعماق الماضى وهى تصرخ من صُفة النساء :

— أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

وهزته الذكرى من الرأس إلى القدم وأخذته رقة فلم يستطع أن يمسك

---

(١) ململمة : متحجرة .

دموعه عن الجريان ، وأرهفت حواسه وأعار الفضاء أذنيه كأنما يحاول أن يلتقط ما قال رسول الله — ﷺ :

— أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟

— نعم .

— أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم .

وملأت صورة رسول الله — ﷺ — وهو يدخل عليهما الأفق ، ورن صوته الجهورى العذب فى أعماقه فهزه هزا :

— أى بنية ، أكرمى مثواه ، ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له .

وسمع طرقا خفيفا على الباب فأفاق من شروده وذهب ليرى من الطارق ، فوجد ابنته أمامة قد فتحت له ذراعيها وتهلل وجهها بالفرح فاحتواها فى صدره ثم رفعها بين ذراعيه وراح يغمرها بقبلاته فرق قلبه وشفت نفسه حتى كاد يرى الراحلة العزيزة التى خلت منها الدار .

وانفلتت أمامة من بين ذراعيه لما رأت أخاها عليا فانطلقت إليه تروى له ما كانت تفعله فى دار خالتيها فاطمة وأم كلثوم وتسمع منه ما فعله جدها العظيم لما فتح مكة وسار إلى هوازن والطائف . ولما رأى أبو العاص أنهما قد شغلا عنه انسل إلى البقيع ليذرف على قبر زينب بنت محمد دمعة .

وعاد أبو العاص إلى الدار مضعضع النفس كسير الفؤاد لا يستطيع أن يهرب من الذكريات التى كانت تلح عليه ، إنه يرى زينب مسجاة فى فراشها وقد فارقت الحياة وفاطمة الزهراء وأم كلثوم ونساء النبى يبكين حولها . ويرى نفسه وقد أكب عليها يبكى وينتحب وهو يستشعر أن قطعت الأسباب بينه وبين الدنيا فقد كانت زينب كل دنياه ، ورأى رسول الله — ﷺ —

يبكى ولا يقول إلا خيرا ، ورأى ابن خاله الزبير بن العوام وهو يرفعه عن الحبيبة التي تشبث بها ثم يواسيه وهو يخرج به إلى حيث كان صحابة رسول الله ـ ﷺ.

ووقف رسول الله ـ ﷺ ـ على فراشها يستودعها الله ثم قال للنساء :

ـ اغسلنها وترا : ثلاثا أو خمسا واجعلن فى الآخرة كافورا .

ورنت فى جنبات الدار ضحكة أمامة الصغيرة فالتفت إلى حيث كان على وأمامة وهما سعيدان بحديثهما ، فحاول أن ينتزع من نفسه ابتسامة ولكن عز عليه الابتسام وسرى فى جوفه قول أخيه كنانة :

عجبت لهبار وأوباش(١) قومه　　يريدون إخفارى(٢) ببنت محمد
ولست أبالى ما حييت ، عديدهم　　وما استجمعت قبضا يدى بالمهند؟

فأحس كأن نارا تشوى كبده ولم يطق المكث فى الدار ، فخرج كالعاصفة لا يلوى على شيء يرجو أن يسقط هبار ذات يوم فى يده ليقتله ثائرا لزينب لعل ذلك يشفى غليل نفسه .

ومرت الأيام وتأهب رسول الله ـ ﷺ ـ للخروج إلى المسجد وأنس ابن مالك يخدمه ، فقال له رسول الله ـ ﷺ :

ـ يا بنى إن قدرت أن تصبح وتمسى ليس فى قلبك غش لأحد فافعل .

وصمت عليه السلام قليلا ثم قال :

ـ يا بنى وذلك من سنتى ، ومن آخى سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة .

---

(١) الأوباش : الأخلاط والسفلة .

(٢) الإخفار : نقض العهد .

وخرج عليه السلام إلى المسجد فجاء إليه الحسن والحسين فبش لهما وأجلسهما إلى جواره وقال :

ــ اللهم إنى أحبهما فأحبهما .

وجاءت إليه أمامة بنت زينب فضمها إليه وأخذ يقبلها فى حب ، إنها تذكره بزينب وبأيام يتمه أيام أن كان فى كنف جده عبد المطلب ثم عمه أبى طالب . ونظر أبو العاص بن الربيع إليهما فاستشعر راحة سرعان ما غاضت لما تذكر قول رسول الله ــ ﷺ : « إن لقيتم هبارا فأحرقوه » . ثم قوله عليه السلام : « إنما يعذب بالنار رب النار : إن ظفرتم به فاقطعوا يده ورجله ثم اقتلوه » .

ودخل هبار مسجد رسول الله ــ ﷺ ــ فإذا بأعين الناس تتعلق به ، وإذا بأبى العاص بن الربيع يهم بأن يهجم عليه ليقتله . فرفع هبار صوته وقال :

ــ يا محمد أنا جئت مقرا بالإسلام ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

وثبت الناس فى أماكنهم وساد المكان صمت وقلق وتقدم هبار حتى بلغ النبى عليه السلام فقال :

ــ السلام عليك يا نبى الله .

إنه أعلن إسلامه وألقى السلام ، فرد عليه الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ السلام ، فاطمأن هبار على حياته فقال :

ــ لقد هربت منك فى البلاد فأردت اللحوق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وفضلك فى صفحك عمن جهل عليك . وكنا يا نبى الله أهل شرك فهدانا الله بك ، وأنقذنا بك من الهلكة ، فاصفح عن جهلى وعما كان منى فإنى مقر بسوء فعلى ، معترف بذنبى .

فالتفت — ﷺ — إليه وقال فى صوت جهورى عذب :

— يا هبار عفوت عنك وقد أحسن الله إليك حيث هداك للإسلام . الإسلام يجب ما قبله .

وصفح النبى الكريم عن قاتل زينب الغالية ولكن الناس لم يصفحوا عنه فجعلوا يسبونه . فذكر ذلك للنبى — ﷺ — فقال :

— سب من سبك .

فانتهوا عنه وحسن إسلامه .

وأهديت إلى رسول الله — ﷺ — هدية فيها قلادة من جزع فقال :

— لأدفعنها إلى أحب أهلى إلَىَّ .

فأطرقت النساء أسفا وقلن :

— ذهبت بها ابنة أبى قحافة .

واعتقدت عائشة أن القلادة من نصيبها فهى تعرف مكانتها فى قلبه . ولكن رسول الله — ﷺ — دعا أمامة بنت زينب فأعلقها فى عنقها .

٢١

كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعمل عمل البيت ما يرى فارغا قط فى بيته ، وأكثر ما يعمل الخياطة إما يخصف نعلا لرجل مسكين أو يخيط ثوبا لأرملة . وجاءت فاطمة الزهراء بكسرة خبز إليه فقال :

ـ ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟

ـ قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة .

ـ أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام .

وخرج رسول الله ـ ﷺ ـ إلى العالية على بعد ثلاثة أميال من المدينة حيث كانت مارية فى مشربتها . إنه أنزلها أول ما جاءت من وادى النيل بمنزل لحارثة بن النعمان قرب المسجد ، فكان يكثر التردد عليها ويمكث لديها طويلا مما أثار عائشة بنت الصديق . فحولها إلى العالية وكان يختلف إليها هناك فكان ذلك أشد على نسائه ـ ﷺ .

وذات ليلة أفضت مارية إلى سيدها الحبيب أنها قد حملت فاستقبل النبى عليه السلام النبأ بحمد الله . وذاع الخبر فى المدينة فانتشت النفوس بالبشرى وقابلتها نساء النبى بوجوم وحزن وألم ، فقد كانت كل منهن تعيش فى دور النبى على أمل أن تأتيه بالولد وأن تكون صاحبة الحظ الأوفى . فلما ضنت بطونهن وجادت بطن مارية الجعدة الجميلة نهشت الغيرة أفئدة أمهات المؤمنين فتقاربت رءوس يا طالما تباعدت ، وسرى همس ولمز يتهم مارية فى طهارتها ، إن قبطيا قد جاء معها من مصر فيما أهداه المقوقس إلى رسول الله ـ ﷺ ـ

وأنه يأوى إليها ويأتيها بالماء والحطب فما الذى يحول بينه وبينها ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يجزم أنه لم يخلص إليها ؟!

همس مسموم راح يرتفع حتى صار صاخبا ، وحديث إفك جديد يروج له المنافقون ويقولون :

ـــ علج يدخل على علجة .

وبلغ الاتهام مسامع رسول الله ـــ ﷺ ـــ فحزن ، فالقادمة من مصر كانت تقبل عليه بنفس راضية تبذل كل شيء فى سبيل مرضاته ، وما كان فى تصرفاتها معه ما يريب . إنها كانت تعرف للرسالة وللرسول مكانتهما وكانت تتهلل بالفرح كلما ذكرت أنها أصبحت كنساء الأنبياء اللاتى تفيض بأخبارهن التوراة ، وأنها ستهب للرسول عليه السلام قرة عين له . فقد كانت تلمس حدبه على أحفاده الحسن والحسين وعلى وأمامة وحبه لأطفال المسلمين ، فكانت تفعم بالسرور كلما حدثت رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ عن ذلك الذى فى بطنها الذى سيكون له عزاء وسلوى عن أولاده وبناته الذين قبرهم .

أكان حديثها كذبا وفرحها رياء ؟ إنه يحس أنها كانت صادقة فى كل كلمة خرجت من بين شفتيها . ولكن أقوال السوء كانت تؤذيه فراح يناجى على ابن أبى طالب ويبثه شكوكه ، فأخذ على سيفه وانطلق غاضبا إلى حيث كان ذلك الرجل القبطى الذى أساء إلى رسوله وقائده وحبيبه .

ووجده على نخلة فاستل سيفه وهم بأن يتسلق ليطيح برأسه ، ونظر القبطى فرأى الشر فى عينى فارس الإسلام الذى كانت ضرباته وترا فارتعدت فرائصه . إن الهمس كان قد سرى إلى أذنيه وإن أصابع الاتهام قد رفعت فى وجهه فما شك لحظة فى أن ابن أبى طالب قد جاء ليقتله .

وأخذ القبطى يتلفت مرعوبا لا يدرى أين المفر ، وراح يتسلق ما بقى من النخلة فى فزع وألقى الرداء الذى كان يستره فتعرى فإذا به مجبوب ، فأعاد على كرم الله وجهه سيفه إلى غمده وانقلب إلى رسول الله — ﷺ — يخبره بما رأى .

ما أبشع مرجفى السوء خاضوا فى حديث الإفك لما اتهموا عائشة بصفوان وقد نزلت براءتها من فوق سبع سموات ، واتهموا مارية بنت شمعون فى رجل مجبوب ، وما أقسى ما قاسى عليه السلام من آلام نفسه الرقيقة الشفافة الحساسة التى جرحتها أقاويل منافقين ينعمون بالسرور لما تشيع الفاحشة بين الناس .

وخاف عليه السلام على المصرية التى وفدت إلى أرض الحجاز كما وفدت من قبل هاجر المصرية وليدة أبيه إبراهيم خليل الرحمن فنقلها إلى العالية على ثلاثة أميال من المدينة ، وراح عليه السلام يعنى بها حتى إذا عاد إلى دوره تركها فى رعاية أختها سيرين .

وبلغ عليه السلام وادى القُفّ وانطلق إلى مَشربة مارية ، فألفى مارية فى فراشها تتلوى من الألم وإلى جوارها سيرين ، فما إن سمعت صوته وهو يلقى عليهما السلام حتى رفت على شفتيها ابتسامة وغاض من وجهها كل جهد ، فهى تستشعر سعادة غامرة كلما أشرق عليها ، وكان الأنس به بلسم الروح وأنفاس الحياة .

وما أسرع الساعات التى مرت وهو إلى جوارها . إن المصرية البيضاء الجعدة التى جمعت سحر مصر وجمال الرومان كانت تتمنى بكل عواطفها أن يبقى معها حتى تضع ما فى بطنها ، ولكنها تعلمت مذ سعدت به أنه وإن كان يحدب على نسائه إلا أن واحدة منهن لم تستطع أن تستأثر به وأن تقعده عن

تأدية رسالته . كن جميعا يعلمن أن هواه مع ربه وأن لو وضعت الشمس فى يمينه والقمر فى يساره على أن يترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو يهلك فيه ما تركه .

وقام عليه السلام وهو يدعو لمارية بالخير ، وركب حماره وسار ليعود إلى المدينة وهو يفكر فى الحج فقد كان الشهر ذا الحجة وكان الناس هناك فى مكة يطوفون حول أول بيت وضع للناس وقد تطهر من الأصنام . إن حلم حياته قد تحقق فقد عادت منارة التوحيد كما كانت بيتا لله وحده لا شريك له ، فأطرق برأسه تواضعا لله رب الناس إله الناس .

ودخل داره ودعا سلمى مولاته امرأة أبى رافع . إنها كانت مولدة الحسن والحسين وإنه عليه السلام يريد أن تكون قابلة مارية ، وأمرها أن تخرج إلى العالية لتكون إلى جوار فتاته المصرية ، فانطلقت سلمى وأبو رافع معها وهى تدعو الله أن يمن على رسوله بغلام تقر به عينه ، فهى ترى حبه الشديد لأحفاده وأبناء المسلمين .

ووضعت مارية غلاما زكيا فراح أبو رافع يشتد حتى دخل مسجد الرسول فألفاه عليه السلام يتعبد فى محرابه ، فانتظر وهو يتململ من الانفعال حتى إذا ما انتهى — صلوات الله وسلامه عليه — من صلاته هرع إليه أبو رافع وقال له وهو يتهلل بالفرح إن مارية قد وضعت غلاما . فانشرح صدره عليه السلام وانبسطت أساريره ووهب لمن جاءه بالبشرى عبدا ، ثم انطلق إلى العالية وهو مفعم بالسرور ، ودخل على مارية وقد رفت على شفتيه أعذب ابتسامة . وبعد أن حمد الله على سلامتها مال على الوالدة والوليد وحمل الصغير فى رفق وقد جاد الفؤاد بأرق المشاعر ، ورفعه بين يديه حتى أدناه من فيه وقبله قبلة أودعها حنان قلبه الكبير .

وعاد إلى مسجده ، فلما جاء إليه أصحابه قال :

ـــ ولد لى الليلة غلام فسميته بأسم ابى إبراهيم .

وغمر المدينة سرور ، ووجمت أمهات المسلمين وأطلقت بعضهن لسانها فى مارية من الغيرة ، فساورت رسول الله ـــ ﷺ ـــ بعض الريب ، فجاءه جبريل فقال :

ـــ السلام عليك يا أبا إبراهيم .

فاطمأن رسول الله ـــ ﷺ ـــ وفرح برحمة ربه .

وتأهب رسول الله ـــ ﷺ ـــ للذهاب إلى أم إبراهيم . وقال قائل إن رسول الله عليه السلام منطلق إلى مولاته ، فقال صلوات الله وسلامه عليه :

ـــ أعتقها ولدها .

وأطال عليه السلام المكث فى مَشربة أم إبراهيم ، فهو يحس سعادة عارمة كلما مد عينيه إلى ولده ، فلما كان يوم سابعه عق[١] عنه بكبش وحلق رأسه وتصدق بوزن شعره فضة على المساكين ، وأخذوا شعره ودفنوه فى الأرض .

وتنافست الأنصار فيمن يرضعه ، فجاءت أم بردة بنت المنذر بن زيد الأنصارى زوجة البراء بن أوس فكلمت رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى أن ترضعه بلبن ابنها فى بنى مازن بن النجار وترجع به إلى أمه .

وأخذته أم سيف لترضعه وكان زوجها حدادا ، وفى ذات يوم انطلق رسول الله ـــ ﷺ ـــ وانطلق معه أنس بن مالك فصادفا أبا سيف ينفخ فى كيره وقد امتلأ البيت دخانا ، فأسرع أنس فى المشى بين يدى رسول الله ـــ ﷺ ـــ حتى انتهى إلى أبى سيف فقال :

---

(١) عق : ذبح عقيقة وهى الشاة التى تذبح يوم أسبوع الولد ، وقال عليه الصلاة والسلام : قولوا نسيكة ولا تقولوا عقيقة .

— يا أبا سيف أمسك ، جاء رسول الله — ﷺ .

فأمسك فدعا رسول الله — ﷺ — بالصبى فضمه إليه ، ثم انطلق به إلى دوره فدخل به على ابنته الزهراء فاستقبلته بالقبلات وهرع الحسن والحسين يشاهدان الصغير ويناجيانه . إنه قد ملأ الدار حبورا وإن آل على بن أبى طالب ليرون فيه قطعة حبيبة من حبيبهم النبى — صلوات الله وسلامه عليه ، وغمرت رسول الله — ﷺ — سعادة بددت إلى حين ذلك الحزن الدفين الذى لازمه طوال حياته .

وحمل إبراهيم الغالى بين يديه وهو مسرور ودخل به على عائشة ، إنها ما غارت على امرأة إلا دون ما غارت على مارية وذلك أنها كانت جميلة جعدة فأعجب بها الرسول — ﷺ ، فكان عامة الليل والنهار عندها فجزعت ، فلما حول مارية إلى العالية وكان يختلف إليها هناك كان ذلك أشد عليها ، وزادت غيرتها ضراما لما رزق الله رسوله الولد وحرمها منه .

وقدم عليه السلام إبراهيم إلى عائشة لترى مقدار ما بينهما من شبه ، فقالت :

— ما أرى بينك وبينه شبها !

وتوجت شفتى رسول الله عليه السلام بسمة هادئة لا يعكرها شك ، فقد قال له أمين الوحى : « السلام عليك يا أبا إبراهيم » . فعرف فؤاده الطمأنينة مذ ذلك اليوم . ولم يحقد على عائشة فإنه كان يغفر ضعف الإنسان فما بالك بعائشة التى كان يوسع لها العذر ويقول كلما اشتطت بها الغيرة : « ويحها لو استطاعت ما فعلت » .

كان رسول الله — ﷺ — يحبها وكان نساء رسول الله — ﷺ — حزبين : فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة ، والحزب الآخر أم

سلمة وسائر نساء النبى — ﷺ . وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله — ﷺ — عائشة ، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله — ﷺ — أخرها حتى إذا كان رسول الله — ﷺ — فى بيت عائشة بعث صاحب الهدية إلى رسول الله — ﷺ — فى بيت عائشة ، فكلم حزب أم سلمة أم سلمة فقلن لها :

— كلمى رسول الله — ﷺ — يكلم الناس فيقول : من أراد أن يهدى إلى رسول الله — ﷺ — هدية فليهد إليه حيث كان من بيوت نسائه .

فكلمته أم سلمة بما قلن فلم يقل لها شيئا ، فسألنها فقالت :

— ما قال لى شيئا .

فقلن لها :

— فكلميه .

فكلمته حين دار إليها أيضا فلم يقل لها شيئا ، فسألنها فقالت :

— ما قال لى شيئا .

— كلميه حتى يكلمك .

فدار إليها فكلمته فقال لها :

— لا تؤذينى فى عائشة ، فإن الوحى لم يأتنى وأنا فى نوب امرأة إلا عائشة .

— أتوب إلى الله من ذاك يا رسول الله .

ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله — ﷺ — فأرسلت إلى رسول الله — ﷺ — تقول :

— إن نساءك ينشدنك الله العدل فى بنت أبى بكر .

— أى بنية أتحبيننى ؟

— نعم يا أبى .

— فأحبها .

كان يحب عائشة وكان يعلم أن الغيرة كثيرا ما تستبد بها ، فكان يقول لها :

— أغرتِ ؟

فتقول دون مداراة :

— وما لى .. ألا يغار مثلى على مثلك ؟

٢٢

كانت تميم تدين بالمجوسية وكانت تطلق على أبنائها أسماء فارسية ، وكانت على صلة طيبة بالمناذرة فكان أهلها يعتقدون أنهم أكثر حضارة من سائر قبائل العرب ، وكانوا كثيرا ما يروون أقاصيص عن مجدهم فكانت أنديتهم تفيض بأحاديث ما وقع لرجالهم فى بلاط ملوك لخم . إنهم يروون أن المنذر بن المنذر ابن ماء السماء قال ذات يوم وعنده وفود العرب ، ودعا بُبردَى أبيه محرق بن المنذر :

ــ ليلبس هذين أعز العرب وأكرمهم حسبا .

فأحجم الناس ، فقال أحيمر بن خلف التميمى :

ــ أنا لهما .

قال الملك :

ــ بماذا ؟

ــ بأن مضر أكرم العرب وأعزها وأكثرها عديدا ، وأن تميما كاهلها (أعلاها) وأكثرها ، وأن بيتها وعددها فى بنى بهدلة بن عوف وهو جدى .

ــ هذا أنت فى أصلك وعشيرتك ، فكيف أنت لى فى عترتك وأدانيك ؟

ــ أنا أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة .

فدفعها إليه .

وكانوا يفتخرون أن عتاب بن هرمى بن رياح منهم ، كانت له ردافة الملوك ملوك آل المنذر ، وردافة الملك أن يثنّى به فى الشرب وإذا غاب الملك خلفه فى

مجلسه ، وكانوا لا يطيقون أن يفتخر حي آخر فى أنديتهم ، قال بنو كلب بن وبرة :

— نحن لباب العرب وقلبها ، ونحن الذين لا ننازع حسبا وكرما .

فقال لهم شيخ منهم :

— إن العرب غير مقرة لكم بذلك .. إن لها أحسابا وإن منها لبابا وإن لها فعالا ، ولكن ابعثوا مائة منكم فى أحسن هيئة وبزة يُنقّرون من مروا به من العرب ويسألونه عشر ديات ولا ينتسبون له ، فمن قراهم وبذل لهم الديات فهو الكريم الذى لا ينازع فضلا .

فخرجوا حتى قدموا أرض تميم وأسد فنقروا الأحياء حيا فحيا وماء فماء لا يجدون أحدا على ما يريدون ، حتى مروا على أكثم بن صيفى فسألوه ذلك فقال :

— من هؤلاء القتلى ؟ ومن أنتم ؟ وما قصتكم ؟ فإن لكم لشأنا باختلافكم فى كلامكم !

فعدلوا عنه ثم مروا بقتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعى فسألوه عن ذلك فقال :

— من أنتم ؟

— من كلب بن وبرة .

— إنى لأبغى كلبا بدم ، فإن انسلخ الأشهر الحرم وأنتم بهذه الأرض وأدرككم الخيل نكلت بكم وأثكلتكم أمهاتكم .

فخرجوا من عنده مرعوبين ، فمروا بعطارد بن حاجب ابن زرارة فسألوه ذلك فقال :

— قولوا بيانا وخذوها .

فقالوا :

ـــ من هذا فقد سألكم قبل أن يعطيكم .

فتركوه ومروا ببنى مجاشع بن دارم فأتوا على واد قد امتلأ إبلا فيها غالب ابن صعصعة يطلى منها إبلا بالقطران ، فسألوه القِرى والديّات فقال :

ـــ هاكم البزل قبل النزول فابتزوها من البرك وحوزوا دياتكم ثم انزلوا .

فنزلوا وأخبروه بالحال وقالوا :

ـــ أرشدك الله من سيد قوم ! لقد أرحتنا من طول النصب ، ولو علمنا لقصدنا إليك .

فقال ابنه الفرزدق مفتخرا :

فلله عينا من رأى مثل غـالب ... قـرى مائـة ضيفـا ولم يتكلـم
وإذا نبحت كلبا على الناس إنهم ... أحـق بتـاج الماجـد المتكـرّم
فلم يجل عن أحسابها غير غالب ... جرى بعنانى كل أبلج خضرم(١)

وكانوا يفخرون بأن نباش بن زرارة أبا هالة كان زوجا لخديجة بنت خويلد قبل أن يتزوجها محمد بن عبد الله ، وأن منهم أحكم العرب فى زمانه أكثم بن صيفى أكثر العرب حكما ومثلا وموعظة سائرة .

وكانوا يقولون إنهم أوفى العرب لأن حاجب بن زرارة رهن قوسه عن العرب كلها عند كسرى وأوفى ، وإنهم أحلم العرب لأن منهم الأحنف بن قيس وكان يضرب به المثل حلما ، وأسود العرب لأن قيس بن عاصم كان سيد أهل الوبر وكان قيس هو الذى شرع وأد البنات خشية العار بعد أن كان الوأد فيهم خشية الإملاق ، فقد أغار اللخميون على بنى تميم وسبوا نساء كانت

---

(١) الأبلج : الواضح . والخضرم : الجواد المعطاء .

فيهن ابنة قيس بن عاصم ، فانطلق قيس وبعض رجال بنى تميم إلى ملك اللخميين يطلبون نساءهم ، فخير الملك النسوة بين آسريهم وأهليهم فاختارت ابنة قيس آسرها على زوجها ، فعاد قيس بن عاصم وقد اسود وجهه من الغيظ وراح يدس البنات فى التراب خشية أن يجلبن له العار كما جلبته له ابنته من قبل ، وأصبح وأد البنات خشية العار مألوفا فى بنى تميم .

كان بنو تميم يعتقدون أنهم أعظم قبائل العرب حضارة .

فلما ظهر الإسلام فى المدينة وانتشر فى القبائل التى حولها أعرضوا عن ذلك الدين فهم يدينون بدين فارس إحدى الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين تتنافسان على سيادة العالم . فأين ذلك الدين الناشىء من دين تنتثر بيوت ناره فى المشارق والمغارب ؟!

واعتنق سادات تميم الدين الجديد قبيل فتح مكة ، وخرج الأقرع بن حابس التميمى مع رسول الله — ﷺ — لما انطلق إلى أم القرى وحارب معه هوازن يوم حنين وحضر حصار الطائف ، وأعطاه عليه السلام مائة من الإبل لما قسم نصيبه من الفىء على المؤلفة قلوبهم . وعلى الرغم من نزول النور إلى أفئدة بعض بنى تميم فإن القبيلة كلها ظلت تتيه بضلالها وتناصب المسلمين العداء ولم تكتم العداوة فى القلوب بل بدت البغضاء من أفواههم واتسمت أفعالهم بالتحدى المكشوف .

كان رسول الله — ﷺ — قد بعث بشر بن سفيان على صدقات بنى كعب بن خزاعة ، فجاء وقد حل بنواحيهم بنو عمرو بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم ، فجمعت خزاعة مواشيها للصدقة فاستنكرت ذلك بنو تميم وأبوا وابتدروا القسى وشهروا السيوف ، فقدم بشر على رسول الله — ﷺ — فأخبره فقال :

— من هؤلاء القوم ؟

فانتدب لهم عيينة بن حصن فبعثه فى الحرم سنة تسع من مهاجره فى خمسين فارسا من العرب ليس فيهم مهاجرى ولا أنصارى .

وانطلق عيينة يسير الليل ويكمن النهار حتى إذا ما بلغ صحراء بين السقيا وأرض بنى تميم رأى رجالا قد حلوا ماشيتهم وسرحوها . إنهم من تميم . فهجم عليهم فلما رأى الرجال فرسان المسلمين ولوا لا يلوون على شىء ، وجدَّ عيينة فى أثرهم فأخذ أحد عشر رجلا ، ووجد فى المحلة إحدى عشرة امرأة وثمانين صبيا فجلبهم إلى المدينة ، فأمر بهم رسول الله — ﷺ — فحبسوا فى دار رملة بنت الحارث ، فقدم فيهم عدة من رؤسائهم : عطارد بن حاجب والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ورياح بن الحارث بن مجاشع والاقرع بن حابس وقيس بن الحارث ونعيم بن سعد وعمرو بن الاهتم ورحال من ساداتهم .

ودخلوا المسجد وقد أذن بلال بالظهر والناس ينتظرون خروج رسول الله — ﷺ — فعجلوا واستبطئوه فنادوا رسول الله — ﷺ — من وراء حجراته :

— يا محمد ! اخرج إلينا .

فخرج رسول الله — ﷺ — وأقام بلال الصلاة فصلى رسول الله ﷺ الظهر . ثم أتوه وراحوا يحدثونه وقيس بن عاصم يرقب رسول الله فى اهتمام ؛ كان عاقلا حليما وكان على دين قومه فأحس وقد ألقى إلى رسول الله عليه السلام سمعه أن نورا يتسلل إلى قلبه ، وأن الله قد شرح للإسلام صدره فقال فى انفعال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فقال له رسول الله — ﷺ — :

— هذا سيد الوبر .

وجاء الحسن بن على فاستقبله رسول الله — ﷺ — بالبشر وقبله ، فقال الأقرع بن حابس :

— إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا .

فنظر إليه رسول الله — ﷺ — ثم قال :

— من لا يرحم لا يُرحم .

ورد عليهم الأسرى والسبى ، وتذكر قيس بن عاصم ما كان منه من وأد البنات . إنه كان شريفا فى قومه وكان ذا مال فما كان يئدهن خشية إملاق بل خشية العار ، وقد سن هو هذه السنة فراح يسأل رسول الله — ﷺ — عن حكم الإسلام فيما فعله فقال له — صلوات الله وسلامه عليه :

— الإسلام يجب ما قبله

فاستبشر قيس وأمر رسول الله — ﷺ — لهم بالجوائز كما كان يجيز الوفد ، ثنتى عشرة أوقية ونشا(١) وهى خمسمائة درهم . وكان عمرو بن الأهتم قد خلفَّه القوم فى إبلهم وكان أصغرهم سنا ، فقال قيس بن عاصم وكان يكره عمرو بن الأهتم :

— يا رسول الله إنه قد كان رجل منا فى رحالنا وهو غلام حدث وأزرى به .

فأعطاه رسول الله — ﷺ — مثل ما أعطى القوم ، فبلغ عمرو بن الأهتم ما قاله قيس فيه فقال :

---

(١) النش : نصف أوقية .

ظللت مفترش الهلباء[١] تشتمنى عند النبى فلـم تصدق و لم تصب
إن تنقصونا فإن الروم أصلكـم والـروم لا تملك البـغضاء للعـرب
وإن سؤددنـا عــود وسؤددكم مؤخر عند أصل العجب[٢] والذنب

إنه نسبه إلى الروم لأنه كان أحمر ، فنهاه النبى — ﷺ — وقال :

— إن إسماعيل كان أحمر .

وقال الزبرقان يفتخر :

— يا رسول الله . أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب منهم ، آخذ لهم بحقوقهم وأمنعهم من الظلم وهذا يعلم ذلك .

وأشار إلى عمرو بن الأهتم فقال عمرو :

— إنه شديد العارضة ، مانع لجانبه ، مطاع فى أدانيه .

فقال الزبرقان :

— والله لقد كذب يا رسول الله ، وما منعه من أن يتكلم إلا الحسد .

— أنا أحسدك ؟! والله إنك لئيم الخال ، حديث المال ، أحمق الولد ، مبغض فى العشيرة . والله ما كذبت فى الأولى ولقد صدقت فى الثانية .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— إن من البيان لسحرا .

وعاد وفد تميم بالأسرى ، وانتشر الإسلام فى الحى الذى كان يتيه بأن دينه المجوسية دين كسرى . وذات يوم قعد قيس بن عاصم بفناء داره محتبيا بحمائل سيفه يحدث قومه ، فأتى برجل مكتوف وآخر مقتول فقيل له :

---

(١) الهلباء : يعنى إسته .

(٢) العجب : أصل الذنب .

ـــ هذا ابن أخيك قد قتل ابنك .

فالتفت إلى ابن أخيه فقال :

ـــ يا بن أخي بئس ما فعلت ! أثمت بربك وقطعت رحمك وقتلت ابن عمك ورميت نفسك بسهمك .

ثم قال لابن له آخر :

ـــ قم يا بني فوار أخاك وحل كتاف ابن عمك ، وسق إلى أمك مائة ناقة دية ابنها .

٢٣

مضى شهر و لم يستوقد آل محمد نارا ، إن هو إلا التمر والماء . وما أكثر الليالى المتتابعة التى كان ـ ﷺ ـ يبيتها هو وأهله طاوين لا يجدون عشاء . و لم يمتلىء جوف النبى ـ ﷺ ـ شبعا قط و لم يبث شكوى إلى أحد . وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى وإن كان ليظل جائعا يلتوى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه . ولو شاء لأبقى شيئا مما أفاء الله عليه من هوازن ولكنه لم يحفل بالدنيا وكنوزها ، وكثيرا ما كان يقول :

ـ ما لى وللدنيا ؟ .. حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه .

وأرخى الليل أستاره وهجعت الكائنات فاستاك ـ ﷺ ـ ثم توضأ ثم قام يصلى حتى انتفخت قدماه ، فقيل له :

ـ أتكلّف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

ـ أفلا أكون عبدا شكورا ؟

ودخل رسول الله عليه السلام داره فاستقبلته حفصة بالترحاب ، وهب لينام وكان فراشه مسحا تثنيه حفصة ثنيتين فينام عليه . فثنته له تلك الليلة بأربع فلما أصبح قال :

ـ ما فرشتموه لى الليلة ؟

فذكرت له حفصة أنها ثنت المسح بأربع . فقال عليه السلام :

ـ ردوه بحاله ، فإن وطأته منعتنى الليلة صلاتى .

وخرج ـ ﷺ ـ إلى المسجد ، وجلس مطرقا إلى الأرض فهو متواصل

الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة ، وجاءه على بن أبى طالب ليغترف من كنوز علمه فسأله عن سنته ، فقال عليه السلام :

ــ المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والعجز فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خُلقى ، وقرة عينى فى الصلاة .

جزأ ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ نهاره ثلاثة أجزاء : جزءا لله ، وجزءا لأهله ، وجزءا لنفسه ، ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس فكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول :

ــ أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى ، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها أمنه الله يوم الفزع الأكبر .

وكان رسول الله ــ ﷺ ــ أوقر الناس فى مجلسه ، كثير السكوت لا يتكلم فى غير حاجة ، يعرض عمن تكلم بغير جميل ، وكان ضحكة تبسما ، وكلامه فصلا لا فضول ولا تقصير ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيرا له واقتداء به ، وكان سكوته على أربع : على الحلم والحذر والتقدير والتفكر .

وتأهب رسول الله ــ ﷺ ــ لينطلق إلى السوق فهرع أبو هريرة إليه ، فقد انقطع لخدمة رسول الله ــ ﷺ ــ طلبا للعلم ، وقد سأله رسول الله ذات يوم :

ــ ألا تسألنى من هذه الغنائم التى يسألنى أصحابك ؟

فقال أبو هريرة :

— أسألك أن تعلمنى مما علمك الله .

وغادر رسول الله عليه السلام المسجد وأبو هريرة متهلل الأسارير لأنه فى رفقة حبيبه رسول الله ، إنه يقول :

— ما رأيت شيئا قط أحسن من رسول الله — ﷺ — كأن الشمس تجرى فى وجهه .

والتفت إلى النبى — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى ، فأنبئنى عن كل شىء .

— كل شىء خلق من ماء .

— يا رسول الله أنبئنى عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة ؟

— أفش السلام ، وأطعم الطعام ، وصل الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام .

ومر — صلوات الله وسلامه عليه — على صبرة (كومة) طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال :

— ما هذا يا صاحب الطعام ؟

— أصابته السماء يا رسول الله .

— أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟! من غشنا فليس منا .

وسار عليه السلام فى السوق وأبو هريرة معه ، فاشترى سراويل وقال للوزان :

— زن وأرجح .

ورأى الوزان من رسول الله — ﷺ — كرم خلق ورحابة صدر ولين جانب ، أصدق الناس لهجة وما أحد أحسن خلقا منه ، فوثب الرجل إلى يد

النبى — ﷺ — يقبلها ، فجذب يده وقال :

— هذا تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك . أنا رجل منكم .

ثم أخذ السراويل فذهب أبو هريرة ليحمله ، فقال عليه السلام :

— صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله .

وعاد رسول الله — ﷺ — إلى مسجده ، فجاءت امرأة ببردة فقالت :

— يا رسول الله إنى نسجت هذه بيدى أكسوكها .

فأخذها النبى — ﷺ — محتاجا إليها ، فخرج إلى الناس وإنها إزاره ، فقال رجل بين القوم :

— يا رسول الله اكسنيها .

— نعم .

فجلس النبى — ﷺ — فى المجلس ، ثم رجع فطواها ثم أرسل بها إليه ، فقال له القوم :

— ما أحسنت . سألتها إياه لقد علمت أنه لا يرد سائلا .

— والله ما سألته إلا لتكون كفنى يوم أموت .

وكان ثعلبه بن حاطب الأنصارى قد أتى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا .

— ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه .

ثم قال مرة أخرى :

— أما ترضى أن تكون مثل نبى الله ؟ فوالذى نفسى بيده لو شئت أن تسيل معى الجبال فضة وذهبا لسالت .

— والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقنى مالا لأوتين كل ذى حق حقه .

فقال رسول الله — ﷺ :

— اللهم ارزق ثعلبة مالا .

فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها .

ومرت الأيام وسأل رسول الله — ﷺ :

— ما فعل ثعلبة ؟

— اتخذ غنما وضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ما سواهما ، ثم نمت وكثرت حتى ترك الصلاة إلى الجمعة وهى تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة .

— يا ويح ثعلبة . يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة .

وأنزل الله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم »(١) . فبعث رسول الله — ﷺ — رجلين على الصدقة : رجلا من جهينة ورجلا من بنى سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة وقال لهما :

— مرا بثعلبة وبفلان رجل من بنى سليم ، فخذا صدقتهما .

فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال :

— ما هذه إلا جزية . ما هذه إلا أخت الجزية . ما أدرى ما هذا ؟! انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إلى .

فانطلقا وأخبرا السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهم بها ، فلما رأوها قالوا :

— ما يجب هذا عليك . وما نريد أن نأخذه منك .

— بلى خذوه فإن نفسى بذلك طيبة ، وإنما هى إبلى .

فأخذوها منه ، فلما فرغا من صدقتهما رجعا حتى مرا بثعلبة ، فقال :

ـــ أرونى كتابكما أنظر فيه .

فنظر فقال :

ـــ ما هذه إلا أخت الجزية ، انطلقا حتى أرى رأيى .

فانطلقا حتى أتيا النبى عليه الصلاة والسلام ، فلما رآهما قال :

ـــ يا ويح ثعلبة .

قبل أن يكلمهما ، ودعا للسلمى بالبركة ، وأخبروه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السلمى ، فأنزل الله عز وجل فى ثعلبة قرآنا وعند رسول الله ـــ ﷺ ـــ رجل من أقاربه فسمع ذلك ، فخرج حتى أتى ثعلبة فقال :

ـــ ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون »(١) .

فخرج ثعلبة حتى أتى النبى عليه الصلاة والسلام فسأله أن يقبل منه صدقته ، فقال :

ـــ إن الله قد منعنى أن أقبل صدقتك .

فجعل يحثو التراب على رأسه ، فقال رسول الله ﷺ :

ـــ هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعنى .

فلما أبى أن يقبل منه شيئا رجع إلى منزله والدنيا فى عينيه ظلمات بعضها فوق بعض ، يلوم نفسه لأنه لم يطع الرسول لما قال له : « ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه » .

---

(١) التوبة ٧٥ ـــ ٧٧ .

٢٤

ارتفع صوت بلال يؤذن فى عماية الصبح ففتحت الدور فى العالية والسافلة وخرج الرجال والنساء والولدان فى ثياب جديدة ، فقد كان اليوم يوم عيد . وخرج رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المصلى وخرج أهل بيته إلى المسجد ، فلما قضيت الصلاة وانتهى عليه السلام من خطبة العيد وقد وعظ الناس وأمرهم بالصدقة فقال :

ـ أيها الناس تصدقوا .

فمر على النساء فقال :

ـ تصدقن ولو من حليكن .

وكانت زينب امرأة عبد الله بن مسعود فى المسجد ، وكانت زينب تنفق على عبد الله وأيتام فى حجرها ، فقالت لعبد الله :

ـ سل رسول الله ـ ﷺ ـ أيجزى عنى أن أنفق عليك وعلى أيتام فى حجرى من الصدقة ؟

ـ سلى أنت رسول الله ـ ﷺ .

فانطلقت إلى النبى ـ ﷺ ـ فوجدت امرأة من الأنصار على الباب حاجتها مثل حاجتها ، فمر عليهما بلال فقالت كل منهما :

ـ سل النبى ـ ﷺ ـ أيجزى عنى أن أنفق على زوجى وأيتام فى حجرى ؟

وقالتا لبلال :

— لا تخبر بنا .

كانتا تطلبان منه إلا يعين أسماءهما ولا يقل السائلة فلانه ، فدخل فسأله فقال عليه السلام :

— من هما ؟

— زينب .

— أى الزيانب ؟

— امرأة عبد الله .

— نعم ولها أجران : أجر القرابة وأجر الصدقة .

وراح الناس يتصدقون فجاء هذا بتمره إلى رسول الله — ﷺ — وهذا من تمره حتى صار عنده كوما من تمر ، فجعل الحسن والحسين يلعبان بذلك التمر ، فأخذ الحسن تمرة جعلها فى فيه ، فقال النبى — ﷺ :

— كخ كخ .

ليطرحها من فيه . ثم قال :

— أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة ؟

وجاء ناس من الأنصار يسألون رسول الله — ﷺ — فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده فقال :

— ما يكون عندى من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبّره الله ، وما أعطى أحدا عطاء خيرا وأوسع من الصبر .

وجاء إليه عليه السلام أناس يشكون قالوا :

— منع ابن جميل وخالد بن الوليد وعباس بن عبد المطلب .

فقال النبى ﷺ :

— ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيرا فأغناه الله ورسوله ، وأما خالد فإنكم تظلمون خالدا قد احتبس أدراعه وأعتُده فى سبيل الله . وأما العباس بن عبد المطلب فعم رسول الله — ﷺ — فهى عليه صدقة ومثلها معها .

كان أناس يسألون وأناس يسألون إلحافا وأناس يستعففون حتى عن العطاء ، فقد كان رسول الله — ﷺ — يعطى عمر العطاء فيقول :

— أعطه من هو أفقر إليه منى .

فيقول له رسول الله — ﷺ — :

— خذه ، إذا جاءك من هذا المال شىء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه وما لا تُتْبعه نفسك .

وراح الناس يمضون العيد فى بيرَحاء وكانت بستانا لأبى طلحة وكانت أحب أمواله إليه ، وكانت بيرحاء مستقلة بالمسجد وكان رسول الله — ﷺ — يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلما أنزلت آية : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »(١) . قام أبو طلحة إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إن الله تبارك يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . وإن أحب أموالى إلىّ بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— بخ ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعت ما قلت ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين .

---

(١) آل عمران ٩٢ .

فقال أبو طلحة :

ــ أفعل يا رسول الله .

فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه .

وجاء الفقراء إلى النبى ــ ﷺ ــ فقالوا :

ــ ذهب أهل الدثور (الكثير) من الأموال بالدرجات العلا والنعيم المقيم ، يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ولهم فضل من أموال يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون .

ــ ألا أحدثكم بما إن أخذتم به أدركتم من سبقكم و لم يدرككم أحد بعدكم وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين .

فاختلفوا بينهم فقال بعضهم :

ــ نسبح ثلاثا وثلاثين ونحمد ثلاثا وثلاثين ونكبر أربعا وثلاثين .

فرجع إليه أبو هريرة فقال عليه السلام :

ــ تقول : سبحان الله والحمد لله والله وأكبر حتى يكون منهن ثلاثا وثلاثين .

وكان رسول الله ــ ﷺ ــ قد استعمل عاملا ، فجاءه العامل حين فرغ من عمله فقال :

ــ يا رسول الله هذا لكم وهذا أهدى لى .

فقال له :

ــ أفلا قعدت فى بيت أبيك وأمك فنظرت أيهدى لك أم لا ؟

ثم قام رسول الله ــ ﷺ ــ عشية بعد الصلاة فتشهد وأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :

— أما بعد فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول : هذا من عملكم وهذا أهدى لى ؟ أفلا قعد فى بيت أبيه وأمه فنظر هل يهدى له أم لا ؟ فوالذى نفس محمد بيده لا يغل أحدكم منها شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه إن كان بعيرا جاء به له رغاء ، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار وإن كانت شاة جاء بها لها تيعر ، فقد بلغت .

وجاءت امرأة معها ابنتان عائشة تسألها فلم تجد عندها غير تمرة واحدة فأعطتها . فقسمتها الأم بين ابنتيها ثم قامت فخرجت . فدخل النبى — ﷺ — فحدثته فقال :

— من يلى من هذه البنات شيئا فأحسن إليهن كن له سترا من النار .

وتلقى عليه السلام هدية وهو فى بيت عائشة ، فأرسل إلى كل زوجة نصيبا منها ، فردت زينب بنت جحش ما جاءها فقالت عائشة فى شماتة ، فلم تكن واحدة من نساء النبى — ﷺ — تناصبها غير زينب :

— لقد أقمأت(١) وجهك حين ترد عليك الهدية .

فقام عنها مغضبا وهو يقول :

— أنتن أهون على الله من أن تقمئننى .

كان عليه السلام يحبها وكان يغضب ويرضى وكانت تغضب وترضى ، وقد قال لها ذات يوم :

— إنى لأعرف غضبك ورضاك .

— وكيف تعرف ذاك يا رسول الله ؟

— إنك إذا كنت راضية قلت : بلى ورب محمد . وإذا كنت ساخطة

---

(١) أقمأت : صغرت وأذللت .

قلت : لا ورب إبراهيم .

ــ أجل . لست أهاجر إلا اسمك .

وكان عليه السلام يزور كل يوم ابنته فاطمة الزهراء ويسعد بمداعبة الحسن والحسين ومحسن وزينب وأم كلثوم ، وما كان يصرفه عنهم شاغل من شواغله الجسام . إنه كان سعيدا بابنه إبراهيم وكان يضمه إلى صدره ويقبله ، ولكن حبه إبراهيم لم يطغ على حبه الحسن والحسين و لم يؤثر فى حبه لأمامة بنت زينب ، فقد كان يخرج على الناس وأمامة بنت أبى العاص على عاتقه فيصلى ، فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها .

وجاءه أعرابى وهو يقبل أحفاده فقال :

ــ أتقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم .

فقال النبى ــ ﷺ :

ــ أوَأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟

وراح ــ ﷺ ــ يحدث أصحابه فى المسجد ويقول :

ــ مثلى ومثل ما بعثنى الله كمثل رجل أتى قوما فقال : يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العريان فالنجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم . فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق .

ورأى عمر على رجل حلة من إستبرق فأتى بها النبى ــ ﷺ ــ فقال :

ــ يا رسول الله اشتر هذه فالبسها لوفد الناس إذا قدموا عليك .

ــ إنما يلبس الحرير من لا خلاق له .

فمضى من ذلك ما مضى . ثم إن النبى ــ ﷺ ــ بعث إلى عمر بحلة .

فأتى بها النبى — ﷺ — فقال :

— بعثت إلى بهذه وقد قلت فى مثلها ما قلت .

— إنما بعثت بها إليك لتصيب بها مالا .

ومرت الأيام وجلس رسول الله — ﷺ — فى المسجد ومعه أسامة بن زيد وسعد بن أبى وقاص وأبىّ ، فأرسلت إليه ابنة له :

— إن ابنى قد احتضر فاشهدنا .

فأرسل يقرأ السلام ويقول :

— إن لله ما أخذ وما أعطى ، وكل شيء عنده مسمى فلتصبر وتحتسب .

فأرسلت إليه تقسم عليه فقام وقام معه أسامة وسعد وأبى ، فلما رفع إليه فأقعده فى حجرة ونفس الصبى تقعقع ، فاضت عينا رسول الله — ﷺ — فقال سعد :

— ما هذا يا رسول الله ؟!

— هذا رحمة يضعها الله فى قلوب من يشاء من عباده .

وإنما يرحم الله من عباده الرحماء .

٢٥

كان زهير بن أبى سلمى يجالس أهل الكتاب ويسمع منهم أنه قد آن بعث خاتم الأنبياء ، ودخل زهير ذات ليلة ونام فرأى أنه قد مد بسبب من السماء وأنه مد يده ليتناوله ففاته ، فأول رؤياه بالنبى عليه السلام الذى يبعث فى آخر الزمان وأنه لا يدركه .

وأحس زهير أن خيرا كثيرا قد فاته ، فرأى أن لا يفوت بنيه فجمعهم وأخبرهم بحلمه وأوصاهم إن أدركوا النبى ـ ﷺ ـ أن يسلموا وأن يتبعوا النور الذى يأتى به ، فقد كان يريد لبنيه هناءة الدنيا وسعادة الأبد .

وذهب زهير بن أبى سلمى وقام رسول الله ـ ﷺ ـ يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له فآمن له من شرح الله قلوبهم للإسلام وناصبه العداء من عميت قلوبهم التى فى الصدور . وخرج يوما بجير بن زهير وكعب بن زهير فى غنم لهما ، وبلغهما أن رسول الله ـ ﷺ ـ يدعو الناس إلى دينه الجديد ، فقال بجير لأخيه كعب وقد تذكر وصية أبيه :

ـ اثبت فى الغنم حتى آتى هذا الرجل فأسمع كلامه وأعرف ما عنده .

فأقام كعب ومضى بجير ، فأتى رسول الله ـ ﷺ ـ وسمع كلامه فأحس نشوة عارمة وكأن غشاوة قد رفعت عن عينيه وأنه ارتفع حتى كاد يعاين ملكوت الله ، وانسكبت أنوار اليقين فى فؤاده فإذا به يرى الوجود كله قد تألق بضياء ربانى بيده بصيرته ، فقال وهو متفرح فى الله :

ـ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله :

وعاد إلى حيث كان أخوه كعب وهو يستشعر كأنما ولد من جديد . إنه ذهب ليلقى سمعه إلى النبى — ﷺ — وهو لا يدرى سر وجوده ، فعاد من عنده وهو يحس أن حياته أصبح لها معنى وأن له رسالة وسَّعت أمامه آفاق دنياه ، فقد صار خليفة الله فى الأرض .

وأخذ بجير يروى لأخيه كعب ما بهره من أمر رسول الله — ﷺ — وهو يطمع فى إسلام أخيه ، ولكن كعبا أصم أذنيه عن النصح وأعرض فى استكبار وسار فى طريق الضلال .

وانتقل الإسلام من نصر إلى نصر وفتح رسول الله — ﷺ — مكة ودانت له قريش وانطلق لحرب هوازن وضرب الحصار على الطائف ، واستمر كعب ينظم الهجاء فى نبى الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه — وأخوه بجير فى صفوت المسلمين يتألم لتردى كعب فى الظلمات . فلما كان منصرفه عليه السلام من الطائف كتب بجير إلى أخيه كعب بن زهير يخبره بفتح مكة وأنه — ﷺ — قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وأن من بقى من شعراء قريش ابن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب قد هربوا فى كل وجه ، « فإن كانت لك فى نفسك حاجة فطر إلى رسول الله — ﷺ — فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا ، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض .

فلما بلغ كعبا الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه ، واهتبل أعداؤه هذه الفرصة فخاضوا فى أمره بما أفزعه فقالوا :

— هو مقتول .

فلما لم يجد من شيء بدا خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة ، فغدا به إلى رسول الله — ﷺ — حين صلى الصبح ، فصلى مع رسول الله — ﷺ — ثم أشار له إلى رسول الله —

صلوات الله وسلامه عليه ــ فقال :

ــ هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه .

فقام إلى رسول الله ــ ﷺ ــ حتى جلس إليه فوضع يده فى يده ، وكان رسول الله ــ ﷺ ــ لا يعرفه فقال :

ــ يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟

ــ نعم .

ــ أنا يا رسول الله كعب بن زهير .

فوثب عليه رجل من الأنصار فقال :

ــ يا رسول الله دعنى وعدو الله أضرب عنقه .

ــ دعه عنك فإنه قد جاء تائبا نازعا عما كان عليه .

فغضب كعب على هذا الحى من الأنصار لما صنع به صاحبهم ، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير ، فراح ينشد :

بانت سعاد(١) فقلبى اليوم متبول
متيم إثرها لم يُفْد مكبول
وما سعادُ غداةَ البين إذ رحلوا
إلا أغنّ(٢) غضيض الطرف مكحول

---

(١) بانت : فارقت فراقا بعيدا . وسعاد اسم امرأة ، وقيل هى امرأته وبنت عمه ، خصها بالذكر لطول غيبته عنها ، لهروبه من النبى ﷺ .

(٢) الأغن : الظبى الصغير الذى فى صوته غنة . غضيض الطرف : فاتره ، مكحول : من الكحل (بتحريك الحاء المهملة) وهو سواد يعلو جفون العين من غير اكتحال .

هيفـاء[١] مقبلـة عجـزاء مدبـرة
لا يُشتكـى قصر منها ولا طـول
تجلو[٢] عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت
كأنـه مُنهَـل بالـراح معلـول
شُجَّت[٣] بـذى شَبَم من مـاء محنيـة
صاف بأبطح أضحى وهـو مشمـول
تنفى الرياح القـذى[٤] عنـه وأفرطه
مـن صَوب غاديـة بِيض يعاليـل
فيـا لها خلـة[٥] لـو أنها صدقت
بوعدهـا أو لـو ان الـنصح مقبـول
لـكنها خُلَّـة قـد سِيـط[٦] مـن دمهـا
فجْـعٌ وولْـعٌ وإخـلاف وتبديـل

---

(١) هيفاء : دقيقة الخاصرة مقبلة : حال . عجزاء : كبيرة العجز .

(٢) تجلو : تكشف . العوارض : الأسنان . الظلم : ماء الأسنان وبريقها . المنهل : المسقى . الراح : الخمر . معلول : من العلل (بالفتح) ، وهو الشرب الثانى .

(٣) شجت : مزجت حتى انكسرت سورتها . وشبم : ماء شديد البرد . المحنية : منعطف الوادى . الأبطح : المسيل الواسع الذى فيه دقائق الحصى ، المشمول : الذى ضربته شمال حتى برد .

(٤) القذى : ما يقع فى الماء من تبن أو عود أو غيره . أفرطه : سبق إليه وملأه . الصوب : المطر . الغادية : السحابة تمطر غدوة . اليعاليل : الحباب الذى يعلو وجه الماء .

(٥) الخلة (بالضم) : الصديقة .

(٦) سيط : أى خلط بلحمها ودمها هذه الصفات المذكورة فى البيت . الفجع : الإصابة بالمكروه . الولع : الكذب . الإخلاف : خلف الوعد .

فما تدوم على حال تكون بها
كما تلوّن فى أثوابها الغول [١]
وما تمسك بالعهد الذى زعمت
إلا كما يمسك الماءَ الغرابيل
فلا يغرّنك ما منّت وما وعدت
إن الأمانى والأحلام تضليل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلا
وما مواعيدها إلا الأباطيل
أرجو وآمل أن تدنو مودّتها
وما إخال لدينا منك تنويل [٢]
أمست سعاد بأرض لا يُبلّغها
إلا العتاق[٣] النجيبات المراسيل
ولن يبلغها إلا عُذافرةٌ[٤]
لها على الأين إرقال وتَبغيل
من كل نضّاخة[٥] الذِّفرى إذا عَرِقت
عُرضَتُها طامس الأعلام مجهول

(١) الغول : ساحرة الجن . (٢) التنويل : الوصل .

(٣) العتاق : الكرام النجيبات : جمع نجيبة ، وهى القوية الخفيفة . المراسيل : الإبل الكرام الأصول ، القوية السريعة .

(٤) العذافرة : الناقة الصلبة العظيمة . الأين : الإعياء والتعب . الإرقال والتبغيل : ضربان من السير السريع .

(٥) النضاخة : الكثيرة رشح العرق . الذفرى : النقرة التى خلف أذن الناقة . عرضتها : همتها . طامس الأعلام : الدارس المتغير من العلامات التى تكون فى الطريق ليهتدى بها .

ترمى الغيوب(١) بعينى مفرد لهق
إذا توقَّدت الحزَّان والمِيل
ضخم مُقلَّدها(٢) فعم مقيَّدها
فى خَلْفها عن بنات الفحل تفضيل
غَلباء(٣) وجناء عُلكوم مُذكَّرة
فى دفها سعة قُدَّامها مِيل
وجلدها من أطوم(٤) ما يؤيِّسه
طِلح بضاحية المتنين مهزول
حرفٌ(٥) أخوها أبوها من مُهجَّنة
وعمها خالها قَوْداء شِمليل

(١) الغيوب : آثار الطريق التي غابت معالمها عن العيون . المفرد : الثور الوحشى الذى تفرد فى مكان . اللهق : الأبيض . الحزان : الأمكنة الغليظة الصلبة تكثر فيها الحصباء . الميل : العقد الضخمة من الرمل .

(٢) المقلد : موضع القلادة فى العنق . فعم : ممتلىء . القيد : بنات الفحل : الإناث من الإبل المنسوبة للفحل المعد للضراب .

(٣) غلباء : غليظة العنق . وجناء : عظيمة الوجنتين . علكوم : شديدة . مذكرة : عظيمة الخلقة تشبه الذكران من الأباعر . فى دفها سعة : أى هى واسعة الجنبين . قدامها ميل : كناية عن طول عنقها . أو سعة خطوها .

(٤) الأطوم : سلحفاة بحرية غليظة الجلد . يؤيسه : يذلله ولا يؤثر فيه . الطلح (بالكسر) : القراد . الضاحية من كل شيء : ناحيته البارزة للشمس . المتنان : ما يكتنف صلبها عن يمين وشمال ، من عصب ولحم . مهزول : صفة لطلح ، أى قراد مهزول .

(٥) الحرف : الناقة الضامرة . أخوها أبوها .. ألخ : لم يدخل فى نسبها غير أقاربها . المهجنة : الكريمة الأبوين من الإبل . القوداء : الطويلة الظهر والعنق . الشمليل الخفيفة السريعة .

يمشى القُرادُ عليها ثم يُزلقه(١)
منها لبان وأقراب زهاليل
عيرانه(٢) قذفت بالنحض عن عُرض
مرفقها عن بنات الزور مفتول
كأنما فات عينيها ومَذبَحُها
من خطمها(٣) ومن اللَّحيين برطيل
تمر مثل عسيب(٤) النحل ذا خُصل
فى غارز لم تخوِّنه الأحاليل
قنواء(٥) فى حُرَّتيها للبصير بها
عِتق مبين وفى الخدين تسهيل
تخدى(٦) على يسرات وهى لاحقة
ذوابل مسُّهُنَّ الأرضَ تحليل

---

(١) يزلقه : يسقطه . اللبان : الصدر . الأقراب : الخواصر . الزهاليل : الملس .

(٢) العيرانة : الناقة المشبهة غير الوحش فى سرعته ونشاطه وصلابته . النحض : اللحم . عرض : جانب . الزور : الصدر . بنات الزور : ما يتصل به مما حوله من الأضلاع وغيرها .

(٣) الخطم : الأنف . اللحيان : العظمان اللذان تنبت عليهما الأسنان السفلى من الإنسان وغيره . البرطيل : حجر مستطيل .

(٤) عسيب النخل : جريده الذى لم ينبت عليه الخوص ، ذا خصل : يريد ذيلا له لفائف من الشعر . فى غارز . أى على ضرع . لم تخونه : لم تنقصه . الأحاليل : مخارج اللبن .

(٥) القنواء : المحدودبة الأنف . الحرتان : الأذنان . العتق : الكرم . المبين : الظاهر . تسهيل : سهولة ولين .

(٦) تخدى : تسرع . اليسرات : القوائم الخفاف . الذوابل : جمع ذابل وهو الرمح الصلب اليابس تحليل : قليل لم يبالغ فيه .

سُمر العُجايات(١) يتركن الحصى زِيَما
لم يقهن رءوسَ الأكم تنعيل
كأن أوبَ(٢) ذراعيها وقد عرِقَت
وقد تلفَّع بالقُور العساقيل
يوما يظل به الحِرباء(٣) مصطخدا
كأن صاحِيةً بالشمس مملول
وقال للقوم حاديهم(٤) وقد جعلت
وُرق الجنادب يركضن الحصى قيلوا
شد النهار(٥) ذراعا عَيطل نصَف
قامت فجاوبَها نُكد مَثاكيل

---

(١) العجايات : الأعصاب المتصلة بالحافر . زيما : متفرقا . الأكم : الأراضى المرتفعة . التنعيل : شد النعل على ظفر الدابة ليقيها الحجارة .

(٢) الأوب : سرعة التقلب والرجوع . تلفع : اشتمل والتحف . القور : جمع قارة ، وهى الجبل الصغير . العساقيل : السراب .

(٣) الحرباء : ضرب من العظاء ، يستقبل الشمس حيثما دارت ، ويتلون بألوان الأمكنة التى يحل فيها . مصطخدا : محترقا بحر الشمس . ضاحيه : ما برز للشمس منه . مملول : موضوع فى الملة ، وهى الرماد الحار .

(٤) الحادى : السائق للإبل . الورق : الأخضر الذى يضرب إلى السواد . الجنادب : ضرب من الجراد . يركضن الحصى : يحركنه بأرجلهن لقصد النزول ، بسبب الإعياء عن الطيران من شدة الحر . قيلوا : استريحوا .

(٥) شد النهار : وقت ارتفاعه . العيطل : الطويلة . النصف : المتوسطة فى السن ، النكد : التى لا يعيش لها ولد . المثاكيل : الكثيرة الثكل .

نواحة رخوة الضَّبعين[١] ليس لها
لما نعَى بِكرها الناعون معقول
تفرى[٢] اللَّبان بكفَّيها ومِدرعها
مشقق عن تراقيها رعابيل
تسعى الغُواة[٣] جنابَيها وقولهم
إنك يا بن أبى سُلْمى لمقتول
وقال كل صديق كنت آمله[٤]
لا أُلهينَّك إنى عنك مشغول
فقلت خَلوا سبيلى[٥] لا أبا لكم
فكل ما قَدَّر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
يوما على آلة حدباء[٦] محمول
نُبئت أن رسول الله أوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول

---

(١) رخوة الضبعين : مسترخية العضدين . البكر : أول الأولاد . الناعون : المخبرون بالموت ، النادبون له . المعقول هنا : العقل .
(٢) تفرى : تقطع . اللبان : الصدر . المدرع : القميص . رعابيل : قطع متفرقة .
(٣) الغواة : المفسدون ، جنابيها : حواليها . مقتول : أى متوعد بالقتل . لأن النبى ﷺ كان قد أهدر دمه .
(٤) آمله : أؤمل خيره وأترجى إعانته فى الملمات .
(٥) خلوا سبيلى : اتركوه . لا أبا لكم : مدح لهم على سبيل التهكم والاستهزاء .
(٦) الآلة الحدباء : النعش الذى يحمل عليه الميت .

مهـلا هـداك الـذى أعطـاك نافـــ
ـلة القـرآن فيها مواعيـظ وتفصيـــل
لا تأخذنّــى بأقــوال الــوشاة ولم
أذنب ولـو كثرت فـىّ الأقاويـل[١]
لقـد أقـوم[٢] مقامـا لـو يقـوم بـه
أرى وأسمع مـا لـو يسمـع الفيـــل
لَظـلّ يرعـد إلا أن يكــون لـــه
مـن الـرسول بـإذن الله تنويـــل
حتـى وضعت يمينـى مـا أنازعـــه
فى كـف ذى نقمـات قيلـهُ القيـــل
فلهـو أخـوف عنـدى إذ أكلمـــه
وقيـل إنك منسوب[٣] ومسئـول
من ضيغم[٤] بضراء الأرض مُخـدره
فى بطـن عثَّـر غيـل دونـه غيـــل

(١) هذا البيت من تتمة الاستعطاف والتلطف فى القول . فلا وإن كانت ناهية بحسب وضعها . لكن المراد منها التضرع والتذلل ، والمعنى : لا تستبح دمى بسبب أقوال الوشاة الساعين بينى وبينك بالإفساد والكذب والبهتان .

(٢) لقد أقوم : معناه : والله لقد أقوم مقاما ، فهو جواب مقسم محذوف . ويروى : « أنى أقوم مقاما ، والأولى أبلغ للقسم . والمقام هنا مجلس النبى . والمراد باالقيام فيه حضوره والمعنى على المضى أى لقد حضرت مجلسا .

(٣) منسوب : أى إلى أمور صدرت منك . مسئول : أى عن سببها .

(٤) ضيغم : أسد . ضراء الأرض : الأرض التى فيها شجر . المخدر : غابة الأسد . عثر : اسم مكان مشهور بكثرة السباع . الغيل : الشجر الكثير الملتف .

يغدو(١) فيلحم ضرغامين عيشهما
لحم من الناس معفور خراديل
إذا يساور(٢) قِرنا لا يحلّ له
أن يترك القِرن إلا وهو مفلول
منه تظلّ سباع الجو(٣) نافرة
ولا تمشّى بواديه الأراجيل
ولا يزال بواديه أخو ثقة(٤)
مُضَرَّج البز والدرسان مأكول
إن الرسول لنور يُستضاء به
مُهنَّد من سيوف الله مسلول
فى عصبة(٥) من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لمَّا أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس(٦) ولا كُشُف
عند اللقاء ولا ميل معازيل

---

(١) يلحم : يطعمها اللحم . الضرغام : الأسد ويريد بالضرغامين شبليه . معفور : ملقى فى العفر ، وهو التراب . خراديل : قطع صغار .

(٢) يساور : يواثب . القرن : المقاوم فى الشجاعة . المغلول : المكسور المهزوم .

(٣) نافرة : بعيدة . الأراجيل : الجماعات من الرجال .

(٤) مضرج : مخضب بالدماء . البز : السلاح . الدرسان : أخلاق الثياب .

(٥) زولوا : تحولوا وانتقلوا من مكة إلى المدينة .

(٦) الأنكاس : جمع نكس وهو الرجل الضعيف . الكشف : جمع أكشف ، وهو الذى لا ترس مَعه . الميل : جمع أميل . وهو الذى لا سيف له . المعازيل : الذين لا سلاح معهم .

شُمٌّ(١) العـرانين أبطـال لَبوسُهـم
من نَسجِ داود فى الهيجا سرابيل
بيض(٢) سوابغ قد شُكَّت لها حَلق
كأنها حَلق القعفاء مجدول
ليسوا مفاريح(٣) إن نالت رماحهم
قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
يمشون مشى الجمال الزهر(٤) يعصمهم
ضرب إذا عرّد السود التنابيل
لا يقع الطعن(٥) إلا فى نحورهم
وما لهم عن حياض الموت تهليل

ولما أنشده :

إنّ الرسول لنور يُستضاء به
مُهنَّد من سيوف الله مسلول

---

(١) شم : جمع أشم . وهو الذى فى قصبة أنفه علو ، مع استواء أعلاه . العرانين : جمع عرنين ، وهو الأنف . اللبوس : ما يلبس من السلاح . نسج داود : أى منسوجه وهو الدروع . الهيجا : الحرب . السرابيل : جمع سربال . وهو القميص أو الدرع .

(٢) السوابغ : الطوال السوابل . شكت : أدخل بعضها فى بعض . القعفاء : ضرب من الحسك . مجدول : محكم الصنعة .

(٣) مفاريح : كثيرو الفرح . نالوا : أصابوا . مجازيع : كثيرو الجزع .

(٤) الزهر : البيض . يعصمهم : يمنعهم . عرد : فر . التنابيل : جمع تنبال ، وهو القصير .

(٥) وقوع الطعن فى نحورهم : دليل على أنهم لا ينهزمون حتى يقع الطعن فى ظهورهم . حياض الموت : موارد الحتف . تهليل : تأخر .

ألقى عليه بردة كانت عليه . ولما قال كعب ، « إذا عرّد السود التنابيل » قال الأنصار :

— إنما يريدنا معشر الأنصار لما كان صاحبنا صنع به ما صنع .

وأحس رسول الله — ﷺ — أن كعبا خص المهاجرين من قريش من أصحابه بمدحته ، وأن الأنصار غضبت عليه فقال له :

— لولا ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل .

فقال يمدح الأنصار :

من سره كرم الحياة فلا يزل
في مقنب من صالحي الأنصار(١)

ورثوا المكارم كابرا عن كابر
إن الخيار هم بنو الأخيار

المكرهين السَّمهريَّ بأذرع
كسوالف الهندى غير قصار(٢)

والناظرين بأعين محمرة
كالجمر غير كليلة(٣) الأبصار

والبائعين نفوسهم لنبيهم
للموت يوم تعانق وكرار

---

(١) المقنب : الجماعة من الخيل .

(٢) السمهرى : الرمح . سوالف الهندى : حواشى السيوف .

(٣) كليلة : ضعيفة .

والقائدين الناس عن أديانهم
بالمشرفى[1] وبالقنا الخَطَّار
يتطهرون يرونه نسكا لهم
بدماء من علقوا من الكفار
دربوا كما دربت ببطن خفية
غلب الرقاب من الأسود ضوارى
وإذا حللت ليمنعوك إليهم
أصبحت عند معاقل الأعفار
ضربوا عليًّا[2] يوم بدر ضربة
دانت لوقعتها جميع نزار
لا يعلم الأقوام علمى كلَّه
فيهم لصدقنى الذين أمارى[3]
قوم إذا خوَت[4] النجوم فإنهم
للطارقين النازلين مقارى[5]
فى الغر من غسان من جرثومة[6]
أعيت محافرها على المنقار

---

(١) الأعفار : جمع عفر وهو ولد الوعل . ويضرب المثل بامتناع أولاد الوعول فى قلل الجبال .

(٢) عليا : يريد على بن مسعود بن مازن الغسانى .

(٣) أمارى : أجادل .

(٤) خوت : خفيت وأظلمت .

(٥) مقارى : مكرمين . (٦) الجرثومة : الأصل .

٢٦

استقبل رسول الله ـ ﷺ ـ الصباح فأخذ يدعو :

ـ أصبحنا وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والجلال والخلق والأمر والليل والنهار وما يسكن فيها لله عز وجل وحده لا شريك له .

اللهم اجعل أول يومى هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وأخره نجاحا . اللهم إنى أسألك خير الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين . اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتنا ما تبلغنا به رحمتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا . اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا واجعله الوارث منا ، وانصرنا على من ظلمنا ، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا .

وخرج رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أصحابه منشرح الصدر فرأى صهيبا يأكل رطبا وكان بإحدى عينيه رمد ، فقال له الرسول عليه السلام مداعبا :

ـ أتأكل الرطب وفى عينيك رمد .

فقال صهيب :

ـ وأى بأس ! إنى آكله بعينى الأخرى .

ولقى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ معاذ بن جبل . فقال له :

ـ كيف أصبحت ؟

ـ أصبحت مؤمنا حقا يا رسول الله .

ـ إن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟

— ما أصبحت صباحا قط إلا ظننت أنى لا أمسى ، ولا أمسيت مساء إلا ظننت أننى لا أصبح ، ولا خطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها غيرها ، وكأنى أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها ، وكأنى أرى أهل الجنة ينعّمون وأهل النار فى النار يعذّبون .

— عرفت فالزم .

كان معاذ شديد الأدمة[١] ، حلو المنطق وضيء ، ينهل العلم من رسول الله — ﷺ . إذا تكلم كأنما يخرج من فمه نور ولؤلؤ ، تعمق فى الفقة حتى إن رسول الله — ﷺ — قال عنه :

— أعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ بن جبل .

ودنا أبو ذر من رسول الله — ﷺ — ينهل من علمه ، فقال عليه السلام :

— يا أبا ذر كيف أنت إذا أدركت أمراء يستأثرون بالفيء ؟

— إذاً والذى بعثك بالحق لأضربن بسيفى .

— أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ اصبر حتى تلقانى .

واستأثر معاوية بالفيء وراح أبو ذر يقود ثورة تنادى بتوزيع المال على المسلمين كافة ، ثورة عارمة لم يُمتشق فيها سلاح امتثالا لوصية نبيه بأن يصبر حتى يلقاه .

وأتى إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — رجل من الأنصار يسأله ، فقال :

— أما فى بيتك شيء ؟

---

(١) الأدمة : لون مشرب سوادا .

— بلى ، حلس[1] نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء .

— ائتنى بهما .

فأتاه بهما فأخذهما — ﷺ — بيده وقال :

— من يشترى هذين ؟

قال رجل :

— أنا آخذهما بدرهم .

قال رسول الله — ﷺ — :

— من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثا ؟

قال رجل :

— أنا آخذهما بدرهمين .

فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصارى وقال :

— اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوما فأتنى به .

فأتاه به فشد فيه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — عودا بيده وقال :

— اذهب فاحتطب وبع . هذا خير لك من أن تجىء المسألة نكتة[1] فى وجهك يوم القيامة .

وجاء أبو الدرداء إلى حبيبه الرسول وراح يروى له ما كان بينه وبين سلمان الفارسى فى أمسه ، وكانا ممن آخى بينهما — صلوات الله وسلامه عليه . قال أبو الدرداء :

---

(١) الحلس : فراش يبسط فى البيت أو يوضع على الرحل ، وكان العرب يلتحفون به أحيانا .

(٢) نكتة : وصمة .

— دخل سلمان بيتى فوجد امرأتى أهملت نفسها فقال لها : « ما شأنك ؟ » قالت : « أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا » ، فجاءنى فصنع لى طعاما : فقال : « كل » . فقلت : « إنى صائم » . قال : « ما أنا بآكل حتى تأكل » . فأكلت . فلما كان الليل ذهبت أقوم قال : « نم » فنمت . ثم ذهبت أقوم قال : « نم » فلما كان آخر الليل قال : « قم الآن » . فصلينا فقال : « إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه » .

فقال رسول الله — ﷺ :

— صدق سلمان .

وراح حسان بن ثابت ينشد رسول الله — ﷺ — شعره والرسول عليه السلام يحسن استماعه ولا يشتغل عنه بشىء ، وعمرو بن العاص وأبو سفيان ابن الحارث ومن كانوا ينازلونه بألسنتهم من شعراء قريش قبل أن يشرح الله قلوبهم للإسلام يصغون إليه ويتمنون فى قرارة أنفسهم لو أنهم كانوا المنافحين عن دين الله مذ أول يوم وقف فيه محمد عليه السلام على الصفا يدعو قومه إلى الإسلام .

كان عمرو بن العاص مطرقا لا يرفع عينيه إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — هيبة وخجلا مما كان فى سالف الزمان ، وكان ابن عمه أبو سفيان بن الحارث يكثر من إنشاد الشعر فى مدح رسول الله عليه السلام لعله يكفر عما كان من هجوه ويرجو من كل قلبه لو أن ما قاله من قدح تمحوه يد النسيان » .

وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف فى مكان الصفق ، إنهم من تجار قريش وإنهم ليعرفون كيف يكتسبون الأموال . ولم يكن الذهب

والفضة غرضهم بل كانوا على يقين أن دعوة الله فى حاجة إلى إنفاق وأن إخوانهم الفقراء فى حاجة إلى ما يمسك الرمق(١) ، فكانوا ينفقون ما يربحون فى سبيل الله ويتصدقون على المساكين ثم ينامون على الطوى ، يعيشون على خبز الشعير أو التمر فقد كان لهم فى رسول الله أسوة حسنة ، وإن الرسول عليه السلام قد علمهم حقيقة الزهد لما قال :

ـــ ليست الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة أن تكون بما فى يد الله تعالى أوثق منك بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك ، لأن الله تعالى يقول : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »(٢) .

وقام رسول الله عليه السلام ليذهب لزيارة إبراهيم الحبيب فركب حماره ، وقبل أن ينطلق رأى عبد الله بن عباس فأردفه خلفه وسار إلى العالية ، وأخذ يزجى نصائحه إلى ابن العباس قال :

ـــ يا غلام احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة . إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك . جفت الأقلام وطويت الصحف ! فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا . واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا . ولن يغلب عسر يسرين » .

---

(١) الرمق : بقية الروح . (٢) الحديد ٢٣ .

ودخل رسول الله ﷺ — مشربة أم إبراهيم فألفى إبراهيم عندها وهى تناجيه فى فرح ، فقد جاءت به مرضعته أم سيف ليمضى سحابة نهاره عند مارية ، فأحس الرسول عليه السلام رقة وحنانا فذهب إلى إبراهيم وحمله فى حب وأخذ يقبله والرحمة تتدفق من كنوز قلبه الكبير . وداعب عبد الله بن عباس إبراهيم ، وراح الوقت يمر ورسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يستشعر سعادة تبدد ما ألفه من حزن .

وعاد رسول الله — ﷺ — إلى مسجده ، إنه لا ينفك يذكر الله ويدعوه ويستغفره .

— رب اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى كله وما أنت أعلم به منى .

اللهم اغفر لى خطاياى وعمدى وجهلى وهزلى وكل ذلك عندى .

اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شىء قدير .

وقضيت صلاة العشاء وذهب الناس إلى دورهم . ودخل رسول الله — ﷺ — خباءه وراح يصلى فى خشوع حتى إذا ما تعبت قدماه أخذ يناجى ربه ويتضرع إليه :

— اللهم لك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد . أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد . أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد . أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك الحق وقولك الحق . والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق . اللهم لك أسلمت ولك آمنت ، وعليك توكلت وإليك أنبت ، وبك خاصمت وإليك حاكمت . فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله .

٢٧

كان الحارث بن أبى الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق ، وكان يرى بزوغ نجم الإسلام فيحس كمدا فاشتداد ساعد الدين الجديد يهدد آلهة القوم ويسفه معتقدات الآباء وينذر بانضواء القبائل الحرة التى تعيش بلا قيود تحت لواء يثرب ، وخاف الحارث على زعامته فجمع بنى المصطلق لحرب رسول الله ـــ ﷺ ، فلما سمع رسول الله ـــ ﷺ ـــ بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل .

وتزاحف الناس : المسلمون يقاتلون لإعلاء كلمة الله ، وبنو المصطلق يدافعون عن مجد الأرض وعصبية القبيلة وإن كانوا يخدعون أنفسهم ويوهمونها أنهم إنما يقاتلون لتكون كلمة مناة هى العليا وليستمر سلطان بنات الله على الأرض .

وهزم الله بنى المصطلق وقتل من قتل منهم ، ونفل الله رسول الله ـــ ﷺ ـــ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه ، فلما قسم رسول الله ـــ ﷺ ـــ سباياهم وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس فكاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله ـــ ﷺ ـــ تستعينه فى كتابتها ، فوالله ما هو إلا أن رأتها عائشة على باب حجرتها فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ـــ ﷺ ـــ ما رأت ، فدخلت عليه فقالت :

ـــ يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه ، وقد

أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس فكاتبته على نفسى ، فجئتك أستعينك على كتابتى .

إنها كانت بنت سيد بنى المصطلق وقد أصاب منهم سبيا كثيرا ، وكان عليه السلام يبذل كل جهد لفك الرقاب وتحرير العبيد . إنه لو تزوج جويرية فسيطلق المسلمون ما فى أيديهم من سبايا إكراما لها ، فقال لجويرية :

— فهل لك فى خير من ذلك ؟

— وما هو يا رسول الله ؟

— أقضى عنك كتابتك وأتزوجك .

— نعم يا رسول الله .

— قد فعلت .

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله — ﷺ — تزوج جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار فقال الناس :

— أصهار رسول الله — ﷺ .

وأرسلوا ما بأيديهم فأعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، وانشرح صدر رسول الله — ﷺ — فقد تحررت رقاب رجال ونساء وولدان ، وإن أحب شىء إليه كان عتق الأرقاء فما بالك بأحرار عادت إليهم حريتهم بعد أن كادوا فى ذل الرق يرسفون ؟ وتهللت جويرية بالفرح فما كانت امرأة أعظم على قومها بركة منها .

ولما انصرف رسول الله — ﷺ — من غزوة بنى المصطلق ومعه جويرية بنت الحارث وكان بذات جيش ، دفع جويرية إلى رجل من الأنصار وديعة وأمره بالاحتفاظ بها .

وقدم رسول الله — ﷺ المدينة فأقبل الحارث بن أبى ضرار بفداء ابنته ،

فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التى جاء بها للفداء فرغب فى بعيرين منها فغيبهما فى شعب من شعاب العقيق . ثم أتى إلى النبى — ﷺ — وقال :

— يا محمد أصبتم ابنتي وهذا فداؤها .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق ؟

فرنا الحارث إلى رسول الله — ﷺ — رنوة كلها دهش ، وأحس كأن أنوارا تغمر قلبه وانشرح صدره للإسلام فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله ، فوالله ما اطلع على ذلك إلا الله .

فأسلم الحارث وأسلم معه ابنان له وناس من قومه ، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما فدفع الإبل إلى النبى . وما كان النبى — صلوات الله وسلامه عليه — فى حاجة إلى الإبل وهو الذى يرد على الفقراء كل ما يفيء الله عليه ، إنه يضع تسعين ألف درهم على حصير أمامه فينفقها كلها ثم يمر هلال ثم هلال ولا يوقد فى بيت من بيوته نار . إنه يعيش على الأسودين الماء والتمر .

وأصبحت جويرية بنت الحارث أما للمؤمنين وهو شرف تتيه به بنو المصطلق على القبائل ، ودخل الحارث بن أبى ضرار فى الإسلام وأصبح متفرحا فى الله معجبا بفصاحة رسول الله — ﷺ ، إنه يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من يجلس إليه ، وإنه يحدث حديثا لو عدّه العاد لأحصاه .

وكان إعجاب الحارث بفصاحة رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لا يقل عن إعجاب أبى بكر الصديق رفيق صباه وأول من آمن به من الرجال وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فقد قال له أبو بكر ذات يوم :

— لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن

أدبك ؟

— أدبنى ربى فأحسن تأديبى .

وظل الحارث يلقى سمعه إلى نصائح الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — فلا يزيده ذلك إلا إيمانا وتسليما :

— اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .

شر ما فى الرجل شح هالع ، وجبن خالع . اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم وأستحلوا محارمهم .

كان الحارث سعيدا بقربه من النبى عليه السلام ، إنه ليروى ظمأه إلى المعرفة من نبع الرسول الصافى الرقراق . وقد سمعه يوما يخطب :

— إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون . ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه . ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدرة أعظم من غدرة إمام عاق . ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحس بشىء من ذلك فليلصق بالأرض .

كان حديثه حكمة وكان الحارث يتمنى أن يبقى ما بقى من دهره إلى جواره . ولكنه كان سيد قومه وإنه ليريد لهم الهداية والرشد . إن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — دعاه إلى الإسلام فدخل فى الإسلام وأقر ، ودعاه إلى الزكاة فأقر بها فقال :

— يا رسول الله أرجع إلى قومى فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن

استجابنى جمعت زكاته .

واتفق مع رسول الله — ﷺ — على ميعاد يبعث فيه رسوله ليقبض زكاة بنى المصطلق . ومرت الأيام وجمع الحارث بن أبى ضرار الزكاة من قومه . ووافى الموعد الذى حدده مع رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ليبعث رسوله ليأخذ صدقات قومه ولكن الرسول احتبس عليه فلم يأته . فظن الحارث أن قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله ، فدعا سروات قومه فقال لهم :

— إن رسول الله — ﷺ — قد كان وقت لى وقتا ليرسل إلى ليقبض ما كان عندى من الزكاة ، وليس من رسول الله — ﷺ — خلف . ولا أرى حبس رسوله إلا سخطة فانطلقوا فنأتى رسول الله ﷺ :

وبعث رسول الله — ﷺ — الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق تذكر أن بينه وبين بنى المصطلق عداوة فى الجاهلية ، وراح الشيطان يوسوس له أنهم قاتلوه فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إن الحارث منعنى الزكاة وأراد قتلى .

فغضب رسول الله — ﷺ — وبعث رجالا من المسلمين لقتال بنى المصطلق . وأقبل الحارث بأصحابه فاستقبل البعث وقد فصل من المدينة فلقيهم الحارث فقالوا :

— هذا الحارث .

فلما لقيهم قال لهم :

— إلى من بعثتم ؟

— إليك .

فظهر الدهش فى وجهه وقال :

ـــ ولم ؟

ـــ إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ كان بعث إليك الوليد بن عقبة ، فرجع إليه فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله .

ـــ والذى بعث محمدا بالحق ما رأيته ولا أتانى .

فلما أن دخل الحارث على رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال فى غضب :

ـــ منعت الزكاة وأردت قتل رسولى ؟

فقال الحارث فى صدق :

ـــ لا والذى بعثك ما رأيت رسولك ولا أتانى ولا أقبلت إلا حين احتبس على رسولك خشية أن يكون سخط من الله ورسوله .

فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾(١) .

---

(١) الحجرات ٦ ـــ ٨

٢٨

كان عروة بن مسعود سيد ثقيف ، وكان أمية بن أبى الصلت شاعرهم . وقد تنصر أمية قبل أن يوحى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وقرأ التوراة والإنجيل وألقى سمعه إلى الرهبان الذين كان يمر بهم كلما خرج إلى الشام فى تجارة قريش . فقد كانت ثقيف حليفة قريش ، ولا غرو فأم عروة بن مسعود سبيعة بنت عبد شمس ، وأم أمية بن أبى الصلت رقية بنت عبد شمس . وسمع أمية من الأحبار والرهبان أن نبيا قد أظل زمانه فكان يحدث عروة ونساء ثقيف أنه ذلك النبى الذى بشرت به الأنبياء .

واصطفى الله محمدا ليكون رسوله الأمين ، فلما دعا قومه إلى الإسلام نهشت الغيرة أفئدة سادات قريش وقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »(١) . كانوا يرون وقد ملئوا حسدا أن عتبة بن ربيعة أو عروة بن مسعود أحق بالرسالة من فقير قريش وإن كان أمينا وإن كان على خلق عظيم .

ودخل أمية بن أبى الصلت ما يدخل الناس من النفاسة وبقى عروة بن مسعود على دين قومه ، واضطهدت قريش المسلمين وعذبوهم ليفتنوهم عن دينهم ولكن المسلمين صمدوا للاضطهاد ، وأراد الله أن يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون ففتح بالقرآن قلوب الأنصار فهاجر المسلمون إلى

---

(١) الزخرف ٣١ .

إخوان لهم فى الدين ، وكانت غزوة بدر وقتل رجل من القريتين عظيم ، وبقى عروة بن مسعود يرصد بزوغ نجم محمد — صلوات الله وسلامه عليه — وهو يتأرجح بين الشك واليقين ، ومال إلى التكذيب لما رأى أن زعامته لثقيف ستتزعزع لو أنه اتبع النور الذى أشرق فى يثرب .

وكان أمية بن أبى الصلت قد خرج إلى الشام وعكف على قراءة الأسفار ، فإذا بصوت ضميره يقول فى إصرار كلما فكر فى محمد بن عبد الله : « إن صفته لهى » . فشد الرحال إلى المدينة ليشهد شهادة الحق فعلم أن رسول الله هناك فى بدر . فامتطى راحلته حتى نزل بدرا ثم ترجل يريد رسول الله — ﷺ — فقال قائل :

— يا أبا الصلت ما تريد ؟

— أريد محمدا .

— وما تصنع ؟

— أومن به وألقى إليه مقاليد هذا الأمر .

— أتدرى من فى القليب ؟

— لا .

— فيه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة .

وكانا ابنى خاله ، فجدع أذنى ناقته وقطع ذنبها ثم وقف على القليب يرثى من فيه ، ثم رجع إلى مكة والطائف ومالبث أن مات . فلم يشأ الله له الهداية ولحق بابنى خاله عتبة بن ربيعة وبقى على قيد الحياة عروة بن مسعود لتكون مشيئة الله فيه .

ومرت الأحداث وخرج رسول الله — ﷺ — والذين معه إلى الحديبية معتمرا لا يريد حربا ، وبعثت قريش الرسل إلى نبى الإسلام عليه السلام .

فلما عاد الرسل بما لا يحبون أغلظوا لهم القول ، ثم أرادوا أن يبعثوا إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — عروة بن مسعود فقال :

— يا معشر قريش إنى قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد . وقد سمعت بالذى نابكم فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى .

— صدقت ما أنت عندنا بمتهم .

فخرج حتى أتى رسول الله — ﷺ — فجلس بين يديه ثم حدثه وهو مبهور بما يرى ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال :

— يا معشر قريش إنى قد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا .

وحفر ما رآه عروة من أصحاب رسول الله من تبجيل للرسول العظيم فى ذاكرته ؛ إنه ليذكر ما كان من أصحابه عند الحديبية فيفكر فى ذلك الأمر الذى جاءهم به فألف بين قلوبهم وبث فيهم روحا جديدة لكأنما قد خلقوا من جديد !

ولم يشهد عروة بن مسعود حنينا ولا حصار الطائف ، كان بمدينة جُرَش يتعلم صنعة الدبابات والمجانيق فقد كانت أحدث وسائل القتال ، وكان سيد ثقيف يريد ألا يفوته فن من فنون الحصار ودك الحصون .

وانصرف رسول الله — ﷺ — عن ثقيف وقد قتل بعض أصحابه عند حصونها . فلما عاد عروة بن مسعود وسمع بما كان من قتال بين المسلمين وبين ثقيف أحس ندما . فلو كان بالطائف لأعلن إسلامه ولكفى الله المؤمنين القتال

فقد انشرح صدره للإسلام ونزل فؤاده أنوار اليقين .

ولم يشأ عروة بن مسعود أن يستريح بل راح يغذ السير ليدرك رسول الله — ﷺ — قبل أن يصل إلى المدينة ، فراح يسرى فى معبد الله يرى فى شروق الشمس وغروبها وبزوغ القمر وتألق النجوم آيات قد عميت عنها بصيرته من قبل ، وكان القرآن المجيد قد فتح قلبه فإذا بصوت رقيق يرتل فى أعماق نفسه : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت . فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر . إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر . إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم »[(١)] فأحس بدموع تطفر إلى مآقيه ثم تسيل لتبلل لحيته .

وأدرك عروة بن مسعود رسول الله — ﷺ — قبل أن يصل إلى المدينة فأعلن إسلامه وهو متفرح فى الله . كل ما حوله يتنفس بذكر الله ، فحفيف الشجر تسبيح ، وهبوب النسيم ابتهالات . وشروق الشمس صلاة . إنه أصبح يستشعر أن الله يسرى فيه مسرى الدم ، وأنه يمتلىء بفرح فياض وهو إلى جوار رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه .

وشارك عروة بن مسعود المسلمين غبطة الصلاة خلف رسول الله — ﷺ — والإصغاء إليه والنهل من نبع علمه وصحبته التى ملأت فؤاده بالأنوار . ووجد عروة أن عليه أن يدعو قومه إلى الإسلام فسأل رسول الله — ﷺ — أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله — ﷺ — وقد عرف فيهم نخوة الامتناع :

---

(١) الغاشية ١٧ — ٢٦

— إنهم قاتلوك .

— يا رسول الله . أنا أحب إليهم من أبصارهم .

فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم ، فلما أشرف على عِلية له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه . رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم ، فحمل وهو يجود بأنفاسه الطاهرة فقيل له :

— ما ترى فى دمك ؟

— كرامة أكرمنى الله بها وشهادة ساقها الله إلَّى ، فليس فىَّ إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله — ﷺ — قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنونى معهم .

واستشهد رجل من القريتين عظيم .

٢٩

كان الهدوء يرفرف على المدينة ومكة بعد أن ساد الإسلام والسلام ، وعرفت تجارة قريش طريقها إلى الشام فى اطمئنان ، وكان بين الوقت والآخر تخرج من المدينة سرية لتأديب من يكيدون للإسلام من القبائل المجاورة أو لهدم صنم من الأصنام ليعبد الله وحده فى أرض العرب .

لما قُتل وقاص بن مجزِّز المُدلجى يوم ذى قَرَدَ سأل علقمة بن مجزز رسول الله ـ ﷺ ـ أن يبعثه فى آثار القوم ليدرك ثاره فيهم ، فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ علقمة وبعض المسلمين ليثأروا لوقاص ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق أذن لطائفة من الجيش واستعمل عليهم عبد الله بن حذافة السهمى ، وكان من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وكانت فيه دعابة ، فلما كان ببعض الطريق أوقد نارا ثم قال للقوم :

ـ أليس لى عليكم السمع والطاعة ؟

ـ بلى .

ـ أفما أنا آمركم بشىء إلا فعلتموه ؟

ـ نعم .

ـ فإنى أعزم عليكم بحقى وطاعتى إلا تواثبتم فى هذه النار .

فقام بعض القوم يحتجز حتى ظن أنهم واثبون فيها ، فقال لهم :

ـ اجلسوا فإنما كنت أضحك معكم .

فذكر ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ بعد أن قدموا عليه ، فقال ـ ﷺ :

ـــ من أمركم بمعصية منهم فلا تطيعوه .

وبعث رسول الله ـــ ﷺ ـــ على بن أبى طالب فى خمسين ومائة من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرسا لهدم صنم طىء ، فخرج على كرم الله وجهه ومعه راية سوداء ولواء أبيض . وفى عماية الصبح شن المسلمون الغارة على طىء فهدموا الفلس وأحرقوه واستاقوا النعم والشاة والسبى . وكان فى السبى سفانة بنت حاتم الطائى وأخت عدى بن حاتم ، ووجدوا فى خزانة الصنم ثلاثة أسياف معروفة عند العرب وهى رسوب والمخذم واليمانى ، وثلاثة أدرع . وجعل على بن أبى طالب الرسوب والمخذم صفيا لرسول الله ـــ ﷺ ـــ ثم صار إليه الثالث الذى هو اليمانى . وعاد على بالنعم والشاة والسبى المدينة ، وجاء النبى ـــ ﷺ ـــ ينظر فمر بسفانة بنت حاتم فقامت إليه وكانت امرأة ذات وقار وعقل فقالت له ـــ ﷺ :

ـــ يا محمد أرأيت أن تخلى عنا ولا تشمت بنا أحياء العرب فإنى ابنة سيد قومى ، وإن أبى كان يحمى الذمار ويفك العانى ويشبع الجائع ويكسو العارى ويقرى الضيف ويطعم ويفشى السلام و لم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم طيىء .

فقال لها النبى ـــ ﷺ :

ـــ يا جارية هذه صفات المؤمنين حقا . لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه . خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق .

وأسلمت سفانة وأرادت أن تعود إلى بلادها ، فقال لها رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ لا تعجلى حتى يجىء من قومك من يكون لك ثقة يبلغك إلى بلادك فأذنينى .

فصبرت حتى قدم عليها من تثق به ، فجاءت رسول الله — ﷺ — فقالت :

— قدم رهط من قومى لى فيهم ثقة .

فكساها رسول الله — ﷺ — وحملها وأعطاها نفقة ، فخرجت وهى مغتبطة لأن الله قد هداها إلى الإسلام . و لم تعد إلى طيىء بل انطلقت إلى الشام لتلقى أخاها عدى بن حاتم الذى فر إلى هناك لما رأى جيش المسلمين . إنها تحب عدى وإنها تحب له الهداية والرشاد .

كان عدى بن حاتم رجلا شريفا فى قومه يأخذ ربع الغنيمة كما هو عادة العرب فى الجاهلية . فلما سمع برسول الله — ﷺ — كرهه . ما من رجل من العرب كان أشد كراهة لرسول الله — ﷺ — حين سمع به منه ، فقال لغلام كان راعيا لإبله :

— لا أبا لك اعزل من إبلى أجمالا ذللا سمانا فاحتبسها قريبا منى ، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطىء هذه البلاد فأذنى .

ففعل ، ثم إنه أتاه ذات يوم فقال :

— يا عدى ما كنت صانعا إذا غشيك محمد فاصنعه الآن ، فإنى قد رأيت رايات سألت عنها قالوا : هذه جيوش محمد .

قال له :

— قرب لى جمالى .

فقربها فاحتمل أهله وولده والتحق بأهل دينه من النصارى فى الشام وترك سفانة أخته لتقع أسيرة فى أيدى المسلمين . وإنه لقاعد فى أهله إذ نظر إلى امرأة تؤمهم فقال :

— ابنة حاتم ؟!

فإذا هى ، فلما وقعت عيناها عليه قالت :

— القاطع الظالم . احتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والديك وعورتك .

— أى أخية لا تقولى إلا خيرا ، فوالله ما لى من عذر .

ونزلت سفانة عليه وأقامت عنده ، فقال لها وكانت امرأة حازمة :

— ماذا ترين فى أمر هذا الرجل ؟

— أرى والله أن تلحق به سريعا ، فإن يكن نبيا فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فأنت أنت .

ولم تظهر له إسلامها لئلا ينفر من قولها ، كان كل ما تبغيه أن ينطلق عدى إلى رسول الله — ﷺ — وكانت على ثقة من أنه ما أن يجلس بين يديه حتى يصدقه .

فخرج عدى حتى جاءه — ﷺ — بالمدينة . فدخل عليه فقال عليه السلام :

— من الرجل ؟

— عدى بن حاتم .

فقام رسول الله — ﷺ — وانطلق به إلى بيته ، فوالله إنه لقائده إليه إذ لقيته امرأة كبيرة ضعيفة فاستوقفته — ﷺ — فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها ، فقال عدى فى نفسه :

— ما هو بملك .

ثم مضى رسول الله — ﷺ — حتى إذا دخل بيته تناول وسادة بيده من أدم محشوة ليفا ، فقدمها إليه وقال :

— اجلس على هذه .

— بل أنت فاجلس عليها .

— بل أنت .

فجلس عدى عليها وجلس رسول الله عليه السلام بالأرض ، فقال عدى في نفسه :

— والله ما هذا بأمر ملك .

— يا عدى بن حاتم أسلم تسلم . أسلم تسلم . أسلم تسلم .

— إنى على دين .

— أنا أعلم بدينك منك .

— أنت أعلم بدينى ؟!

— نعم ، ألست من الركوسية ؟ ألست من القوم الذين لهم دين ؟

— بلى .

— ألم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ (أخذ الربع من الغنيمة) ؟

— بلى .

— فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك .

— أجل والله .

وعرف أنه نبى مرسل يعلم ما يُجهل . ثم قال — ﷺ :

— لعلك يا عدى إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ما ترى . تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له ، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، وإنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم . أتعرف الحيرة ؟

— لم أرها وقد سمعت بها .

ـــ فو الذى نفسى بيده ليتمن هذا الأمر حتى تخرج الظعينة (المرأة) من الحيزة تطوف بالبيت من غير جوار أحد .

وألقى عدى بن حاتم سمعه إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فإذا بأنوار اليقين تنزل قلبه وقد شرح الله صدره للإسلام . فلم يقم من عنده حتى شهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله .

٣٠

كانت المعارك طاحنة بين الفرس والروم ، وقد انتهت تلك المعارك بانتصار الروم وعودة هرقل إلى بيت المقدس وإعادة الصليب المقدس إلى كنيسة القيامة . وقد جاءت أنباء انتصارات الروم إلى المسلمين يوم انتصارهم فى بدر فتهللوا بالفرح ، فقد تنبأ القرآن المجيد بذلك النصر فى وقت كانت فيه هزيمة الروم ساحقة وقد وقف الفرس يقرعون أبواب القسطنطينية وهم بنصرهم مزهوون .

ومرت الأيام وبعث رسول الله ـــ ﷺ ـــ دحية الكلبى برسالة إلى هرقل عظيم الروم يدعوه فيها إلى الإسلام ، فاستقبل هرقل دحية استقبالا حسنا وقال قولا سديدا ، وأرسل معه هدايا للنبى الأمى الذى يجده مكتوبا عنده فى التوراة والإنجيل .

وفتح رسول الله ـــ ﷺ ـــ مكة ففازت بلاد العرب بالوحدة السياسية لأول مرة فى تاريخها مذ أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وسرى الإلهام الدينى فى سرائر المسلمين فإذا برعاة الإبل الخاملين أصبحت لهم رسالة يتطلعون إلى نشرها فى العالمين .

إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ ليعد أتباعه بمدائن كسرى وقصور الحيرة والشام ، وإن هذه الأنباء لتصل إلى هرقل من أعداء محمد عليه السلام فيستخف بها فى أول الأمر ثم ينتابه قلق كلما اشتد ساعد الإسلام . حتى إذا ما فتح الله على المسلمين مكة ودانت.قبائل العرب المحيطة بالمدينة بالولاء للدين

الجديد تذكر هرقل النبوءة التى أحزنته عقب أن وضع على رأسه تـاج الإمبراطورية الرومانية ، فقد تنبأ المنجمون أن ملكه سيزول على يد شعب مختون ، فما خطر له العرب على قلب فى ذلك الوقت فقد كانوا أهون من أن يفكر فيهم ، وحسب أن اليهود هم ذلك الشعب فصب عليهم سوط عذاب .

وانبلجت لعينيه حقيقة النبوءة ، فكل الدلائل تشير إلى أن ذلك الشعب الذى يهدد ملكه هم هؤلاء المؤمنون الذين انضووا تحت لواء محمد ، وإنه ليعرف خطورة الانتفاضة الروحية التى خفقت فى قلب جزيرة العرب . إنها لو تركت حتى تستقر فى سويداء قلوب أتباع الدين الجديد فلن تستطيع دولة أت تقف زحف المؤمنين ، فوطد النفس على أن يسحق هذه النهضة قبل أن يشتد عودها .

وبلغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة فى الشام وأنهم قدموا مقدماتهم إلى البلقاء . فلم ينتظر حتى يفاجئه الروم فى المدينة بل أمر الناس بالجهاز على الرغم من شدة الحر وعسرة فى الناس وجدب فى البلاد ، فلو تقاعس ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ عن الخروج لطوت جحافل[1] الرومان الصحراء ولدهمت المسلمين فى المدينـة وقضت على الإسلام .

وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ قلما يخرج فى غزوة إلا كنّى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يقصد له ، إلا ما كان من هذه الغزوة فإنه بيّنها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو ليتأهب الناس لذلك أهبته وأخبرهم أنه يريد الروم .

---

(١) الجحافل : الجيوش الضخمة .

وبعث إلى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم وحض أهل الغنى على النفقة والحمل فى سبيل الله ، فجهز عثمان بن عفان عشرة آلاف أنفق عليها عشرة آلاف دينار غير الإبل والخيل وهى تسعمائة بعير ومائة فرس والزاد وما يتعلق بذلك حتى ما تربط به الأسقية . وسر رسول الله — ﷺ — ما فعل عثمان فوقف من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعا يديه يدعو لعثمان بن عفان يقول :

— اللهم عثمان رضيت عنه فارض عنه .

وكان أول من جاء بالنفقة أبو بكر الصديق ، جاء بجميع ماله أربعة آلاف درهم ، فقال له رسول الله — ﷺ — :

— هل أبقيت لأهلك شيئا ؟

— أبقيت لهم الله ورسوله .

وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، فقال له رسول الله — ﷺ — :

— هل أبقيت لأهلك شيئا ؟

— النصف الثانى .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية فقال الناس :

— عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف خزانتان من خزائن الأرض ينفقان فى طاعة الله .

وجاء العباس بمال كثير وكذا طلحة . وبعثت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهن ، وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقا من تمر .

وذات يوم ورسول الله — ﷺ — فى جهازه لغزو الروم قال للجَدّ بن قيس أحد بنى سَلمة :

— يا جد هل لك فى جلاد بنى الأصفر ؟

إنه عليه السلام يدعوه للغزو حين طابت الثمار والناس يحبون المقام فى

ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه .

فقال الجد :

ـــ يا رسول الله أوتأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشد عُجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر .

فأعرض عنه رسول الله ـــ ﷺ ـــ وراح يدعو الناس للتأهب للخروج فإذا بهم لا ينفرون خفافا فأنزل الله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوأ ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضرّوه شيئا والله على كل شىء قدير * إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم* انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون* عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين * لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين* إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون * ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم

والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون * ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون * قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون * قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون * قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين * وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون * فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون * ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون* لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدَّخلا لولوا إليه وهم يجمحون ﴾(١) .

(١) التوبة ٣٧ ــ ٥٧

التذييل

يعتقد اليهود أن التوراة هى الكتاب المقدس الوحيد . وأنه لم ينزل لهداية البشرية جمعاء بل لشعب الله المختار . فقد قسموا بنى آدم إلى بنى إسرائيل وأمم ـ، فبنو إسرائيل هم وحدهم الناس ومن عداهم أمم ، كلاب البشرية ، و لم يعترف اليهود برسالة المسيح عليه السلام ولا برسالة محمد ﷺ ، فالمسيح وإن كان يهوديا إلا أنه جاء ليسفه أحلام المتجرين بالدين والمحتكرين للبركة وتقويض الهيكل ، لأن اليهود انقلبوا من عبادة الله وحده إلى عبادة الذهب الذى كان فى الهيكل . و لم يعترفوا برسالة محمد ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ لأنه كان من الأمم وكانوا يعتقدون أن الله لا يبعث رسولا إلا من بنى إسرائيل . وقد كذبهم الله فى هذه الدعوى بقوله سبحانه وتعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم »(١) ووجدوا أنهم لو اعترفوا برسالة محمد ــ ﷺ ــ فإنهم يسيئون إلى آبائهم الذين لم يعترفوا برسالة السيد المسيح وقاوموها أشد المقاومة ؛ لأن نبى الإسلام ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ اعترف بالحمل الطاهر للسيدة مريم العذراء وبرسالة عيسى بن مريم عليه السلام .

أما أن الرسالة والنبوة كانت فى بنى إسرائيل وحدهم فإن القرآن الكريم يدحض هذا الزعم ، ولكل أمة

---

(١) الجمعة ٢

رسول »[١] . وهذا الزعم يخرج إبراهيم الخليل من عداد الأنبياء المرسلين فقد كان خليل الرحمن من العراق وقد أرسله الله قبل أن يولد يعقوب (إسرائيل) . والقرآن الكريم يسخر من ذلك القول الباطل ويسفهه : « يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حينفا مسلما وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » (٢).

ونزلت التوراة على موسى عليه السلام ، « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون »[٣] . وبناء على هذه الحقيقة التى تقرها اليهودية والمسيحية والإسلام فإن إبراهيم خليل الرحمن لم يقرأ حرفا من التوراة فقد أنزل الله عليه صحفا كما أنزل على موسى : « إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى »[٤] . ولم ير إسحاق ويعقوب (إسرائيل) التوراة ، فقد نزلت على موسى عليه السلام من بعدهما ، وإن فاضت صحف التوراة التى كتبت فى المنفى بأخبارهما ، وقد جادل اليهود محمدا — ﷺ — فى المدينة فيما أحل لبنى إسرائيل من الطعام وفيما حرم عليهم ، فجاء القرآن ليقرر مرة أخرى أن التوراة قد نزلت بعد إسرائيل وإن حاول اليهود أن ينكروا هذه الحقيقة الواضحة وضوح الشمس : « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين »[٥] .

---

(١) يونس ٤٧ (٢) آل عمران ٦٥ — ٦٨
(٣) القصص ٤٣ (٤) الأعلى ١٨ — ١٩ (٥) آل عمران ٩٣

نزلت التوراة على موسى عليه السلام ، فلما طال على بنى إسرائيل الأمد اعتبروا التوراة كتاب تاريخ يسجل أيامهم وحروبهم وقصص أنبيائهم ، فأضافوا إليه أسفارا وقالوا هذا من عند الله . ولما حارب بنوخذ نصر (بختنصر) بنى إسرائيل وهزمهم شر هزيمة حرق التوارة وحمل اليهود إلى بابل ، وهناك أعيدت كتابة التوراة وأضيفت إليها أسفار جديدة . وقد ظهرت بوضوح أساطير بابل وآداب مصر الفرعونية فى التوراة الجديدة التى كتبها أحبار اليهود بأيديهم : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »(٢) .

« وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »(٣) .

كتبت التوراة فى المنفى وكان اليهود فى بابل مضطهدين ، رجالهم عبيد ونساؤهم إماء ومحظيات ، نفوسهم مليئة بالأحقاد على البشرية جمعاء فلم ينج من حقدهم الأسود الرسل والأنبياء ، فبركة الآباء للأبناء تسرق ، وأنبياء بنى إسرائيل يتردون فى حمأة الرذائل يعاقرون الخمر ويرتكبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم شعب الله المختار وأنهم وحدهم الناس ومن عداهم أمم ليس لهم عليهم حقوق ، سرقتهم حلال . « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى

---

(١) البقرة ٧٩

(٢) آل عمران ٧٨

الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »[١] . بل وقتلهم حلال فهو قربى إلى إله إسرائيل المتعطش إلى الدماء على الدوام .

وقد سخر القرآن الكريم من زعمهم أنهم وحدهم الناس وأن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين »[٢] .

والدار الآخرة فى التوارة التى كتبت فى المنفى غامضة كل الغموض ، فالجنة بالنسبة لليهودى هى النوم فى حضن إبراهيم . وقد استبدلت النار بالفكرة البابلية التى تعبر عن العالم الآخر بالأرض التى لا رجعة منها . ولا غرو فقد ترك اليهود التوارة التى نزلت على موسى وسلبوا أساطير الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها ونسبوها إلى أنبياء بنى إسرائيل .

إن العالم بريستد راح يقارن فى كتابه « فجر التاريخ » بين أقوال موسى الواردة فى التوراة التى كتبت فى المنفى وأقوال إخناتون وبين أقوال إخناتون ومزامير داود ، وخلص بنتيجة مؤداها أن أقوال أنبياء بنى إسرائيل قد اقتبست من أنبياء قدماء المصريين وهذا حق ، فبعد أن حرق بختنصر توراة الله كتبت أحبار اليهود فى المنفى التوراة الجديدة على متون ديانات قدماء المصريين والآشوريين والبابليين وأساطير الشعوب .

وقد انقسم اليهود أنفسهم حول التوراة التى كتبت فى أرض السبى ، فقال السامريون إذا كانت التوراة قد نزلت على موسى فمن أين جاءت الأسفار التى تروى أحداث بنى إسرائيل بعد موسى ؟ ولم يؤمن السامريون إلا بالأسفار

---

(١) آل عمران ٧٥

(٢) البقرة ٩٤ — ٩٥

الخمسة الأولى وهى : التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية ، وهى الأسفار التى تروى خلق الله السموات والأرض ، وخلق آدم وحواء ، وقصة قابيل وهابيل ، وقصة نوح وأبنائه ، وقصة إبراهيم الخليل ولوط ، ثم قصة موسى وخروجه من مصر ، ثم قصة اللاويين وهم موسى وهارون وبنو هارون ، فموسى وهارون لم يكونا يهوديين فهما من نسل لاوى أخى يهوذا الذى ينسب إليه اليهود ، وإصحاحات العدد وفيها ذكر عشائر بنى إسرائيل ، وإصحاحات التثنية وفيها شريعة بنى إسرائيل على لسان موسى .

ولو أن السامريين لم يعترفوا إلا بهذه الأسفار الخمسة إلا أنهم لم يحاولوا أن يفصلوا بين الزيف والصحيح من الأخبار التى وردت فى تلك الأسفار . فالله سبحانه وتعالى فى الإصحاح الثانى من سفر التكوين يستريح فى اليوم السابع بعد أن خلق السموات والأرض : « فأكملت السموات والأرض وكل جندها ، وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمله . فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل . وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقا » . ولم يفطن السامريون إلى أن التعب لا يجوز على الله ، وظل ذلك الوهم يسيطر على عقول كل الذين يقرءون التوراة التى كتبها أحبار اليهود فى المنفى إلى أن جاء محمد — ﷺ — وتلا ما أنزل عليه من ربه : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب »(١) .

وتذكر التوراة خلق آدم : « وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حيا . وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقا

---

(١) ق ٣٨

ووضع هناك آدم الذى جبله » . أما القرآن الكريم فيذكر خلق آدم فى آيات أكثر وضوحا وتفصيلا : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون »(١) .

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا »(٢) . « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين »(٣) . « الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » (٤) .

وتذكر التوراة فى تعليم آدم : « وجعل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها . فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية » . أما القرآن المجيد فيقول بعد أن قال الملائكة لرب العزة : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »(٥) .

---

(١) البقرة ٣٠ (٢) الاسراء ٦١
(٣) المؤمنون ١٢ (٤) السجدة ٧ ـــ ٩
(٥) البقرة ٣٠ ـــ ٣٣

وتذكر التوراة كيف خلقت حواء : « فأوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام ، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم ، فقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى . هذه تدعى امرأة لأنها من امرىء أخذت ، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا ، وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان » .

وإن دارس هذا النص يقف عند ملاحظتين : الأولى أن آدم على علم بكل شيء دون أن توضح التوراة من أين جاءه ذلك العلم ، والثانية أن هناك جملة اعتراضية لا ندرى من أين جاءت ومن قائلها ، الله هو القائل ؟ : لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا . أم أن قائل ذلك الأحبار الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى ؟!

ولم يرد اسم حواء فى القرآن الكريم فكان الخطاب بعد خلق حواء لآدم وزوجه : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما »(١) . « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى »(٢) .

وتصور التوراة خطيئة آدم تصويرا بشريا صرفا ، فالله سبحانه وتعالى عما يصفون يمشى فى الجنة ويجهل ما يجرى خلف ظهره : « وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله . فقالت للمرأة : أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟ فقالت المرأة للحية : من ثمر شجر الجنة نأكل ،

---

(١) البقرة ٣٥

(٢) طه ١١٦ — ١١٩

وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا . فقالت الحية للمرأة : لن تموتا . بل الله عالم أنه يوم تأكلون منه تتفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر . فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهية للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل ، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر .

وسمعا صوت الرب الإله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار ، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة . فنادى الرب الإله آدم وقال له ، أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت . فقال من أعلمك أنك عريان ؟! هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها ؟ فقال آدم : المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت . فقال الرب الإله للمرأة : ما هذا الذى فعلت ؟ فقالت المرأة : الحية غرتنى فأكلت . فقال الرب الإله للحية : لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية . على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك . وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها ، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه ، وقال للمرأة : تكثيرا أكثِّر أتعاب حبلك . بالوجع تلدين أولادا وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك . وقال لآدم : لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا لا تأكل منها ، ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ، وشوكا وحسكا[1] تنبت لك وتأكل عشب الحقل . بعرق

---

(١) الحسك : نبات تعلق ثمرته بصوف الغنم .

وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها ، لأنك تراب وإلى تراب تعود » . « وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر ، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد . فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها » .

من هذه النصوص يتضح أن الله سبحانه وتعالى عما يصفون لم يكن يعرف أين آدم ، فقال له : أين أنت ؟ و لم يكن يدرى أن آدم قد أكل من الشجرة قبل أن يقول له آدم إنه عريان ، وأن حواء هى المسئولة عن هذه الخطيئة ، وأن الله قد طرد الإنسان من الجنة لأنه خاف أن يتناول من شجرة الحياة فيصبح هو الآخر إلها يحيا إلى الأبد .

والفكرة عن الإله فى هذا الإصحاح لا تختلف فى كثير ولا قليل عن فكرة البابليين عن الآلهة الذين يمشون على الأرض ويخشون منافسة البشر فى سلطانهم ، وخوفهم من أن يصل الإنسان إلى الخلود فيصبح إلها مثلهم ، وقد خلط أحبار اليهود حقائق بأساطير فجاءت قصة طرد آدم وزوجه من الجنة فى أسلوب مشوق إلا أنها جسدت الإله الذى ليس دونه منتهى ، ولا وراءه مرمى .

إن القرآن الكريم يقرر منذ بدأ الله فى خلق آدم أنه جاعل فى الأرض خليفة ، فمنذ البدء خلق الله آدم ليكون خليفته فى الأرض . و لم يرد للحية ذكر فى القرآن و لم يذكر أن حواء هى التى أغرت آدم على الأكل من شجرة الخلد ، بل إن الشيطان هو الذى وسوس إليه : « فوسوس إليه الشيطان قال يآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه

فغوى »(١) . « ويآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون »(٢) .

ويلاحظ أن عبارة التوراة اكتفت بالعودة إلى الأرض التى أخذ منها الإنسان لأنه تراب وإلى التراب يعود ، أما عبارة القرآن فلم تكتف بالحياة فى الأرض والموت فيها بل أضافت الخروج منها . لأن القرآن الكريم يذكر البعث دائما ، أما اليهود الذين عاشوا فى أرض السبى فقد نسوا البعث و لم يذكروا عنه شيئا عندما أعادوا كتابة التوراة فى أرض بابل .

ومرت خطيئة آدم فى التوراة دون أن تلقى عليها أضواء تجسم من بشاعتها ، و لم يتحمل أحد من البشر وزرها . فالمبدأ الإلهى العادل يقرر ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن الأبناء لا يسألون عن خطيئة الآباء ، وأن الآباء لا يسألون عن خطيئة الأبناء . كل عن خطيئته يسأل . ولكن لما قام السيد المسيح بدعوته لإصلاح فساد اليهودية ، ولما صلب فى الظلام رجل زعم بعض الزاعمين أنه السيد المسيح ، ولما استولى بولص على مكان السيد المسيح أراد

---

(١) طه ١٢٠ — ١٢١

(٢) الأعراف ١٩ — ٢٥

أن يفلسف الصلب فزعم أن البشرية قد ورثت خطيئة آدم ، وأن المسيح قد جاد بروحه على الصليب ليخلص البشرية من خطيئة آدم . وبناء على هذا الزعم يكون البشر جميعا قد جاءوا من الخطيئة قبل عملية التطهير التى تمت بالصلب ، ويكون الرسل والأنبياء جميعا الذين جاءوا قبل الصليب ملوثين بخطيئة آدم .

و لم يترك القرآن الكريم هذه الدعوى الجائرة دون نقاش ، فقال إن الأمر كان أهون من أن تحمل البشرية جمعاء خطيئة آدم : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم »(١) ، « وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى »(٢) .

وجاء فى أول الإصحاح الخامس من سفر التكوين : « هذا كتاب مواليد آدم . يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله » . وقد انتشرت هذه الفرية حتى فى بعض كتب المسلمين بعد أن ترجمت التوراة إلى العربية فى القرن الثانى لهجرة النبى — صلى الله عليه وسلم — سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا .

وجاء فى الإصحاح السادس من نفس السفر : « ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم ، فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه . فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته . الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء ، لأنى حزنت أنى عملتهم . وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب » .

وهذا القول يصور أن الله لم يكن يعلم يوم جعل فى الأرض خليفة أن البشر سيرتكبون المعاصى . ويصور أن البشر قد تمردوا على الله . وقد أثر هذا القول

---

(١) البقرة ٣٧

(٢) طه ١٢١ ، ١٢٢

الخاطىء فى أعمال كثير من المفكرين اليهود والمسيحيين فجاءت أعمالهم الأدبية تصويرا لذلك العصيان ، وكان لمثل هذه الأقوال التى تفيض بها توراة المنفى أكبر الأثر فى كفران كثير من مفكريهم بالدين ، وإن لهم كل العذر لو كفروا بأساطير الوثنيين . أما القرآن الكريم فلم يقل إن الله قد حزن لما رأى سوء أعمال الناس . فالله يوم خلق آدم كان على علم بما خلق وبسلوك ما خلق وبما ركب فيه من غرائز : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون »(١) . « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون »(٢) .

ولننظر الآن كيف يصورون نوحا الذى وجد نعمة فى عينى الرب : « وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه . فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر بأخويه خارجا . فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما . فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال : ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته ، وقال : مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدا لهم ، ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام وليكن كنعان عبدا لهم » .

---

(١) النحل ٩٣

(٢) المائدة ٤٨

ولو تمعنا فى هذا الكلام لوجدنا أن كُتَّاب التوراة فى المنفى لم يكونوا حريصين على تدوين حقيقة قد وقعت ، فمن الاستخفاف بالعقول أن يكون نوح الذى وجد نعمة فى عينى الرب شريب خمر وأن يصل به السكر إلى أن يتعرى . ولكن الدافع الحقيقى لسرد هذه الفرية فى كتاب من المفروض أنه مقدس هو دافع سياسى . فالكنعانيون كانوا طوال تاريخ اليهودية أعدى أعداء اليهود ، كانوا أصحاب فلسطين وقد قاوموا بكل السبل استقرار اليهود فى أرض كنعان ، لذلك لعنوهم على لسان نوح وجعلوهم ثلاث مرات عبيدا لإخوتهم .

إن الذى رأى عورة أبيه فى ذلك الزعم هو حام أبو كنعان ، فما ذنب كنعان ما دام المبدأ فى التوراة هو أن الابن لا يسأل عن جريرة الأب . إن غلطة كنعان الحقيقية ليس أنه ابن حام ولكنه أبو الكنعانيين الذين حاربوا بنى إسرائيل واليهود على مر السنين .

وجاء فى الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين : « وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة ، وحدث فى ارتحالهم (قبائل بنى نوح) شرقا أنهم وجدوا بقعة فى أرض شنعار وسكنوا هناك ، وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لَبِنا ونشويه شيا ، فكان لهم اللَّبِن مكان الحجر وكان لهم الحُمر مكان الطين ، وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء ونضع لأنفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الأرض . فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما ، وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم للعمل . والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض . فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض فكفوا عن بنيان المدينة ، لذلك دعى اسمها بابل لأن

الرب هناك بلبل لسان كل الأرض ، ومن هناك بددهم الرب عل وجه الأرض » .

فى هذا الإصحاح نجد إلها يرتجف فرقا من عمل عباده . ولا غرو فإن قلبه امتلأ حزنا لأنه خلق الإنسان كما جاء فى الاصحاح السادس من هذا السفر . إنه ينزل من عليائه كما ينزل الملك عن عرشه ليفرق جماعة من العصاة لكيلا تتحد كلمتهم فيشقوا عصا الطاعة ويخلعوه عن عرشه . وإن دارس أساطير البابليين يجد مثل ذلك الصراع بين الآلهة والبشر واضحا كل الوضوح ، وقد تأثر كتاب التوراة فى المنفى بكل الآراء التى جاءت فى تلك الأساطير .

وجاء فى هذا الاصحاح أن بابل إنما سميت بهذا الاسم لأن الرب قد نزل هناك وبلبل ألسنة البشر أعدائه حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض ، والحقيقة أن الله كان يعرف بالإيل وأن اسم المدينة كان باب إيل أى باب الرب : وأن برج بابل إنما بنى كجميع الأبراج التى بنيت لعبادة القمر ، وكان فى مدينة أور التى ولد فيها خليل الرحمن إبراهيم يعرف بنانا ويعرف فى جميع بلاد ما بين النهرين بسين ، وقد انتشرت هذه العبادة فى بلاد الشرق الأوسط وكانت سيناء من أهم مراكزها وهى تنسب إلى الإله سين .

ويقول القرآن الكريم : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »(١) . « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم

(١) البقرة ٢١٣

خبير »[١] .

ثم تروى الإصحاحات الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر قصة إبراهيم الخليل ولوط وكيف أن الأرض لم تحتملهما أن يسكنا معا إذ كانت أملاكهما كثيرة ، فسكن إبراهيم أرض كنعان وسكن لوط أرض الأردن ونقل خيامه إلى سدوم ، وكيف قامت الحرب فى هذه المنطقة بين أربعة ملوك وخمسة ملوك ، وكيف وقع لوط أسيرا وكيف أتى من نجا من الأسر إلى إبراهيم وأخبره بأسر لوط ، فخرج إبراهيم فى غلمانه حتى خلص لوطا من الأسر . ويروى الإصحاح التاسع عشر قصة الملكين اللذين جاءا إلى لوط وكيف أن رجال المدينة أرادوا أن يأتوا بهما الفاحشة ، وكيف أمر الملكان لوطا بالخروج بأهله ، وكيف نظرت امرأته خلفها عندما كان الله ينزل بالمدينة عذابه ، وكيف تحولت إلى عمود ملح . وفى الإصحاح التاسع عشر نقرأ : « وصعد لوط من صوغر وسكن فى الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن فى صوغر فسكن فى المغارة هو وابنتاه . وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض . هل نسقى أبانا خمرا ونضطجع معه فنحيى من أبينا نسلا . فسقتا أباهما خمرا فى تلك ، الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها و لم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة إنى قد اضطجعت البارحة مع أبى نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلى اضطجعى معه فنحيى من أبينا نسلا . فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة أيضا وقامت الصغيرة واضطجعت معه و لم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . فحبلت ابنتا لوط من أبيهما ، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه مؤاب وهو أبو المؤابيين إلى اليوم ، والصغيرة أيضا ولدت ابنا

---

(١) الحجرات ١٣

ودعت اسمه بن عمى وهو أبو بنى عمون إلى اليوم » .

هذه هى صورة لوط فى التوراة التى كتبت فى أرض المنفى لما كانت اليهود أذلاء وكانت نساؤهم محظيات فعكسوا صورة الانحطاط الذى كانوا منغمسين فيه على الأنبياء لعل يكون فى ذلك تعزية عما هم فيه من انحلال . ومن الغريب أن لوطا لما وقع فى الأسر وجد من يطير إلى إبراهيم فى أرض كنعان فيأتى فيخلصه من أسره ، أما بنتا لوط فلم يجدا من يرسلانه إلى إبراهيم ليبعث لهما رجلين يتزوجانهما عوضا عن الاضطجاع مع أبيهما السكران ! إنها صورة بشعة تهبط بالبشرية إلى الحضيض لو أنها صدرت عن رجل عادى وبنتيه اللتين عز عليهما الزواج ، فما بالك وقد جعلتها التوراة تصدر عن نبى وبنتيه وعلى بعد أميال منهم رجال مؤمنون يتهللون بالفرح لمصاهرة نبى من أنبياء الله !

وشتان بين لوط فى التوراة ولوط فى القرآن : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾(١) .

﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴾(٢) .

---

(١) الأعراف ٨٠ — ٨٤

(٢) النمل ٥٤ — ٥٨

« ولما جاءت رسلنا لوطا سيىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد . قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد . قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد »(١) .

« ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين . قال رب انصرنى على القوم المفسدين . ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطا . قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . ولما جاءت رسلنا لوطا سيىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون . ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون »(٢) .

« كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا

---

(١) هود ٧٧ — ٨٣

(٢) العنكبوت ٢٨ — ٣٥

على رب العالمين . أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون . قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين . قال إنى لعملكم من القالين . رب نجنى وأهلى مما يعملون . فنجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزا فى الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم »(١) .

« وإن لوطا لمن المرسلين . إذ نجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزا فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون »(٢) .

« ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين . وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين »(٣) .

وذكر فى الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين مولد إسماعيل :

« وأما ساراى امرأة إبرام فلم تلد له . وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراى لإبرام : هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة . ادخل على جاريتى لعلى أرزق منها بنين . فسمع إبرام لقول ساراى ، فأخذت ساراى امرأة إبرام هاجر المصرية جاريتها بعد عشر سنين لإقامة إبرام فى أرض كنعان وأعطتها لإبرام رجلها زوجة له . فدخل على هاجر فحبلت ، ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها فى عينيها فقالت ساراى لإبرام : ظلمى عليك ، أنا دفعت جاريتى إلى حضنك . يقضى الرب بينى وبينك . فقال إبرام

(١) الشعراء ١٦٠ — ١٧٥

(٢) الصافات ١٣٢ — ١٣٨

(٣) الأنبياء ٧٤ ، ٧٥

لساراى : هو ذا جاريتك فى يدك . افعلى بها ما يحسن فى عينيك ، فأذلتها ساراى فهربت من وجهها .

فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية ، على العين التى فى طريق شور ، وقال يا هاجر جارية ساراى من أين أتيت وإلى أين تذهبين ؟ فقالت أنا هاربة من وجه مولاتى ساراى . فقال لها ملاك الرب ارجعى إلى مولاتك واخضعى تحت يديها . وقال لها ملاك الرب تكثيرا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة . وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنا وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك ، وإنه يكون إنسانا وحشيا ، يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن . فدعت اسم الرب الذى تكلم معها أنت إيل رئى . لأنها قالت أههنا أيضا رأيت بعد رؤية ، لذلك دعيت البئر لحى رئى . ها هى بين قادش وبارد .

فولدت هاجر لإبرام ابنا ودعا إبرام اسم ابنه الذى ولدته هاجر إسماعيل . وكان إبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لإبرام » .

وتسكت التوراة التى كتبت فى المنفى عن هاجر وإسماعيل ولا تروى لنا كيف تحقق وعد الله بأن يكثر نسلها تكثيرا ، ولا كيف حقق الله وعده لهاجر الذى جاء فى الإصحاح الحادى والعشرين من نفس السفر : « .. ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها : ما لك يا هاجر ؟ . لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ،.قومى احملى الغلام وشدى يدك بـه لأنى سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن البرية . وكان ينسو رامى قوس وسكن فى برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » .

سكتت توراة المنفى متعمدة عن إسماعيل وعن نبوءة إسماعيل وعن ذهاب

إبراهيم إلى مكة وعن تعاون إبراهيم وإسماعيل فى إقامة القواعد من البيت ، لأن بنى إسماعيل كانوا يحمون بنى إسرائيل حتى وقعت العداوة بينهم فنفس بنو إسرائيل على بنى إسماعيل فأرادوا أن يسلبوهم كل مجد .

ولما كان كتاب التوراة فى المنفى أرادوا أن يحصروا الرسالة والنبوة فى بنى إسرائيل فإنهم رأوا أن الحديث عن نبوة إسماعيل سيقوض دعواهم لأن إسماعيل لم يكن من بنى إسرائيل . فسكتوا عن كل نبوءة ظهرت فى العرب فلم يذكروا صالحا الذى بعث إلى قوم ثمود ، و لم يذكروا هودا الذى بعث إلى قوم عاد ، و لم يذكروا شعيبا الذى بعث إلى مدين ؛ لأن هؤلاء الرسل كانوا من العرب و لم يكونوا من بنى إسرائيل .

وليس من المعقول أن بنى إسرائيل لم يسمعوا بثمود وبعاد وبمدين وقد ذكر بطليموس هذه المدن فى أطلسه واليهود كانوا أقرب من بطليموس إلى هذه البلاد ، ولكنها الأغراض أسكتتهم عن حقائق تضر بدعوتهم بل تقوضها من أساسها .

إنهم لو ذكروا أن إبراهيم أقام القواعد من أول بيت وضع للناس وإسماعيل لذهب ذلك بجلال هيكل سليمان فحاولوا أن يطمسوا تلك الحقائق ؛ ولكن القرآن الكريم جاء يكذبهم فى دعواهم أنهم وحدهم الناس وأن الرسالة والنبوة فيهم وحدهم دون العالمين ، قال الله تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾(١) . وهذه الحقيقة تؤكد أن الرسالة كانت قبل بنى إسرائيل : ﴿ يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا

---

(١) آل عمران ٦٧

تعقلون ﴾[١] .

﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين * وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود * وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير * وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا منا سكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم * ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين »[٢]

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾[٣]

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾[٤]

وقص القرآن الكريم قصة هود وقد أغفلتها توراة المنفى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين *قال يا قوم

---

(١) آل عمران ٦٥ .

(٢) البقرة ١٢٤ — ١٣١ .

(٣) آل عمران ٩٦ .

(٤) الحج ٣٦ .

ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون * قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين * فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾(١) *

وقص القرآن الكريم قصة صالح لأن القرآن المجيد لا يفرق بين رسل من الأمم ورسل من بنى إسرائيل : ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾(٢) .

لم يكن إدريس من بنى إسرائيل ، ولم يكن نوح من بنى إسرائيل ، ولم يكن إبراهيم من بنى إسرائيل ، ولم يكن إسماعيل من بنى إسرائيل ، ولم يكن هود من بنى إسرائيل ، ولم يكن صالح من بنى إسرائيل ، فإن كان الذين كتبوا التوراة فى المنفى قد ذكروا نوحا وإبراهيم فقد كانوا إلى ذلك مضطرين لتستقيم قصة البشرية التى وضعوها مذ خلق الله آدم إلى أن اصطفى يعقوب (إسرائيل) * ولم تكن هناك ضرورة لسرد قصة صالح وهود وشعيب بل كان هناك ضرورة لعدم ذكر قصص هؤلاء الأنبياء حتى لا تتقوض نظريتهم القائلة بأن الرسالة والنبوة كانت فيهم وحدهم وحتى يرضوا غرورهم الذى

---

(١) الأعراف ٦٥ ــ ٧٢

(٢) المائدة ١٨

صور لهم أنهم وحدهم الناس وأن من سواهم أمم ، كلاب البشرية .

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون * فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾(١) *

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * بقيَّتُ الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ * قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب * ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم

---

(١) الأعراف ٧٣ — ٧٩ .

صالح وما قوم لوط منكم ببعيد* واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود* قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رَهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز* قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط* ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب * ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾(١) .

وجاء فى الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين : « ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لإبرام وقال له : أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملا فأجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيرا جدا . فسقط إبرام على وجهه وتكلم الله معه قائلا : أما أنا فهو ذا عهدى وتكون أبا لجمهور من الأمم . فلا يدعى اسمك إبرام بل يكون اسمك إبراهيم . لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم . وأثمرك كثيرا جدا وأجعلك أمما . وملوك منك يخرجون ، وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا لأكون إلٰها لك ولنسلك من بعدك وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلٰههم .

وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدى أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم . هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك .

---

(١) هود ٨٤ — ٩٥ .

يختن منكم كل ذكر فتختنون فى لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بينى وبينكم . ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر فى أجيالكم . وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك . يختن ختانا وليد بيتك والمبتاع بفضتك . فيكون عهدى فى لحمكم عهدا أبديا . وأما الذكر الأغلف الذى لا يختن فى لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها . إنه قد نكث عهدى .

وقال الله لإبراهيم : ساراى امرأتك لا تدعو اسمها ساراى بل اسمها سارة وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا . فأباركها فتكون أمما وملوك شعوب منها يكونون . فسقط إبراهيم على وجهه وضحك وقال فى قلبه هل يولد لابن مائة وهل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة ؟

وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك . فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابنا تدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدى معه عهدا أبديا لنسله من بعده . وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا : اثنى عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة ، ولكن عهدى أقيمه مع إسحاق الذى تلد لك سارة فى هذا الوقت فى السنة الآتية . فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم .

فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته كل ذكر من أهل بيت إبراهيم وختن لهم غرلتهم فى ذلك اليوم عينه كما كلمه الله ، وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن فى لحم غرلته ، وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن فى لحم غرلته . فى ذلك اليوم عينه ختن إبراهيم وإسماعيل ابنه وكل رجال بيته ولدان البيت والمبتاعين بالفضة من ابن الغريب ختنوا معه .

وهذا الإصحاح يحتاج إلى وقفة طويلة ، فقد ذكر فيه عهد الله بأن يعطى لإبراهيم ولنسله من بعده أرض غربته كل أرض كنعان ملكا أبديا ، وجعل الله الختان علامة عهد بينه وبين نسل إبراهيم خليل الرحمن .

إن الذين كتبوا التوراة بأيديهم فى المنفى كانوا مشردين وكانوا يتوقون للعودة إلى أرض كنعان أرض فلسطين ، وما كان لهم حق فى تلك الأرض فأرادوا أن يسندوا ذلك الحق بوعد إلٰهى ، فكتبوا بأيديهم أن الله سيكون إلٰها لإبراهيم ولنسله من بعده ، أما باقى البشر — إن كان اليهود يسمحون بأن يكون غيرهم بشرا — فقد تركوا بلا إلٰه ، فأصبح رب الناس إلٰه الناس رب العالمين إلٰها لنسل إبراهيم وحده . وإسماعيل ما نصيبه من هذا الوعد ؟ إنه من نسل إبراهيم فهو يشارك هو وبنوه فى هذا الوعد . ولما كان ذلك لا يرضى اليهود الذين أعادوا كتابة التوراة فى بابل على هواهم فقد أخرجوا إسماعيل وبنيه من ذلك الوعد ، فجعلوا خليل الرحمن يقول ليت إسماعيل يعيش أمامك ، فلا يعجب ذلك القول رب إسرائيل الذى لم يكن قد ولد بعد فيقول متلهفا : « بل سارة امرأتك لتلد لك ابنا وتدعو اسمه إسحاق ، وأقيم عهدى معه عهدا أبديا لنسله من بعده . وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا . اثنى عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة . ولكن عهدى أقيمه مع إسحاق الذى تلده لك سارة فى هذا الوقت فى السنة الآتيه » .

وهكذا وضع أول حكماء صهيون أول بذرة فى مشكلة فلسطين . جعلوا الله بلا سبب معقول يختار إسحاق الذى لم يكن قد ولد بعد ليقيم له عهدا أبديا لنسله من بعده ويخرج إسماعيل من ذلك العهد .

ولم ترو التوراة كيف تحقق وعد الله بأن بارك إسماعيل وجعله أمة كبيرة ، وقد يكون لكتاب التوراة عذر فقد تحقق ذلك بعد عهدهم . المهم أنهم

وضعوا على لسان الله كلاما يخدم قضيتهم ويجعل لهم حقا إلهيا فى أرض فلسطين .

وقد ذكر أنبياء بنى إسرائيل الذين كتبوا التوراة فى المنفى أن الختان هو علامة العهد بين الله وبين إبراهيم ونسله . وقد يكون ذلك الكلام صحيحا لو أن الختان لم يكن معروفا قبل ذلك العصر ولكن قدماء المصريين كانوا يختتنون ، فهل كان الختان علامة عهد بينهم وبين الله ؟! وكان البابليون يختتنون وقد يكون إبراهيم قد اختتن قبل ذلك على عادة أهله ، ولكن كتاب التوراة فى المنفى لم يحفلوا بشىء من ذلك فجعلوا خليل الرحمن يختتن فى ذلك اليوم عينه وجعلوا إسماعيل يختتن وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، أما إسحاق الموعود فقد اختتن ابن ثمانية أيام فهو أول من نفذ فيه أمر الله امتثالا لأمره : ابن ثمانية أيام يختتن منكم كل ذكر فى أجيالكم ، وهى نعمة كبرى لإسحاق أبى إسرائيل .

ولما كانت التوراة قد أصبحت الكتاب الأول والعهد القديم للذين اعتنقوا الديانة المسيحية ، فإن المسيحيين الذين يقرءون التوراة يؤمنون بهذه الأفكار التى دسها الذين كتبوا التوراة فى أرض السبى ، ومن أسف أن كتاب المسلمين بعد صدر الإسلام قد نهلوا من هذه التوراة بعد أن ترجمت إلى العربية ففاضت كتبهم بتلك الأفكار الزائفة . وقد وضعت أحاديث كثيرة عن النبى — ﷺ — لتطابق ما جاء فى التوراة . فحديث يقرر أن إبراهيم قد كذب على ربه ثلاث كذبات ، وآخر يروى كيف اختتن إبراهيم بالقدوم ، وثالث يؤكد أن ختان ذكور المسلمين ينبغى أن يجرى عندما يبلغ الغلام ثلاث عشرة سنة أسوة بأبيهم إسماعيل . وماجت كتب المؤرخين الإسلاميين بوعد الله لبنى إسرائيل بأرض المعاد ، وانتشرت الإسرائيليات بين دفتى كتب الكتّاب المسلمين الذين حسبوا أنهم ينهلون من كتاب مقدس .

كانت العداوة مشبوبة بين الكنعانيين أصحاب الأرض الحقيقيين وبين بنى إسرائيل واليهود الذين أرادوا اغتصاب الأرض منهم ، و لم ينس الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى تلك العداوة أبدا ، وأرادوا أن يؤكدوا وعد الله بإعطاء أرض فلسطين إلى نسل إسحاق فجعلوا إبراهيم وهو يجود بأنفاسه يقول لعبده كبير بيته المستولى على كل ما كان له : « ضع يدك تحت فخذى . فأستحلفك بالرب إلٰه السماء والأرض أن لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم . بل إلى أرضى وإلى عشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لبنى إسحاق . فقال له العبد : ربما لاتشاء المرأة أن تتبعنى إلى هذه الأرض . هل أرجع بابنك إلى الأرض التى خرجت منها (أور بالعراق) ؟ فقال له إبراهيم : احترز من أن ترجع بابنى إلى هناك . الرب إلٰه السماء الذى أخذنى من بيت أبى ومن أرض ميلادى والذى كلمنى والذى أقسم لى قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض ، هو يرسل ملاكه أمامك فتأخذ زوجة لابنى من هناك . وإن لم تشأ المرأة أن تتبعك تبرأت من حلفى هذا ، أما ابنى فلا ترجع به إلى هناك . فوضع العبد يده تحت فخذ إبراهيم مولاه وحلف له على هذا الأمر » .

ويثور فى الفكر سؤال : إذا كان وعد الله بإعطاء أرض فلسطين لإسحاق ولنسله معروفا فكيف خطر على قلب كبير بيت إبراهيم أن يعود بإسحاق إلى أور ؟ إلى الأرض التى خرج منها إبراهيم ؟ لقد كان وعدا وكان ختانا وكانت ابتهاجات بختان إبراهيم وإسماعيل والعبيد ثم إسحاق بعد كل ذلك فكيف غابت كل تلك الابتهاجات عن كبير بيت إبراهيم ؟ لعل الذين كتبوا التوراة فى المنفى خشوا أن يكون قارئ قد نسى الوعد فأرادوا أن يؤكدوه كما يفعل معظم القصاصين الذين ينتابهم القلق على قرائهم فيعيدوا سرد بعض الأحداث للتذكرة والتأكيد .

وتزوج إسحاق رفقة : « فلما كملت أيامها لتلد إذا فى بطنها توأمان ، فخرج الأول كله كفروة شعر فدعوا اسمه عيسو (العيص) ، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعى اسمه يعقوب . وكان إسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما » .

كان الذين كتبوا التوراة فى المنفى فى ذل الأسر ينظرون نظرة إكبار إلى كل عمل يقومون به غير مشروع ، حتى السرقة كانوا يزينونها فى أعينهم ، وقد انعكس ذلك السلوك على ما يكتبون فلم يروا فى سرقة البركة — إن كانت البركات تسرق — أى عيب ، بل وجدوا فى الخداع مادة يفخرون بها ويدونونها فرحين دون خجل وما دامت تلك السرقة تعود بالبركة على يعقوب (إسرائيل) . والآن نروى ما كتبه كتاب التوراة فى المنفى دون تدخل منا ولندع للقارئ قياس ذلك الفعل على مقاييس الأخلاق فى أى عصر من العصور : « فكبر الغلامان » . وكان عيسو إنسانا يعرف الصيد ، إنسان البرية ، ويعقوب إنسانا كاملا يسكن الخيام . فأحب إسحاق عيسو لأن فى فمه صيدا ، وأما رفقة فكانت تحب يعقوب ...

وحدث لما شاخ إسحاق وكلت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له يا بنى ، فقال له هأنذا . فقال إننى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى . فالآن خذ عدتك جعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لى صيدا . واصنع لى أطعمة كما أحب وأئتنى بها لآكل حتى تبارك نفسى قبل أن أموت .

وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحاق مع عيسو ابنه ، فذهب عيسو إلى البرية كى يصطاد صيدا ليأتى به ، وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة إنى قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلا ائتنى بصيد واصنع لى أطعمة لآكل

أمام الرب قبل وفاتى ، فالآن يا بنى اسمع لقولى فى ما أنا آمرك به . اذهب إلى الغنم وخذ لى من هناك جديين جيدين من المعزى ، فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته . فقال يعقوب لرفقة أمه : هو ذا عيسو أخى رجل أشعر وأنا رجل أملس . ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون وأجلب على نفسى لعنة لا بركة . فقالت له أمه لعنتك على يا بنى . اسمع لقولى فقط واذهب خذ لى . فذهب وأخذ وأحضر لأمه . فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب . وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التى كانت عندها فى البيت وألبست يعقوب ابنها الصغير وألبست يديه وملاسة عنقه جلود المعزة . وأعطت الأطعمة والخبز التى صنعت فى يد يعقوب ابنها .

فدخل إلى أبيه وقال يا أبى . فقال له : هأنذا من أنت يا بنى ؟ فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بكرك قد فعلت كما كلمتنى . قم اجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك ، فقال إسحاق لابنه ما هذا الذى أسرعت لتجد يا بنى . فقال إن الرب إلٰهك قد يسر لى . فقال إسحاق ليعقوب تقدم لأجسك يا بنى . أأنت هو ابنى عيسو أم لا ؟ فتقدم يعقوب إلى إسحاق أبيه فجسه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو . ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدى عيسو أخيه . فباركه وقال : هل أنت هو ابنى عيسو ؟ فقال : أنا هو . فقال : قدم لى آكل من صيد ابنى حتى تباركك نفسى . فقدم له فأكل وأحضر له خمرا فشرب ، فقال له إسحاق أبوه : تقدم وقبلنى يا بنى . فتقدم وقبله ، فشم رائحة ثيابه وباركه وقال : انظر ، رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الرب . فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة حنطة وخمر . ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل . كن

سيدا لإخوتك وليسجد لك بنو أمك . ليكن لاعونك ملعونين ، ومباركوك مباركين .

وحدث عندما فرغ إسحاق من بركة يعقوب ، ويعقوب قد خرج من لدن إسحاق أبيه أن عيسو أخاه أتى من صيده . فصنع هو أيضا أطعمة ودخل بها إلى أبيه وقال لأبيه : ليقم أبى ويأكل من صيد ابنه حتى تباركنى نفسك . فقال له إسحاق أبوه : من أنت ؟ فقال : أنا ابنك بكرك عيسو . فارتعد إسحاق ارتعادا عظيما جدا وقال : فمن هو الذى اصطاد صيدا وأتى به إلىّ فأكلت من الكل قبل أن تجىء وباركته ، نعم ويكون مباركا . فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومُرَّة جدا وقال لأبيه : باركنى أنا أيضا يا أبى . فقال قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك . فقال : ألا إن اسمه دعى يعقوب فقد تعقبنى الآن مرتين . أخذ بكوريتى وها هو ذا قد أخذ بركتى . ثم قال : أما أبقيت لى بركة ؟ فأجاب إسحاق وقال لعيسو : إنى قد جعلته سيدا لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيدا وعضدته بحنطة وخمر . فماذا أصنع إليك يابنى ؟ فقال عيسو لأبيه : ألك بركة واحدة فقط يا أبى . ؟ باركنى أيضا يا أبى . ورفع عيسو صوته وبكى . فأجاب إسحاق أبوه وقال له : هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك وبلا ندى السماء من فوق وبسيفك تعيش ولأخيك تستعبد ، ولكن يكون حينما تجنح أنك تكسر نيره عن عنقك » .

وهكذا ضاقت رحمة الله عن أن تتسع ليعقوب (إسرائيل) وأخيه عيسو ، وهكذا سرقت البركة . فإن كان إسحاق كلت عيناه فأين كان الله ؟ إنهم جعلوه ينطق بوعد منح أرض كنعان لنسل إسحاق ثم سرقوا البركة من عيسو فى غفلة من الله سبحانه وتعالى عما يصفون . إنهم جعلوا إسرائيل سارق بركة ومخادعا وكذابا دون خجل ، فما كانوا فى أرض المنفى يخجلون

من السرقة والكذب والخداع ، ولننظر الآن كيف يتحدث القرآن عن إسحاق الذى لم يذكر الآخرة مرة واحدة فى التوراة ، والذى كان حبه لابنه عيسو لأنه يجلب له ما لذ وطاب من الطعام ، فلم يكن حبه لمكارم أخلاقه وتقواه بل لأن فى فمه صيدا . مادية طاغية صبغ بها اليهود بدورهم المعجبين بهم من الناس .

﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا * فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾(١) .

﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰها واحدا ونحن له مسلمون ﴾(٢) .

﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾(٣) .

ولم يكن الغش والخداع فى سرقة البركة فحسب . بل كان سمة أفعال كل الناس كما تصورهم الذين كتبوا التوراة فى المنفى . فيعقوب قد ذهب إلى حاران ليتزوج فى بيت خاله لابان بن ناحور ، فماذا كان من الخال ؟ :

---

(١) مريم ٥٨ — ٥٩ .

(٢) البقرة ١٣٢ — ١٣٣ .

(٣) البقرة ١٤٠ .

« فكان حين سمع لابان خبر يعقوب ابن أخته أنه ركض للقائه وعانقه وقبله وأتى به إلى بيته . فحدث لابان بجميع هذه الأمور : (حلم يعقوب . رؤية سلّم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء . ملائكة الله صاعدة نازلة عليها والرب واقف عليها يقول : أنا الرب إلٰه إبراهيم أبيك وإلٰه إسحاق . الأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك . من هنا اسمى إسرائيل) .

فقال له لابان : إنما أنت عظمى ولحمى . فأقام عنده شهرين من الزمان .

ثم قال لابان ليعقوب : لأنك أخى تخدمنى مجانا ! أخبرنى ما أجرتك ؟

وكان للابان ابنتان اسم الكبرى ليَّة واسم الصغرى راحيل . وكانت عينا ليَّة ضعيفتين . وأما راحيل فكانت حسنة الصورة وحسنة المنظر . وأحب يعقوب راحيل فقال : أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى . فقال لابان : أن أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر . أقم عندى . فخدم يعقوب براحيل سبع سنين وكانت فى عينه كأيام قليلة بسبب محبته لها .

ثم قال يعقوب للابان : أعطنى امرأتى لأن أيامى قد كملت فأدخل عليها . فجمع لابان جميع أهل المكان وصنع وليمة ، وكان له فى المساء أنه أخذ ليَّة وأتى بها إليه فدخل عليها . وأعطى لابان نلفة جاريته لليَّة ابنته جارية . وفى الصباح إذا هى ليَّة . فقال للابان : ما هذا الذى صنعت بى ؟ أليس براحيل خدمت عندك . فلماذا خدعتنى ؟ فقال لابان : لا يُفعل هكذا فى مكاننا أن نعطى الصغيرة قبل البكر . أكمل أسبوع هذه فنعطيك تلك بالخدمة التى تخدمنى أيضا سبع سنين أخر .

ففعل يعقوب هكذا . فأكمل أسبوع هذه . فأعطاه راحيل ابنته زوجة له ، وأعطى لابان راحيل ابنته بلهة جاريته جارية لها . فدخل على راحيل أيضا

وأحب أيضا راحيل أكثر من ليَّة ، وعاد فخدم عنده سبع سنين أخر » .

وهكذا جمع نبى الله يعقوب بين الأختين فى توراة المنفى ، وخدعه خاله كما خدع هو أباه . فالحياة فى توراة المنفى كلها غش وكذب وخداع وأنبياء لا يطلبون من الله إلا أن يطعمهم ويكسوهم . ولنسمع إلى نذر يعقوب وهو فى طريقه من بئر سبع إلى حاران : « ونذر يعقوب نذرا قائلا : إن كان الله معى وحفظنى فى هذا الطريق الذى أنا سائر فيه وأعطانى خبزا لآكل وثيابا لألبس ورجعت بسلام إلى بيت أبى ، يكون الرب لى إلٰها ! » أيعقوب لا يزال فى شك من أن الله معه حتى بعد وعد الله بأن يباركه وأن يجعل أرض فلسطين لذريته ؟! ففيم كان الختان إذن ؟ وهل هذا النذر يليق بنبى موعود ببركة الله ؟ إنه لن يعترف بربه إلا إذا أطعمه وكساه وحفظه وأعاده سالما إلى بيت أبيه . اعتراف مقابل نفع ، إن انعدم النفع فلا اعتراف ، وحاشا لله أن يكون ذلك نذر يعقوب . إنه نذر الذين يقاسون الذل فى الأسر ، نذر الذين كانوا يلتمسون العودة إلى فلسطين من العراق ، فإذا كانت العودة كان الاعتراف بالله وإلا فلا اعتراف ، ولن يكون الرب لهم إلٰها !

ولم يكتف الذين كتبوا التوراة فى المنفى بأن جعلوا أنبياء الله يكذبون ويخدعون ويسرقون البركة ، بل نسبوا السلب إلى الله — سبحانه وتعالى عما يصفون علوا كبيرا : « وحدث لما ولدت راحيل يوسف أن يعقوب قال للابان : اصرفنى لأذهب إلى مكانى وإلى أرضى . أعطنى نسائى وأولادى الذين خدمتك بهم فأذهب لأنك أنت تعلم خدمتى التى خدمتك . فقال لابان : ليتنى أجد نعمة فى عينيك . قد تفاءلت فباركنى الرب بسببك وقال : عين لى أجرتك فأعطيك .

فقال له : أنت تعلم ماذا خدمتك وماذا صارت مواشيك معى ، لأن ما

كان لك قبلى قليل فقد اتسع إلى كثير وباركك الرب فى أثرى ، والآن متى أعمل أنا أيضا لبيتى ؟! فقال : ماذا أعطيك ؟ فقال يعقوب : لا تعطينى شيئا . إن صنعت لى هذا الأمر أعود أرعى غنمك وأحفظها . أجتاز بين غنمك كلها اليوم واعزل أنت منها كل شاة رقطاء وبلقاء وكل شاة سوداء بين الخرفان وبلقاء ورقطاء بين المعزى . فيكون مثل ذلك أجرتى ويشهد فىّ يرى يوم غد إذا جئتك من أجل أجرتى قدامك . كل ماليس أرقط أو أبلق بين المعزى وأسود بين الخرفان فهو مسروق عندى . فقال لابان : هو ذا ليكن بحسب كلامك . فعزل فى ذلك التيوس المخططة والبلقاء وكل العناز الرقطاء والبلقاء كل ما فيه بياض وكل أسود بين الخرفان ودفعها إلى أيدى بنيه وجعل مسيرة ثلاثة أيام بينه وبين يعقوب ، وكان يعقوب يرعى غنم لابان الباقية .

فأخذ يعقوب لنفسه قضبانا من لبنى ولوز ودلب وقشر فيها خطوطا بيضا كاشطا عن البياض الذى على القضبان ، وأوقف القضبان التى قشرها فى الأجران فى مساقى الماء حيث كانت الغنم تجىء لتشرب تجاه الغنم لتتوحم عند مجيئها لتشرب ، فتوحمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخططات ورقطا وبلقا . وأفرز يعقوب الخرفان وجعل وجوه الغنم إلى المخطط وكل أسود بين غنم لابان . وجعل له قطعانا وحده و لم يجعلها مع غنم لابان . وحدث كلما توحمت الغنم القوية أن يعقوب وضع القضبان أمام عيون الغنم فى الأجران لتتوحم بين القضبان . وحين استضعفت الغنم لم يضعها فصارت الضعيفة للابان والقوية ليعقوب ، فاتسع الرجل كثيرا جدا وكان له غنم كثير وجوار وعبيد وجمال وحمير .

فسمع كلام بنى لابان قائلين : أخذ يعقوب كل ما كان لأبينا . ومما لأبينا صنع كل هذا المجد . ونظر يعقوب وجه لابان وإذا هو ليس معه كأمس وأول

من أمس . وقال الرب ليعقوب : ارجع إلى أرض آبائك وإلى عشيرتك فأكون معك .

فأرسل يعقوب ودعا راحيل وليَّة إلى الحقل إلى غنمه وقال لهما : أنا أرى وجه أبيكما أنه ليس نحوى كأمس وأول من أمس ، ولكن إله أبى كان معى وأنتما تعلمان أنى بكل قوتى خدمت أباكما ، وأما أبوكما فغدر بى وغير أجرتى عشر مرات ، ولكن الله لم يسمح له أن يصنع بى شرا . إن قال هكذا : الرقط تكون أجرتك ولدت كل الغنم رقطا ، وإن قال هكذا : المخططة تكون أجرتك ولدت كل الغنم مخططة ، فقد سلب الله مواشي أبيكما وأعطانى . وحدث فى وقت توحم الغنم أنى رفعت عينى ونظرت فى حلم وإذا الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورقطاء ومنمرة . وقال لى ملاك الله فى الحلم : يا يعقوب . قلت هأنذا . فقال : ارفع عينيك وانظر . جميع الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورقطاء ومنمرة ، لأنى قد رأيت كل ما يصنع بك لابان . أنا إله بيت إيل حيث مسحت عمودا . حيث نذرت لى نذرا . الآن قم اخرج من هذه الأرض وارجع إلى أرض ميلادك » .

لقد صور يعقوب فى هذه الإصحاحات رجل دنيا كل همه الإكثار مما يملك من شاء وماعز ، وهو رجل خداع يأخذ لنفسه الغنم القوية ويترك للابان الغنم الضعيفة ثم ينسب السلب إلى الله . وحاشا لله أن يكون يعقوب قد فعل ذلك أو أن يكون قد مكث عند خاله لابان عشرين سنة وخاله يعبد الأصنام دون أن يدعو خاله مرة واحدة إلى عبادة الله وحده ، ودون أن يقول له ولقومه كما قال جده خليل الرحمن لأبيه وقومه : « إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين »[1] . « .. أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى

(١) الزخرف ٢٦ ، ٢٧ .

ضلال مبين »(٢) .

نسى الذين كتبوا التوراة فى المنفى أن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، وأن صفات جميع الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم حسن الخلق ، وأن الله قد عصمهم من إتيان الشرور والآثام ، وما كان هم أحدهم الدنيا . إنهم كانوا يجودون بكل شيء فى سبيل الله فما عمل أحدهم على أن يغش ليكثر غنمه ويكون بذلك مجده ، بل كانوا ينفقون كل ما يرزقهم الله على الفقراء والمحتاجين فهم أوثق بما فى يدى الله مما فى أيديهم ، وإننا لا نجد مثل هذه الصور الكريمة فى التوراة لذلك نسوق بعض ما رواه نبى الإسلام وكتاب المسلمين عن أنبياء بنى إسرائيل بما يتسق مع النبوة والاصطفاء .

« قيل ليوسف : ما لك تجوع وأنت على خزائن الأرض ؟ قال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع » .

وقال ﷺ : « إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبى ابن نبى ابن نبى ابن نبى » .

إن عبارات توراة المنفى مظلمة لا تتلألأ فيها أنوار وحى الله ، إن هى إلا أقاصيص تعبر عن الحالة النفسية التى كان يعيش فيها اليهود فى المنفى ، أقاصيص نسجت حول حقائق طال عليها الأمد فامتزجت بأساطير الشعوب وأساليب الكذب والغش والخداع التى كانت طابع هؤلاء الأسرى . كانوا مستضعفين فى الأرض قد لوثهم الأسر بالعار فلطخوا كل الرسل والأنبياء بالعار لكيلا يكون هناك ما يخجلهم ما دام أنبياء الله قد مارسوا الكذب والخداع وأكل الدنيا فى بطونهم ، بل وقد مارسوا الزنا كما سنرى بعد حين فى التوراة .

---

(١) الأنعام ٧٤ .

ولندع شكيم يعتدى على دينة ابنة يعقوب ، ولندع الخدعة التى قام بها ابنا يعقوب ليقضوا على شكيم وأبيه وكل رجال المدينة ، وكيف نهبا المدينة . فالتوراة مليئة بالخدع والسلب والنهب ، ولنقرأ الإصحاح الخامس والثلاثين من سفر التكوين لنرى كيف أن يعقوب وأبناءه الموعودين بالبركة وأرض فلسطين ، كانت الأصنام فى حوزتهم ، وأنهم كانوا يشركون مع الله الذى وعدهم واصطفاهم آلهة أخرى : « ثم قال الله ليعقوب : قم اصعد بيت إيل وأقم هناك واصنع هناك مذبحا لله الذى ظهر لك حين هربت من وجه عيسو أخيك ، فقال يعقوب لبنيه ولكل من كان معه : اعزلوا الآلهة الغريبة التى بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم ، ولنقم ولنصعد إلى بيت إيل فأصنع هناك مذبحا لله الذى استجاب لى فى يوم ضيقتى وكان معى فى الطريق الذى ذهبت فيه ، فأعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التى فى أيديهم والأقراط التى فى آذانهم فطمرها يعقوب تحت البطمة التى عند شكيم » .

يا أنبياء بنى إسرائيل الذين كتبتم التوراة فى المنفى أين عقولكم ؟ أيعقل أن يحتفظ يعقوب الموعود بالبركة والذى تجلى له الرب مرات بالأصنام فى بيته ؟ ففيم كان إذن حب الله إياه ؟ ولماذا اصطفاه ربه قبل أن يولد وخصه بالبركة دون أبناء إسماعيل ؟ ألأنه استمر يشرك به حتى بعد أن جاءه ملاك الرب فى الحلم ليخبره أن جميع الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورقطاء ومنمرة ؟! أو لأنه استمر يشرك بالله حتى بعد أن صارع الله (الإصحاح ٣٢) وقال له : « لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت » .

وكان أبناء يعقوب : رأوبين وشمعون ولاوى ويهودا ويساكر وزبلون من ليئة ، ودانا ونفتالى من بلهة جارية لية ، وجادا وأشيرا من زلفة جارية راحيل ،

ويوسف وبنيامين من راحيل . وجاء موسى عليه السلام من نسل لاوى ، وجاء اليهود من نسل يهوذا ، وبذلك لا يكون موسى صلوات الله وسلامه عليه يهوديا ، ولا يوسف ، فهما من بنى إسرائيل وأخوا يهوذا الذى ينسب إليه اليهود . وإن دارس التوراة يلحظ تعصب أنبياء اليهود لفرع يهوذا . فنبى مثل أشعيا لا يذكر موسى أبدا فى إصحاحاته ، فموسى عليه السلام من اللاويين ، أما أشعيا فمن نسل يهوذا .

وسترى الآن كيف صورت التوراة حياة يهوذا أبى اليهود جميعا : « وأخذ يهوذا زوجة لعير بكره اسمها ثامار ، وكان عير بكر يهوذا شريرا فى عينى الرب ، فأماته الرب ..

ولما طال الزمان ماتت ابنة سوع امرأة يهوذا ، ثم تعزى يهوذا فصعد إلى جُزّاز غنمه إلى تمنة هو وحيرة صاحبه العَدلاّمى فأخبرت ثامار وقيل لها : هو ذا حموك صاعد إلى تمنة ليجز غنمه . فخلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلفتت وجلست فى مدخل عينايم التى على طريق تمنة ، فنظرها يهوذا وحسبها زانية لأنها كانت قد غطت وجهها . فمال إليها على الطريق وقال : هاتى أدخل عليك . لأنه لم يعلم أنها كنَّته . فقالت : ماذا تعطينى لكى تدخل علىَّ . فقال : إنى أرسل جدى معزى من الغنم . فقالت : هل تعطينى رهنا حتى ترسله ؟ فقال : ما الرهن الذى أعطيك ؟ فقالت : خاتمك وعصابتك وعصاك التى فى يدك ، فأعطاها ودخل عليها فحبلت منه . ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترملها .

فأرسل يهوذا جدى المعزة بيد صاحبه العدلامى ليأخذ الرهن من يد المرأة فلم يجدها ، فسأل أهل مكانها قائلا : أين الزانية التى كانت فى عينايم على الطريق ؟ فقالوا : لم تكن ههنا زانية . فرجع إلى يهوذا وقال : لم أجدها وأهل

المكان أيضا قالوا لم تكن ههنا زانية ، فقال يهوذا : لتأخذ لنفسها لئلا نصير إهانة . إنى قد أرسلت هذا الجدى وأنت لم تجدها .

ولما كان نحو ثلاثة أشهر أخبر يهوذا وقيل له : قد زنت ثامار كنتك وها هى حبلى أيضا من الزنا ، فقال يهوذا أخرجوها فتحرق . أما هى فلما أخرجت أرسلت إلى حميها قائلة : من الرجل الذى هذه له أنا حبلى ؟ وقالت : حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه ؟ فتحققها يهوذا وقال : هى أبرأ منى .. » .

ماذا كان جزاء يهوذا الزانى الذى أنجبت له زوج ابنه توأمين ؟ إن يعقوب (إسرائيل) يقول له وهو يجود بأنفاسه : « يهوذا إياك يحمد إخوتك . يدك على قفا أعدائك . يسجد لك بنو أبيك » .

أهذا وحى من الله ؟ أيكون جزاء الزانى بركة وحمدا ؟ فلمن الحجر إذن ؟ إنها أهواء الذين كتبوا التوراة فى المنفى وإنهم جميعا من نسل يهوذا ، من اليهود فلا غرو إن تحيزوا ليهوذا وغفروا له جريمة الزنا ، وقد التمسوا له عذرا بأن قالوا إنه لما زنى بالمرأة لم يكن يعرف أنها زوج ابنه . وأرادوا أن يبرزوا شهامته فجعلوه يبعث صديقه ليدفع ثمن فعلته كأنما فعل فعلة لا يندى لها جبين الشرفاء من الناس فما بالك بسبط من الأسباط الذين يقول القرآن فيهم : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا »(١) .

وإنّ تصور الذين كتبوا التوراة فى المنفى لله جل شأنه قاصر عجيب ، إنه فى زعمهم لا يستطيع أن يميز بين بيوت المؤمنين وبيوت الكافرين إلا بعلامة

---

(١) النساء ٦٣

توضع على بيوت المؤمنين : « .. فإنى أجتاز فى أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر فى أرض مصر من الناس بالبهائم . وأصنع أحكاما لكل آلهة المصريين : أنا الرب ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها . فأرى الدم فأعبر عنكم ، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر . ويكون لكم هذا اليوم تذكارا فتُعبِّدونه عيدا للرب فى أجيالكم تُعبِّدونه فريضة أبدا » .

وهكذا كلم الرب موسى وهارون فى أرض مصر فى سفر الخروج فى توراة المنفى ، وهكذا جعلوا الله لا يميز بين دور بنى إسرائيل ودور المصريين إلا بعلامة من دماء الشاء التى أمرهم بذبحها وأكلها بعجلة فصحا للرب ! إنه إله يجتاز أرض مصر فى تلك الليلة كأنه مسافر عابر . ولا جرم فقد تصوروا أن الله خلق آدم على صورته ، وما دام آدم يمشى فى الأرض فلا غرابة أن يمشى الله فى أرض مصر تلك الليلة ويجتازها وهو يبحث عن علامات الدم على دور بنى إسرائيل ، حتى لا يخطئ ويصيب عباده بنقمته .

والآن نلقى السمع إلى بعض آيات الله لنرى موسى وهارون فى القرآن العظيم وكيف يعرفان الله تعالى وأنه يسمع ويرى بلا علامات على دور بنى إسرائيل ، وأنه الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وأنه مالك يوم الدين ، وإن كانت توراة المنفى لم تعرف إلا الأرض التى لا رجعة منها و لم تتحدث عن البعث أبدا : ﴿ وهل أتاك حديث موسى * إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى * إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إننى أنا الله لا إلٰه إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من

لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى * وما تلك بيمينك يا موسى * قال هي عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى * قال ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هى حية تسعى * قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى * واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى * لنريك من آياتنا الكبرى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى * واحلل عقدة من لسانى ، يفقهوا قولى * واجعل لى وزيرا من أهلى * هارون أخى * اشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى * كى نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا * قال قد أوتيت سؤلك يا موسى * ولقد مننا عليك مرة أخرى ﴾(١) .

﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى ﴾(٢) .

إن الله سبحانه وتعالى يقص علينا فى محكم آياته قصة موسى تشع نورا ، قصة إلـٰه قادر ورسول كريم . أما الذين كتبوا التوراة فى أرض السبى فما قدروا الله حق قدره ، جعلوه — سبحانه وتعالى عما يصفون علوا كبيرا — لا يميز بين بيوت بنى إسرائيل وبيوت المصريين إلا بعلامة من دم الأضحية ، وجعلوه يأمر بنى إسرائيل بأن يأكلوا الفطير سبعة أيام احتفالا بتخليصهم من ذل فرعون : « سبعة أيام تأكلون فطيرا . اليوم الأول تعزلون الخمير من بيوتكم ، فإن كل من أكل خميرا من اليوم الأول إلى اليوم السابع تقطع تلك النفس من إسرائيل ، ويكون لكم فى اليوم الأول محفل مقدس ، وفى اليوم

(١) طه ١١ — ٣٧ .
(٢) طه ٧٧ .

السابع محفل مقدس ، لا يعمل فيها عمل إلا ما تأكله كل نفس فذلك وحده يعمل منكم . وتحفظون الفطير لأنى فى هذا اليوم عينه أخرجت أجدادكم من أرض مصر . فتحفظون هذا اليوم فى أجيالكم فريضة أبديه . فى الشهر الأول فى اليوم الرابع عشر من الشهر مساء تأكلون فطيرا إلى اليوم الحادى والعشرين من الشهر مساء . سبعة أيام لا يوجد خمير فى بيوتكم ، فإن كل من أكل مُختمرا تقطع كل النفس من جماعة إسرائيل الغريب مع مولود الأرض . لا تأكلوا شيئا مختمرا . فى جميع مساكنكم تأكلون فطيرا » .

إنه إلـٰه يهتم بالخمير وبالفطير أكثر من اهتمامه بتربية النفوس المؤمنة . إنه لم يذكر كلمة واحدة عن دار السلام ولم ينل دار الغرور بكلمة تخدش التعلق بها . فالعلاقة بين الرب وعباده صارت على أيدى كتاب التوراة فى المنفى علاقة منفعة مباشرة يعود نفعها كله على العباد . فعلى الرب أن يحمى عبده وأن يطعمه وأن يكسوه فإن فعل ذلك أقر العبد بربوبيته وإلا فلا عبادة ولا حمد . وقد صوروا بنى إسرائيل فى صورة تثير الدهشة ، فبعد المعجزات التى قام بها موسى وبعد أن أنقذ الله بنى إسرائيل من ذل العبودية فى مصر وبعد أن « كان الرب يسير أمامهم نهارا فى عمود من سحاب ليهديهم فى الطريق وليلا فى عمود نار ليضىء لهم لكى يحوشوا نهارا وليلا لم يصدقوا موسى ولم يؤمنوا بإلـٰه موسى . وقد آمنوا به وصدقوا رسوله لما رأوا أعداءهم أمواتا على الشاطئ : « فخلص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين ، ونظر إسرائيل المصريين أمواتا على شاطئ البحر ، ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذى صنعه الرب بالمصريين ، فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبده موسى » .

إنهم يصلون لله بعد ذلك النصر ولكن صلاتهم لم تكن خالصة لله وحده فقد كانت قلوبهم مشوبة بالشرك ، فهم يقولون فى ابتهالاتهم : « من مثلك بين

الآلهة يا رب ؟ من مثلك معتزا فى القداسة .. » كأنما هناك آلهة معه وليس بينهم مثل إلٰههم . أكان موسى كليم الله يسمح بمثل ذلك الشرك دون أن يثور ؟ أو كان موسى يسمح لأخته مريم النبية أخت هارون بأن تأخذ الدف بيدها وأن تخرج وراءها جميع النساء بالدفوف فيأخذون فى الرقص ؟ إنها أفكار وتصورات الذين وضعوا التوراة فى أرض العراق . أيام أن كان الشراب والرقص والشرك منتشرا فى بلاط البابليين .

وقال كتبة التوراة إن موسى عليه السلام أطلق على إلٰهه اسم يهوه بعد أن بنى مذبحا للرب شكرا على انتصار إسرائيل على عماليق ، و لم يعطوا مبررا لهذه التسمية ، ويلاحظ أنهم قد بدأوا إطلاق اسم إسرائيل على بنى إسرائيل ، ومن الغريب أنهم جعلوا « يثرون » كاهن مديان حما موسى يقول هو الآخر لما سمع ما فعل إلٰه موسى لبنى إسرائيل : « الآن علمت أن الرب أعظم الآلهة » . فهو على حد قول كتاب التوراة يعتقد أن هناك آلهة مع الرب وأن الرب أعظمهم . وهذا القول لا يختلف فى كثير ولا قليل عما كان يقال فى بابل من أن مردوخ هو رب الأرباب . إنها عبارات لم تكن من وحى الله ولكنها من وحى البيئة التى عاش فيها كتاب التوراة .

وعندما يتجلى الله لموسى فوق جبل سيناء يقول : « أنا الرب إلٰهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية . لا يكن لك آلهة أخرى أمامى . لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض ، لاتسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلٰهك إلٰه غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى وأصنع إحسانا إلى ألوف من محبى وحافظى وصاياى . لا تنطق باسم الرب إلٰهك باطلا ، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلا . اذكر يوم السبت

لتقدسه . ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك ، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلٰهك . لا تصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذى داخل أبوابك . لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح فى اليوم السابع . لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه . أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلٰهك . لا تقتل . لا تزن . لا تسرق . لا تشهد على قريبك شهادة زور ، لا تشته بيت قريبك . لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك ». .

إلٰه غيور ، يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء . أهذا عدل إلٰهى أم تصور من تصورات الذين كتبوا التوراة فى المنفى ؟ « وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »(١) .

« ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب »(٢) .

ليس من العدل فى شىء أن يفتقد إلٰه ذنوب الآباء فى الأبناء : « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون »(٣) . « قل أمر ربى بالقسط ... »(٤) .

« لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »(٥) . « ولا تزر وازرة وزر أخرى »(٦) . « من عمل صالحا

(١) آل عمران ٧٨ (٢) هود ١١٠
(٣) الأحقاف ١٩ (٤) الأعراف ٩
(٥) البقرة ٢٨٦ (٦) الأنعام ١٦٤

فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »(١) .

ولم يذكر رب موسى فى هذه الوصايا جزاء الصالحين والطالحين فى الدار الآخرة ، فقد نسى الذين كتبوا التوراة فى المنفى البعث والحساب . إنهم اعتقدوا معتقدات البابليين وقد كانوا يتقربون إلى آلهتهم ليطيلوا أعمارهم على الأرض ولإسعادهم فى دار الغرور . وإن نفس الشىء يقوله رب الذين كتبوا التوراة : « أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك » . فالجزاء ينبغى أن يكون فى الدنيا . وقد أثر ذلك فى الماديين الذين يريدون المثوبة فى الأرض وينكرون كل حياة بعد الموت : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم »(٢): « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون »(٣) .

ولنستمر فى قراءة الإصحاح العشرين من سفر الخروج : « وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن (من أجل أن الله نزل على جبل سيناء) . ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد وقالوا لموسى : تكلم أنت معنا فنسمع ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت . فقال موسى للشعب لا تخافوا ، لأن الله إنما جاء ليمتحنكم ولكى تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا . فوقف الشعب من بعيد وأما موسى فاقترب من الضباب حيث كان الله .

---

(١) فصلت ٤٦

(٢) محمد ١٢

(٣) سبأ ٣٧.

فقال الرب لموسى : هكذا تقول لبنى إسرائيل . أنتم رأيتم أننى من السماء تكلمت معكم ، لا تصنعوا معى آلهة فضة ولا تصنعوا معى آلهة ذهب . مذبحا من تراب تصنع لى تذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك غنمتك وبقرك . فى كل الأماكن التى فيها أصنع لاسمى ذكرا آتى إليك وأباركك . وإن صنعت لى مذبحا من حجارة فلا تبنه منها منحوتة . إذا رفعت عليها إزميلك تدنسها ولا تصعد بدرج إلى مذبحى لكيلا تنكشف عورتك عليه » .

جعلوا لله مكانا . إنه فى الضباب . وجعلوه إلها يتعطش إلى دماء الغنم والبقر : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم »[1] . إنه ينهاهم عن صنع آلهة من فضة أو ذهب ولكنهم سرعان ما صنعوا عجلا من ذهب وعبدوه لأنهم ما دامت كل تعاليمهم أرضية لا يطيقون البعد عن عبادة الذهب ، فبالذهب يطعمون وبالذهب يكسون وبالذهب يكون لهم سلطان فى الأرض وهذه كل الغايات التى يعبدون الله من أجلها ، ومادام الذهب يحققها لهم فهو الإله المعبود .

ويسرد الإصحاح الحادى والعشرون من نفس السفر الأحكام التى أمر الله موسى أن تطبق على بنى إسرائيل : « وهذه هى الأحكام التى تضع أمامهم : إذا اشتريت عبدا عبرانيا فست سنين يخدم وفى السابعة يخرج حرا مجانا . إن دخل وحده فوحده يخرج . إن كان بعل امرأة تخرج امرأته معه ، وإن أعطاه سيده امرأة وولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها يكون لسيده وهو يخرج وحده . ولكن إن قال العبد : أحب سيدى وامرأتى وأولادى لا أخرج حرا . يقدمه سيده إلى الله ويقدمه إلى الباب أو القائمة ويثقب سيده أذنه بالمثقب

---

(١) الحج ٣٧

فيخدمه إلى الأبد . وإذا باع رجل ابنته أمة لا تخرج كما يخرج العبيد . إن قبحت فى عينى سيدها الذى خطبها لنفسه يدعها تفك . وليس له سلطان أن يبيعها لقوم أجانب لغدره بها . وإن خطبها لابنه فبحسب حق البنات يفعل لها . إن اتخذ لنفسه أخرى لا ينقص طعامها وكسوتها ومعاشرتها . وإن لم يفعل لها هذه الثلاث تخرج مجانا بلا ثمن .

من ضرب إنسانا فمات يقتل قتلا . ولكن الذى لم يتعمد بل أوقع الله فى يده فأنا أجعل له مكانا يهرب إليه . وإذا بغى إنسان على صاحبه ليقتله بغدر فمن مذبحى نأخذه للموت . ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا . ومن سرق إنسانا وباعه أو وجد فى يده يقتل قتلا . ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلا . وإذا تخاصم رجلان فضرب أحدهما الآخر بحجر أو بلكمة و لم يقتل بل سقط فى الفراش . فإن قام وتمشى خارجا على عكازه يكون الضارب بريئا ... » .

والذى يهمنا من هذه الأحكام أن الشريعة الموسوية قد أقرت الرق وأباحت بيع العبرانى وأن يبيع الرجل ابنته ، بل إننا نجد فى مستهل الإصحاح الثانى والعشرين من هذا السفر أن السارق يباع بسرقته ، فما بال الكتاب اليهود والمسيحيين الحاقدين على الإسلام يهاجمونه فى ضراوة لأنه لم يلغ الرق طفرة ؟ .

لم يشأ الإسلام أن يلغى الرق بأمر يحرمه لأنه وجد فى ذلك زعزعة للحياة الاقتصادية السائدة وخاف أن يلقى بمسنين وعجزة لم يعرفوا غير بيوت ساداتهم فى الطرقات دون شفقة ، فسن من القواعد ما يجفف جميع روافد الرق و لم يستحدث رافدا واحدا يزيد مشكلة الرق تعقيدا . ولو طبق الإسلام بعيدا عن هوى الحكام لقضى على الرق قضاء مبرما فى ثلاثة أجيال على الأكثر ، و لم يسمح الإسلام ببيع الآباء للأبناء كما سمحت أحكام الرب التى

كتبها أحبار اليهود فى المنفى، و لم يقرر أن السارق يمكن فى بعض الحالات أن يباع بسرقته ، بل حكم بقطع يد السارق ليكون عبرة لغيره ، أما حرية الفرد فلم يصادرها الإسلام مهما كانت الأسباب .

ونلاحظ أن جميع الأحكام الواردة فى الإصحاح الحادى والعشرين والإصحاح الثانى والعشرين من سفر الخروج لا تختلف فى كثير ولا قليل عن القوانين التى كانت سائدة فى بابل فى عصر تدوين التوراة ، حتى الذى يغتصب عذراء يطبق عليه ما كان يطبق على فاعل ذلك فى العراق : « وإذا راود رجل عذراء لم تخطب فاضطجع معها يمهرها لنفسه زوجة . إن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر العذارى ... كل من اضطجع مع بهيمة يقتل قتلا . من ذبح لآلهة غير الرب وحده يهلك » .

من يضطجع مع بهيمة يقتل قتلا أما من يضطجع مع عذراء فيعطى لأبيها من الفضة مهر عذراء ! إنه لا يجلد إذا كان غير محصن ولا يرجم إذا كان محصنا ، و لم الجلد والرجم ما دام سيدفع الثمن بالفضة ؟ وبماذا يصرح له يا ترى لو كان الدفع بالذهب ؟!

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى لا يستطيعون أن يغمضوا أعينهم عن الذهب والفضة وإن إلٰههم يبهره الذهب والفضة . انظر إليه وهو يحدث موسى عليه السلام لما ذهب لميقات ربه :

« وكلم الرب موسى قائلا : كلم بنى إسرائيل أن يأخذوا لى تقدمة . من كل من يحثه قلبه تأخذون تقدمتى . وهذه هى التقدمة التى تأخذونها منهم : ذهب وفضة ونحاس وأسمانجونى وأرجوان وقرمز وبوص وشعر معزى وجلود كباش محمرة وجلود تُخس وخشب شنط وزيت للمنارة وأطياب لدهن المَسْحة وللبخور العطر وحجارة جزْع وحجارة ترصيع للرداء والصدرة ،

فيصنعون لى مَقدسا لأسكن فى وسطهم » .

ذهب وفضة ونحاس وأرجوان وقرمز وشعر وجلود . لماذا كل هذا ؟ ليصنعوا للرب مسكنا مقدسا ليسكن وسطهم وحدهم ، أما باقى العالم فما ضره لو عاش بلا إله . إنه إله بنى إسرائيل وحدهم . لهم تشرق الشمس ويتألق القمر وتنبت الأرض حبا وتمطر السماء ، أما باقى البشرية فهم عبيد لهم ، ليس لهم أن يسألوا الله أو يتوكلوا عليه ، فغرور الذين كتبوا التوراة فى المنفى أعماهم عن معرفة كنه الله سبحانه وتعالى وما قدروا الله حق قدره ، فبنوا له مسكنا ماديا ليعيش فى وسطهم سبحانه وتعالى عما يصفون . والآن لنر ذلك المسكن الذى بنوه لله : « بحسب جميع ما أنا أريك من مثال المسكن ومثال جميع آنيته هكذا تصنعون . فيصنعون تابوتا من خشب السنط طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف وتغشّيه بذهب نقى . من داخل ومن خارج تُغشيه . وتصنع عليه إكليلا من ذهب حواليه . وتَسبك له أربع حلقات من ذهب وتجعلها على قوائمه الأربع . على جانبه الواحد حلقتان وعلى جانبه الثانى حلقتان . وتصنع عصوين من خشب السنط وتغشيهما بذهبٍ وتدخِل العصوين فى الحلقات على جانبى التابوت ليحمل التابوت بهما . تبقى العصوان فى حلقات التابوت . لا تنزعان منها . وتضع فى التابوت الشهادة التى أعطيك .

وتصنع غطاء من ذهب نقى طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف ، وتصنع كَرُوبين من ذهب صنعة خراطة تضعهما على طرفى الغطاء . فاصنع كروبا واحدا على الطرف من هنا وكروبا آخر على الطرف من هناك . من الغطاء تضعون الكروبين على طرفيه ويكون الكروبان باسطين أجنحتهما إلى فوق مظللين بأجنحتهما على الغطاء ووجهاهما كل واحد إلى

الآخر . نحو الغطاء يكون وجها الكروبين ..

وأراه الله كيف يصنع مائدة من خشب السنط ، وكيف يصنع منارة من ذهب نقى ، وذكر له تفصيلات مهندس فى مصنع ، وإن المرء يتساءل أكان ذهاب موسى لميقات ربه ليسمع منه كيف يصنع تابوتا صنع آلافا مثله قدماء المصريين والآشوريين والبابليين ؟ وفيم كان حرص الإله على أن يكون كل شيء من الذهب ؟ إنه حرص الأذلاء الذين كانوا أسرى فى بابل يحلمون بالذهب ، وحاشا لله أن يكون هكذا ماديا كملوك الأرض يحتفل بالذهب وبالنقوش .

واستمر الله الذى تصوره كتبة التوراة يصف لموسى وهو يناجيه خلال الأربعين يوما كيف يصنع سرج المنارة السبعة من ذهب نقى ، وكيف الأوانى من وزنة ذهب نقى ، وكيف يصنع خيمة الاجتماع . ووصاه بأن يقرب أخاه إليه وبنيه معه من بين بنى إسرائيل ، وأن يصنع ثيابا مقدسة لهارون . وراح يصف فى إسهاب صفة الثياب المقدسة فهو إله مادى يهمه المظهر والذهب النقى ولا علاقة له بالقلوب ، ثم نصب ذاك الإله هارون ليكون كاهنا للرب وجعل هذه الكرامة وراثة فى بنيه ، ثم راح يصف ما يفعل بهم ليستحقوا الكهانة المقدسة : « وهذا ما تصنعه لهم لتقديسهم ليكهنوا لى : خذ ثورا واحدا ابن بقر ، وكبشين صحيحين ، وخبز فطير ، وأقراص فطير ملتوتة بزيت ، ورقاق فطير مدهونة بزيت ، من دقيق حنطة تصنعها وتجعلها فى سلة واحدة وتقدمها فى السلة مع الثور والكبشين .

وتُقدِّم هارون وبنيه إلى باب خيمة الاجتماع وتغسلهم بماء ، وتأخذ الثياب وتلبس هارون القميص وجبة الرداء والرداء والصدرة ، وتشده بزنار الرداء وتضع العمامة على رأسه وتجعل الإكليل المقدس على العمامة (الإكليل المقدس

من الذهب النقى) ، وتأخذ دهن المسحة وتسكبه على رأسه وتمسحه وتقدم بنيه وتلبسهم أقمصة ومنطقهم بمناطق هارون وبنيه ، وتشد لهم قلانس . فيكون لهم كهنوت فريضة أبدية ، وتملأ يد هارون وأيدى بنيه .

وتقدم الثور إلى قدام خيمة الاجتماع فيضع هارون وبنوه أيديهم على رأس الثور ، فتذبح الثور أمام الرب عند باب خيمة الاجتماع ، وتأخذ من دم الثور وتجعله على قرون المذبح بأصبعك ، وسائر الدم تصبه إلى أسفل المذبح ، وتأخذ كل الشحم الذى يغشى الجوف وزيادة الكبد والكليتين والشحم الذى عليهما وتوقدها على المذبح . وأما لحم الثور وجلده وفرثه فتحرقها بنار خارج المحلة هو ذبيحة خطية .

وأكتفى بهذا القدر ومن يشأ معرفة ما يجرى للكبش الأول والكبش الثانى وباقى المراسيم فليرجع إلى الإصحاح التاسع والعشرين من سفر الخروج .

ألا يذكرك ذلك بالزار ؟ أكان ذهاب موسى لميقات ربه ليسمع منه مثل هذا الكلام ؟ وهارون الذى نصبه الله كاهنا فى ذلك الوقت ماذا كان يصنع ؟ لنقرأ ما كتبه عنه الذين كتبوا التوراة فى المنفى : « ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه . فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتونى بها . فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها إلى هارون . فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلا مسبوكا . فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر . فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه . ونادى هارون وقال : غدا عيد الرب . فبكروا فى الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة . وجلس الشعب للأكل

والشرب ثم قاموا للعب » .

يقول الذين كتبوا التوراة فى المنفى إن هارون هو الذى صنع العجل ، فهل يا ترى نصبه الله كاهنا وجعل الكهانة فى بنيه إلى الأبد مكافأة له على أنه كان أول المشركين ؟! إنها صورة مهزوزة لا تقبل من قصاص فما بالك بأنبياء أحبهم اليهود حتى قالوا إن أحدهم ابن الله !

وقال الله فى محكم كتابه يروى ما كان من موسى وهارون ومن قوم موسى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين . ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين . سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون . واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سُقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين . ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم

وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين »[١] .

وبرأ القرآن الكريم هارون من صنع العجل ، فما كان لنبى أن يكون أول الكافرين : « فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى : قالوا ما أخلفنا موعدك بمَلكنا ولكنا حُملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى . فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلٰهكم وإله موسى فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا . ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعن أفعصيت أمرى ، قال يا ابن أمَّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل و لم ترقب قولى . قال فما خطبك يا سامرى . قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة منَ أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى . قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تُخلفه وانظر إلى إلٰهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا ، إنما إلٰهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما »[٢] .

وهكذا صور القرآن ما جرى بين موسى عليه السلام وربه سبحانه وتعالى ، أدب فى الخطاب وإله غفور ونبى يلتمس المغفرة لنفسه ولأخيه ، وشعب يطلب رحمة ربه ، أما كتبة التوراة فقد جعلوا رب إسرائيل

---

(١) الأعراف ١٤٢ — ١٥١ . (٢) طه ٨٦ — ٨٩ .

يثور فيؤنبه موسى على ثورته : « فقال الرب لموسى اذهب أنزل . لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر . زاغوا سريعا عن الطريق الذى أوصيتهم به . صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر . وقال الرب لموسى : رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة ، فالآن اتركنى ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم فأصيرك شعبا عظيما . فتضرع موسى أمام الرب إلٰهه وقال : لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذى أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة ؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين أخرجهم بخبث (حاشا لله) ليقتلهم فى الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض . ارجع عن حُمو غضبك واندم (حاشا لله) على الشر بشعبك . اذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم : أُكثّر لكم نسلكم كنجوم السماء ، وأعطى نسلكم كل هذه الأرض التى تكلمت عنها فيملكونها إلى الأبد . فندم الرب (حاشا لله) على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه » .

ولا بد أن نبرىء موسى عليه السلام من مثل هذا القول ، إنها أقوال أنبياء المنفى وأحلامهم فهم لا يفتئون يذكرون الوعد الذى اخترعوه ولا يكتفون بذلك بل يذكرون فى قحة رب العزة بذلك الوعد حتى يستقر ذلك الوهم فى وجدان كل من يقرأ التوراة . وقد صدق المسيحيون الذين يقرءون التوراة التى وضعت فى المنفى ذلك الزعم فما أجهدوا أنفسهم فى تمحيص تلك المزاعم ، وإن الذين أجهدوا أنفسهم قد كفروا بالدين وأنكروا وجود خالق لهذا الكون ، فالإله الذى وصفه الذين كتبوا التوراة فى المنفى أهون من أن يخلق ، ما دام بشر مهما كانت منزلته يؤنبه ثم يهديه إلى سبيل الرشاد .

وكان حوار بين الرب وموسى عليه السلام ، الرب يأمر موسى أن

ينطلق إلى الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيها لذريتهم ، ولكن الرب قرر أن لا ينطلق معهم ، فلما عرف القوم أن الله لن يكون معهم بكوا وكان حوار آخر بين الرب وموسى . وقبل الرب إكراما لموسى أن يسير مع بنى إسرائيل .

إن قارئ هذه الإصحاحات لا يمكن أن يتصور إلا أن الله سبحانه وتعالى رجل ، ففيها « ويكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه » . وفيها يقول الرب لموسى : « عرفتك باسمك » . « لأن الرب اسمه غيور . إله غيور هو » . وإن المرء ليتساءل : أأفعال بنى إسرائيل وعبادتهم العجل ونبى الله موسى لا يزال بينهم تستحق أن يعدهم الله أن يمنحهم أرض فلسطين إلى الأبد ؟ وماذا كان يعطيهم لو أنهم كانوا سامعين مطيعين ؟ إن ذلك الوعد لم يرد له ذكر فى القرآن المجيد ، فقد كان حلم اليهود الذين كانوا فى المنفى فدسه الذين كتبوا التوراة فى أرض السبى فى الإصحاحات والأسفار بمناسبة وبلا مناسبة لإيهام قارئ التوراة أنه وعد من الله ، وإن كثرة تكراره ليحمل فى طياته عوامل الشك فيه .

وقد ألبسوا موسى برقعا : « وكان لما نزل موسى من جبل سيناء ولوحا الشهادة في يد موسى عند نزوله من الجبل أن موسى لم يعلم أن جلد وجهه صار يلمع فى كلامه معه . فنظر هارون وجميع بنى إسرائيل موسى وإذا جلد وجهه يلمع فخافوا أن يقتربوا إليه . فدعاهم موسى فرجع إليه هارون وجميع الرؤساء فى الجماعة . فكلمهم موسى وبعد ذلك اقترب جميع بنى إسرائيل فأوصاهم بكل ما تكلم به الرب معه فى جبل سيناء . ولما فرغ موسى من الكلام معهم جعل على وجهه برقعا وكان موسى عند دخوله أمام الرب ليتكلم معه ينزع البرقع حتى يخرج ، ثم يخرج ويكلم بنى إسرائيل بما يوصى . فإذا رأى بنو

إسرائيل وجه موسى أن جلده يلمع كان موسى يرد البرقع على وجهه حتى يدخل ليتكلم معه » .

صورة حسية للتعبير عن أنوار اليقين ، ولما كانت جميع تعبيرات الذين كتبوا التوراة بأيديهم مادية فلم يخطر لهم على قلب أن يتغلغلوا فى الأفئدة للتعبير عن أنوار الإيمان التى تنعكس على الوجوه . وهل أنوار اليقين التى تشع من الوجوه تحتاج إلى برقع ؟! إنها أفكار رجال أفسدتهم أساطير الشعوب وما هى بوحى يوحى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أويرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىّ حكيم »(١) .

ويعود رب الذين كتبوا التوراة بأيديهم يتحدث عن الفطير كأنما مشاكل الدنيا والآخرة فطير وخمير ، ثم يتحدث عن أيام العمل الستة ويوم السبت المقدس وأن جزاء من يعمل فيه يقتل ، وينهاهم عن إشعال النار فى يوم السبت دون أن يبين حكمة ذلك كما لم يبين ما يعود على البشرية جمعاء من شرور من وجود الخمير فى الدور !

وينتهى سفر الخروج ويذكر سفر اللاويين طريقة تقديم القرابين إلى الرب ، ومنها يتضح أنه إله دموى يسره رائحة الشواء : « ويذبح العجل أمام الرب ويقرب بنو هارون الكهنة الدم ويرشون الدم مستديرا على المذبح الذى لدى باب خيمة الاجتماع » .

ولا أدرى ماذا يحدث لو أن الدم لم يرش مستديرا ، وما حكمة رشه ؟ ثم يذكر الرب طريقة شواء كل قربان : « ويسلخ المحرقة ويقطعها إلى قطعها ، ويجعل بنو هارون الكاهن نارا على المذبح ويرتبون حطبا على النار ، ويرتب بنو هارون الكهنة القطع مع الرأس والشحم فوق الحطب الذى على النار التى على المذبح ، وأما أحشاؤه وأكارعه فيغسلها بماء ويوقد الكاهن الجميع على

(١) الشورى ٥١

المذبح مُحرقة وقود رائحة سرور للرب » .

وراح رب الذين كتبوا التوراة بأيديهم يذكر فى تفصيل عجيب ما يُفعل بقربان الغنم والضأن وما يُفعل بقربان الدقيق . وماذا يفعل إذا كان القربان تقدمة من طاحن . والمهم أن الباقى من كل قربان هو لهارون وبنيه قدس أقداس من وقائد الرب وليس لفقراء بنى إسرائيل . فما خطر فقراء بنى إسرائيل للذين كتبوا توراة المنفى على قلب .

ويسرد سفر اللاويين ما يفعله الذى يخطئ سهوا وما يفعله الذى يخطئ وكان رئيس عمل ، وما يفعله الخائن إذا خان للتكفير عن خطيئته . إنه يأتى بثور ويضع يده على رأسه . وفى حالة خطيئة الكاهن فإن عليه أن يقرب ثورا صحيحا للرب ويذبح الثور أمام الرب ، ويأخذ الكاهن الممسوح من دم الثور ويدخل به خيمة الاجتماع ويغمس الكاهن إصبعه فى الدم وينضح من الدم سبع مرات أمام الرب لدى حجاب القدس . ويجعل الكاهن من الدم على قرون مذبح البخور العطر الذى فى خيمة الاجتماع أمام الرب ، وسائر دم الثور يصبه إلى أسفل مذبح المحرقة الذى لدى باب خيمة الاجتماع وجميع شحم ثور الخطيئة ينزعه عنه .. » .

الدم لله واللحم لبنى هارون . نفس ما كان يفعله كهنة مردوخ فى أرض بابل ، لم تكن الصدقات للفقراء والمساكين بل كانت للكهنة الأغنياء . ولا شك أن بنى هارون كانوا أغنى طوائف بنى إسرائيل ، وإن الغنى لدليل رضا الله على عبده عند الذين كتبوا بأيديهم توراة المنفى .

ومن عجب أن جعلت الكفارة من اختصاص الكاهن ، فهو يكفر عن الخطيئة إذا ما قدم الخاطئ الذبيحة . فمن ذا الذى لا يقدم ذبيحة إذا ما كانت كفارة عن آثامه ، « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم

ظالمون ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم.»(١) .

وأخذ الذين كتبوا التوراة بأيديهم فكرة النار الدائمة على المذبح من المجوس ، فقد احتل الإيرانيون العراق أيام أن كان اليهود فى أرض السبى . فالمجوس كانوا يبنون بيوتا للنار المقدسة وكان الهربذ وهو يقابل الكاهن فى الديانة اليهودية يقف وقد أخفى فمه برباط لكيلا تلوث أنفاسه النار ليغذى النار بقطع من الخشب طهرت تطهيرا دينيا ، مادا يده بحزمة الخشب المسوى والمهيأ طبقا لمراسم الدين ، مرتلا الأدعية الدينية . ووصايا رب الذين كتبوا التوراة بأيديهم لا تختلف عن تلك المراسم المتعلقة بشريعة المحرقة : « وكلم الرب موسى قائلا : أوص هارون وبنيه قائلا : هذه شريعة المحرقة ، هى المحرقة تكون على الموقدة فوق المذبح كل الليل حتى الصباح ، ونار المذبح تتقد عليه . ثم يلبس الكاهن ثوبه من كتان ويلبس سراويل من كتان على جسده ويرفع الرماد الذى صيرت النار المحرقة إياه على المذبح ويضعه بجانب المذبح ، ثم يخلع ثيابه ويلبس ثيابا أخرى ويخرج الرماد إلى خارج المحلة إلى مكان ظاهر والنار على المذبح تتقد عليه ولا تطفأ . ويشعل عليها الكاهن حطبا كل صباح ويرتب عليها المحرقة ويوقد عليها شحم ذبائح السلامة . نار دائمة تتقد على المذبح لا تطفأ » .

النار المقدسة عند المجوس تتأجج على الدوام ونار المحرقة تشتعل طوال الليل وطوال النهار . « نار دائمة تتقد على المذبح لا تطفأ » . ومن المؤكد أن الذين كتبوا التوراة فى المنفى أخذوا عن المجوس المراسيم الطويلة المعقدة ، فالأوستا

---

(١) آل عمران ١٢٨ ، ١٢٩ .

الساسانية تفيض بتفاصيل دقيقة عن المراسم المقدسة تكاد تكتم الأنفاس ضيقا بها ، وكذلك الحال مع توراة المنفى . وللفريسيين الذين ضاق السيد المسيح بتزمتهم كل العذر ما دام كتابهم المقدس قد نص على تفصيلات دقيقة عند عمل أى شيء و لم يترك فرصة للاجتهاد أو الاختيار : « ونيسرك لليسرى ، فذكر إن نفعت الذكرى »[1] . « قال رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى »[2] .

ويستمر سِفر اللاويين يفصل ما يفعله الكاهن هارون وبنوه فى ضحايا التكفير عن الخطايا ، ثم يكلم الرب هارون : « وكلم الرب هارون قائلا : خمرا ومسكرا لا تشرب أنت وبنوك معك عند دخولكم إلى خيمة الاجتماع » . فحرم عليهم الخمر أثناء القيام بوظائفهم الدينية . أما بعيدا عن بيت الرب فلهم مطلق الحرية فى أن يسكروا .

وراح رب الذين كتبوا التوراة فى المنفى يعلم بنى إسرائيل شريعة الولادة : « وكلم الرب موسى قائلا : كلم بنى إسرائيل قائلا : إذا حبلت امرأة وولدت ذكرا تكون نجسة سبعة أيام . كما فى أيام طمث علتها تكون نجسة ، وفى اليوم الثامن يختن لحم غرلته ، ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوما فى دم تطهيرها . كل شيء مقدس لا تمس ، وإلى المقدس لا تجئ حتى تكمل أيام تطهيرها . وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين كما فى طمثها ، ثم تقيم ستة وستين يوما فى دم تطهيرها » . لماذا هذا التفريق ؟ أولادة الذكر تختلف عن ولادة الأنثى ؟! أم أنها تجازى لأنها لم تنجب لبنى إسرائيل ذكرا محاربا مقاتلا يكون عونا لتنفيذ أحلام الذين كانوا فى المنفى ؟ « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا

---

(١) الأعلى ٨ ، ٩

(٢) طه ٢٥ ، ٢٩

وهو كظيم »[١] . « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور »[٢] ولم يفرق الإسلام بين الذكر والأنثى فى العمل والأجر : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة »[٣] . وما بال كتاب توراة المنفى بالجنة ؟ إن جنتهم أرضية : العودة إلى الأرض التى زعموا أن الله قد وهبها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب وذريته ، وحرم منها إسماعيل وذريته إكراما للذين جعلهم كتاب توراة المنفى يكفرون ورسول الله موسى عليه السلام فيهم !

ويستمر سفر اللاويين يحدد وظيفة الكاهن فى معاملة الأبرص ، ولا ينسى نصيب الكهنة من الأضاحى سواء أكانت ثيرانا أو كباشا أو معزا أو حتى عصافير فى كل عملية تطهير سواء أكانت تطهيرا من دنس أو نفاسة أو برص أو قرع .

ويتحدث سفر اللاويين عن الجماع : « وإذا حدث من رجل اضطجاع زرع يرحض كل جسده بماء ويكون نجسا إلى المساء » . ولماذا يكون نجسا ما دام قد تطهر ، ومتى يقوم بعبادته لله إذا كان سيستمر نجسا طوال النهار ؟! وإن حديثه عن المرأة فى المحيض يتسم بالقسوة ويدلل على شدة اهتمامه بالطهارة الخارجية ، الطهارة المادية ، أما طهارة النفس فلم يشغل رب الذين كتبوا التوراة نفسه بها ، فما أهميتها ما دامت السعادة كل السعادة فى حياتهم الأرضية : « وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دما فى لحمها فسبعة أيام تكون فى طمثها وكل من مسها يكون نجسا إلى المساء . وكل ما تضطجع عليه

---

(١) النحل ٥٨

(٢) الشورى ٤٩ (٣) النساء ١٢٤ .

فى طمثها يكون نجسا . وكل ما تجلس عليه يكون نجسا . وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا حتى المساء ، وكل من مس متاعا تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء . وإن كان على الفراش أو على المتاع الذى هى جالسة عليه عندما يمسه يكون نجسا إلى المساء . وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجسا سبعة أيام ، وكل فراش يضطجع عليه يكون نجسا » .

أحكام قاسية دفعت ببنى إسرائيل إلى طرد المرأة خارج الدار ما دامت فى حيضها لكيلا يقعوا فى كل هذه المحظورات أو فى بعضها . وقد سمع المسلمون من بنى إسرائيل فى المدينة وهم يزعمون أنهم من نسل الكاهن هارون هذه الأحكام فسألوا رسول الله — ﷺ — عن المحيض فأنزل الله تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾(١) . وقالت اليهود للمسلمين : « إن الرجل إذا أتى امرأته باركة كان الولد أحول . فأنزل الله تعالى : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين ﴾(٢) .

وكان الذين كتبوا التوراة فى المنفى حريصين على أن تكون الذبائح كلها بيد الكهنة حتى يضمنوا نصيبهم ، فجعلوا رب موسى يقول : « وكلم الرب موسى قائلا : كلم هارون وبنيه وجميع بنى إسرائيل وقل لهم هذا هو الأمر الذى يوصى به الرب قائلا كل إنسان من بيت إسرائيل يذبح بقرا أو غنما

---

(١) البقرة ٢٢٢

(٢) البقرة ٢٢٣

أو معزى فى المحلة أو يذبح خارج المحلة . وإلى باب خيمةالاجتماع لا يأتى به ليقرب قربانا للرب أمام مسكن الرب يحسب على ذلك الإنسان دم . قد سفك دما فيقطع ذلك الإنسان من شعبه . لكى يأتى بنو إسرائيل بذبائحهم التى يذبحونها على وجه الصحراء ويقدموها للرب إلى باب خيمة الاجتماع إلى الكاهن ويذبحوها ذبائح سلامة للرب ، ويرش الكاهن الدم على مذبح الرب لدى باب خيمة الاجتماع ويوقد الشحم لرائحة سرور للرب .. » . وجعلوا الدم كفارة عن النفس « .. لأن نفس الجسد هى فى الدم ، فأنا أعطيتكم إياه على المذبح للتكفير عن نفوسكم ، لأن الدم يكفر عن النفس » . وإن القرآن الكريم يقرر حقيقة تستريح إليها النفوس : « لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم »(١) .

وأخيرا تذكر رب الذين كتبوا التوراة فى المنفى المساكين والغرباء : « وعندما تحصدون حصيد أرضكم لا تكمل زوايا حقلك فى الحصاد . ولقاط حصيدك لا تلتقط وكرمك لا تعلله ونثار كرمك لا تلتقط . للمسكين والغريب تتركه ، أنا الرب إلهكم » .

ويستمر سفر اللاويين فى ذكر محارم الرجل والأحكام التى تطبق على الزانى والزانية وعلى الذين يأتون الذكران شهوة ثم يقول رب الكهان : « وإذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة تميتونها ، وإذا اقتربت امرأة إلى البهيمة لنزائها نميت المرأة والبهيمة . إنهما يقتلان . دمهما عليهما » .

وكان كهنة مردوخ فى بابل يحتِّمون أن تقدم القرابين لرب الأرباب كل صباح ومساء ، وكانت من لحوم البقر والخراف والبط والوز وكل ما لذ

---

(١) الحج ٣٧

و طاب . وقد أخذ عنهم الذين كتبوا التوراة فى المنفى فأسهبوا فى ذكر ما يقدم لرب إسرائيل من قرابين : « وكلم الرب موسى قائلا : أوصى بنى إسرائيل أن يقدموا إليك زيت زيتون مرضوض نقيا لإيقاد السرج دائما . خارج حجاب الشهادة فى خيمة الاجتماع يرتبها هارون من المساء إلى الصباح أمام الرب دائما فريضة دهرية فى أجيالكم . على المنارة الطاهرة يرتب السرج أمام الرب دائما .

وتأخذ دقيقا وتخبزه اثنى عشر قرصا . عُشْرَين يكون القرص الواحد وتجعلها صفين كل صف ستة على المائدة الطاهرة أمام الرب ، وتجعل على كل صف لبانا نقيا فيكون للخبز تذكارا وقودا للرب . فى كل يوم سبت يرتبه أمام الرب دائما من عند بنى إسرائيل ميثاقا دهريا . فيكون لهارون وبنيه فيأكلونه فى مكان مقدس ، لأنه قدس أقداس له من وقائد الرب فريضة دهرية » .

وللأسف عندما ترجمت التوراة إلى العربية ظن المسلمون بحسن قصد أن التوراة التى كتبت فى المنفى هى الكتاب الأول فأخذوا عنها دون تمحيص أو مقارنة بينها وبين أحكام القرآن ، فأخذوا عادة إنارة الشموع فى الأضرحة أسوة بزيت الزيتون المقدس الذى كان يضاء للرب ، كأن الرب نور السموات والأرض فى حاجة إلى ضياء زيت الزيتون النقى ، إنها عادة مجوسية انتقلت إلى بنى إسرائيل فى المنفى ثم انتقلت إلى المسلمين البسطاء الذين نذروا الشموع لأولياء الله الصالحين دون أن يخطر لهم على بال أن ما يفعلونه إن هو إلا ضرب من الوثنية .

وقد مزج الذين كتبوا التوراة فى المنفى بين قرابين البابليين وقرابين قدماء المصريين ، وقد عاش بنو إسرائيل فى مصر والعراق وتأثروا بديانة كل من القطرين . ففى مصر القديمة كان يوضع على موائد القربان فى كل يوم من أيام

السنة وبانتظام ٣٢٢٠ رغيفا من الخبز و ٢٤ قطعة من الكعك و ١٤٤ قدرا من الجعة و ٣٢ إوزة وبضعة قدور من النبيذ . وكانت هذه القرابين هدايا من أناس خيرين ثم أصبحت واجبا تقوم به الدولة ، وكانت هذه القرابين لإعانة الكهنة وخدمة المعبد ، وهى فى الشريعة اليهودية لإعانة الكهنة وخدمة خيمة الاجتماع . و لم تقل الشريعة ذلك صراحة بل جعلت القرابين فى بنى إسرائيل واجبا مقدسا أبدا .

و لم يلجأ رب الذين كتبوا التوراة فى المنفى إلى وعيد الذين لا ينفذون وصاياه بنار جهنم فقد نسوا الآخرة من طول معاشرتهم لأهل بابل ، بل جعل عذابه فى الدنيا « .. لكن إن لم تسمعوا لى و لم تعملوا كل هذه الوصايا . وإن رفضتم فرائضى وكرهت أنفسكم أحكامى فما عملتم كل وصاياى بل نكثتم ميثاقى ، فإنى أعمل هذه بكم : أسلط عليكم رعبا وسيلا وحمى تفنى العينين وتتلف النفس وتزرعون باطلا زرعكم فيأكله أعداؤكم . وأجعل وجهى ضدكم فتنهزمون أمام أعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتهربون وليس من يطردكم .

وإن كنتم مع ذلك لا تسمعون لى أزيد على تأديبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فأحطم فَخار عزكم وأصير سماءكم كالحديد وأرضكم كالنحاس ، فتفرغ باطلا قوتكم وأرضكم لا تعطى غلتها وأشجار الأرض لا تعطى أثمارها .

وإن سلكتم معى بالخلاف و لم تشاءوا أن تسمعوا لى أزيد عليكم ضربات سبعة أضعاف حسب خطاياكم . أطلق عليكم وحوش البرية فتعدمكم الأولاد وتقرض بهائمكم وتقللكم فتوحش طرقكم .

وإن لم تتأدبوا منى بذلك بل سلكتم معى بالخلاف ، فإنى أنا أسلك معكم

بالخلاف وأضربكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم أجلب عليكم سيفا ينتقم نقمة الميثاق فيجتمعون إلى مدنهم وأرسل فى وسطكم الوبأ فتُدفعون بيد العدو . بكسرى لكم عصا الخبز تخبز عشر نساء خبزكم فى تنور واحد ويرددن خبزكم بالوزن فتأكلون ولا تشبعون .

وإن كنتم بذلك لا تسمعون لى ، بل سلكتم معى بالخلاف ، فأنا أسلك معكم بالخلاف ساخطا وأؤدبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فتأكلون لحم بنيكم ولحم بناتكم تأكلون . وأخرب مرتفعاتكم وأقطع شمساتكم وألقى جثثكم على جثث أصنامكم وترذلكم نفسى . وأصير مدنكم خربة ومقادسكم موحشة ولا أشتم رائحة سروركم وأوحش الأرض فتوحش منها أعداؤكم الساكنون فيها وأذريكم بين الأمم وأجرد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم تصير خرابة . حينئذ تستوفى الأرض سبوعها كل أيام وحشتها وأنتم فى أرض أعدائكم . حينئذ تسبت الأرض وتستوفى سبوعها . كل أيام وحشتها تسبت ما لم تسبته من سبوتكم فى سكنكم عليها . والباقية منكم ألقى الجبانة فى قلوبهم فى أراضى أعدائهم فيهزمهم صوت ورقة مندفعة فيهربون كالهرب من السيف ويسقطون وليس طارد . ويعثر بعضكم ببعض كما من أمام السيف وليس طارد . ولا يكون لكم قيام أمام أعدائكم . فتهلكون بين الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم والباقون منكم يفنسون بذنوبهم فى أراضى أعدائكم . وأيضا بذنوب آبائهم يفنون . ولكن إن أقروا بذنوبهم وذنوب آبائهم فى خيانتهم التى خانونى بها وسلوكهم معى الذى سلكوا بالخلاف وإنى أيضا سلكت معهم بالخلاف وأتيت بهم إلى أرض أعدائهم إلا أن تخضع حينئذ قلوبهم الغلف ويستوفوا حينئذ عن ذنوبهم . أذكر ميثاقى مع يعقوب أذكر أيضا ميثاق مع إسحاق وميثاق مع إبراهيم وأذكر

الأرض والأرض تترك منهم وتستوفى سبوعها فى وحشتها منهم وهم يستوفون عن ذنوبهم لأنهم قد أبوا أحكامى وكرهت أنفسهم فرائضى ولكن مع ذلك أيضا متى كانوا فى أرض أعدائهم ما أبيتهم ولا كرهتهم حتى أبيدهم وأنكث ميثاقى معهم ، لأنى أنا الرب إلـٰههم ، بل أذكر لهم الميثاق مع الأولين الذين أخرجتهم من أرض مصر أمام أعين الشعوب لأكون لهم إلـٰها . أنا الرب .

هذه هى الفرائض والأحكام والشرائع التى وضعها الرب بينه وبين بنى إسرائيل فى جبل سيناء بيد موسى » .

هكذا يقول الذين كتبوا التوراة فى المنفى ، والحقيقة أنهم كانوا يصورون حالتهم وهم أذلة فى أرض السبى . إنهم كانوا يعتقدون أن ما نزل بهم من عار إنما سببه أنهم عصوا أوامر الله ، ولما كانوا يؤمنون بالجزاء الأرضى فقد جعلوا وعيد الله كله فى الدنيا وليس من المقبول ولا المعقول أن رب موسى لا يذكر الآخرة ويوم الحساب ، ورب عيسى عليه السلام يذكر يوم الدين وجنات النعيم : « وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار »(١) . « ... من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار . تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما

---

(١) المائدة ٧٢

مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوّا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب »(١) . « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب »(٢) . « ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنّا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون »(٣) .

ما من رسول إلا ودعا قومه إلى عبادة الله وحده والإيمان بالبعث والنشور واليوم الآخر ، فعيسى عليه السلام دعا فى الإنجيل بنى إسرائيل إلى الإيمان بالله ويوم الدين ، والقرآن يؤكد أن موسى عليه السلام دعا بنى إسرائيل إلى الإيمان بالله وخوفهم نار جهنم وبشرهم بالجنة التى أعدت للمتقين . فهل يعقل أن رب بنى إسرائيل لم يذكر الثواب والعقاب فى الآخرة لما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه ؟ « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين »(٤) .

ويأتى بعد ذلك سفر العدد وفيه يأمر الله موسى بأن يحصى كل جماعة بنى

---

(١) غافر ٤٠ — ٤٦

(٢) الشورى ١٤ .

(٣) الأعراف ١٥٤ — ١٥٦

(٤) الجمعة ٥ .

إسرائيل بعشائرهم وبيوت آبائهم ، والإحصاء مقصور على الرجال الذين بلغوا العشرين فصاعدا للخروج للحرب ، وحتى لا يغفل موسى عليه السلام عن بيت من بيوت أسباط بني إسرائيل يحدد الله رأس كل بيت . وعدّ موسى عليه السلام وهارون ورؤساء إسرائيل الاثنا عشر رجلا الرجال الذين بلغوا العشرين فكانوا ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين . وقد جامل رب الذين كتبوا التوراة سبط لاوى لأن موسى وهارون منهم ، قال : « أما سبط لاوى فلا تحسبه ولا تعده بين بنى إسرائيل ، بل وَكّل اللاويين على مسكن الشهادة وعلى جميع أمتعته وعلى كل ماله . هم يحملون المسكن وكل أمتعته وهم يخدمونه وحول المسكن ينزلون ، فعند ارتحال المسكن يُنزِّله اللاويون ، وعند نزول المسكن يقيمه اللاويون . والأجنبى الذى يقترب يقتل وينزل بنو إسرائيل كلّ فى محلته وكل عند رايته بأجنادهم . وأما اللاويون فينزلون حول مسكن الشهادة لكى لا يكون سخط على جماعة بنى إسرائيل فيحفظ اللاويون شعائر مسكن الشهادة . ففعل بنو إسرائيل حسب كل ما أمر الرب موسى . كذلك فعلوا » .

وهذا الإصحاح قد أعفى اللاويين من الحرب وخصصهم خيمة الاجتماع ، ولم يشرع القرآن مثل هذا الشرع فلم يعف قريشا ولا الهاشميين من الحرب لأنهم خدمة بيت الله . بل إن قريشا والهاشميين كانوا على الدوام فى صفوف المقاتلين لإعلاء كلمة الدين ، فالحرب المقدسة جهاد والشهداء فى عليين ، وما خطر ذلك على قلب الذين كتبوا توراة فقد أسقطوا جزاء الآخرة من حسابهم .

وراحت إصحاحات العدد تسرد مواليد هارون وموسى يوم كلم الرب موسى فى برية سيناء : « عد بنى لاوى حسب بيوت آبائهم وعشائرهم . كل

ذكر من ابن شهر فصاعدا تعدهم ، فعدهم موسى حسب قول الرب كما أمر »
وأخذ الرب اللاويين له و لم يفرق بين صالح وطالح ، وما كانت العدالة الإلٰهية لتصطفى طبقة بالميراث : « وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن قال : إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين »[1] .

وكلم الرب موسى قائلا : « كلم بنى إسرائيل وقل لهم إذا زاغت امرأة رجل وخانته خيانة واضطجع معها رجل اضطجاع زرع ، وأخفى ذلك عن عينى رجلها واستترت وهى نجسة وليس شاهد عليها وهى لم تؤخذ ، فاعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهى نجسة أو اعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهى ليست نجسة ، يأتى الرجل وامرأته إلى الكاهن ويأتى بقربانها معها عُشر الإيفة من طحين شعير لا يصب عليه زيتا ولا يجعل عليه لبانا لأنه تقدمة غيرة وتقدمة تذكار تذكر ذنبا . فيقدمها الكاهن ويوقفها أمام الرب . ويأخذ الكاهن ماء مقدسا فى إناء خزف ويأخذ الكاهن من الغبار الذى فى أرض المسكن ويجعل فى الماء . ويوقف الكاهن المرأة أمام الرب ويكشف رأس المرأة ويجعل فى يديها تقدمة التذكار التى هى تقدمة الغيرة وفى يد الكاهن يكون ماء اللعنة المر . ويستحلف الكاهن المرأة ويقول لها : إن كان لم يضطجع معك رجل وإن كنت لم تزيغى إلى نجاسة من تحت رجلك فكونى بريئة من ماء اللعنة هذا المر ، ولكن إن كنت قد زغت من تحت رجُلك ونجست وجعل معك رجل غير رجُلك مضجَعة . يستحلف الكاهن المرأة بحلف اللعنة ويقول الكاهن للمرأة: يجعلك الرب لعنة وحلفا بين شعبك بأن يجعل الرب فخذك ساقطة وبطنك وارما . ويدخل ماء اللعنة هذا فى أحشائك لورم البطن

---

(١) البقرة ١٢٤

ولإسقاط الفخذ . فتقول المرأة : آمين .. آمين . ويكتب الكاهن هذه اللعنات فى كتاب ثم يمحوها فى الماء المر . ويسقى المرأة ماء اللعنة المر فيدخل فيها ماء اللعنة للمرارة . ويأخذ الكاهن من يد المرأة تقدمة الغيرة ويردد التقدمة أمام الرب ويقدمها إلى المذبح . ويقبض الكاهن من التقدمة تذكارها ويوقده على المذبح وبعد ذلك يسقى المرأة الماء . ومتى سقاها الماء فإن كانت قد تنجست وخانت رجلها يدخل فيها ماء اللعنة للمرارة فيرم بطنها ويسقط فخذها فتصير المرأة لعنة فى وسط شعبها . وإن لم تكن المرأة قد تنجست بل كانت طاهرة تتبرأ أو تحبل بزرع .

هذه شريعة الغيرة : « إذا زاغت امرأة من تحت رجلها وتنجست أو إذا اعترى رجلا روح غيرة فغار على امرأته يوقف المرأة أمام الرب ويعمل لها الكاهن كل هذه الشريعة فيتبرأ الرجل من الذنب وتلك المرأة تحمل ذنبها » .

كان البابليون إذا ما شكوا فى أن المرأة قد زنت يلقونها فى النهر ، فإذا كانت قد ارتكبت جريمة الزنا فالنهر يبتلعها ، وإذا كانت بريئة فإن النهر يلفظها ، وقد أخذ كتاب التوراة فى المنفى الفكرة وطوروها بما فيه مصلحة الكاهن ، وحاشا لله أن يكون ذلك كلامه . إن الله سبحانه وتعالى يقول فى محكم كتابه : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم . والذين يرمون أزواجهم و لم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾[1] . ولا يعرف الإسلام مؤاخذة الناس على الظن . بل إنه يعتبر

(١) النور ٤ — ٩

أن بعض الظن إثم ولن يفر أحد من قصاص الله إن أخطأ و لم ينل العذاب فى الدنيا ، فعذاب الآخرة يتربص به . أما فى شرائع الغيرة التى وضعها حكماء صهيون فى أرض المنفى فإن من يهرب من عذاب الدنيا فلا خوف عليه من عذاب الآخرة ، فإنه بعد أن يموت لن يبعث وسيذهب إلى « شول » الأرض التى لا رجعة منها .

وراح رب الذين كتبوا التوراة فى المنفى يشرح لموسى شريعة النذير : « وهذه شريعة النذير يوم تكمل أيام انتذاره يؤتى به إلى باب خيمة الاجتماع فيقرب قربانه للرب خروفا واحدا حوليا صحيحا مُحرقة ، ونعجة واحدة حولية صحيحة ذبيحة خطية ، وكبشا وادا صحيحا ذبيحة سلامة ، وسل فطير من دقيق أقراصا ملتوتة بزيت رقاق فطير مدهونة بزيت مع تقدمتها وسكائبها ، فيقدمها الكاهن أمام الرب ويعمل ذبيحة خطيّته ومُحرقته . والكبش يعمله ذبيحة سلامة للرب مع سل الفطير ، ويعمل الكاهن تقدمته وسكينته ، ويحلق النذير لدى باب خيمة الاجتماع رأس انتذاره ويأخذ شعر رأس انتذاره ويجعله على النار التى تحت ذبيحة السلامة . ويأخذ الكاهن الساعد مسلوقا من الكبش وقرص فطير واحدا من السل ورقاقة فطير واحدة ويجعلها فى يدى النذير بعد حلقه شعر انتذاره ويرددها الكاهن ترديدا أمام الرب . إنه قدس للكاهن مع صدر الترديد وساق الرفيعة ، وبعد ذلك يشرب النذير خمرا » .

هذه شريعة النذير الذى ينذر قربانه للرب عن انتذاره فضلا عما تنال يده حسب نذره الذى نذر كذلك يعمل حسب شريعة انتذاره .

وكلم الرب موسى قائلا : « كلم هارون وبنيه قائلا : هكذا تباركون بنى إسرائيل قائلين لهم : يباركك الرب ويحرسك ، يضئ الرب بوجهه عليك

ويرحمك . يرفع الله وجهه عليك ويمنحه سلاما ، فيجعلون اسمى على بنى إسرائيل وأنا أباركهم » .

أيسمح الرب بشرب الخمر على باب خيمة الاجتماع . على باب بيته ولماذا حرم شرب الخمر داخل خيمة الاجتماع ؟ إذا كانت الخمر رجسا من عمل الشيطان فكيف يفرق إله بين شربها فى بيته وشربها على باب بيته ؟ ! والذبائح والفطائر ماذا يفعل بها الإله ؟ إن الأصل فى الذبيحة أن تكون وسيلة للتوسعة على الفقراء فإذا بها تنقلب فى شرع الذين كتبوا التوراة فى المنفى إلى توسعة على الكهنة وقد كان فيهم كهنة من نسل هارون ، وقد جعلوه الكاهن الأول ليكون لهم حق ممارسة الكهانة بالوراثة لينالوا خير الدنيا ، وقد تأثر كثير من كتاب المسلمين عقب ترجمة التوراة إلى العربية بتلك المزاعم فقالوا دون دراسة أو تمحيص إن اليهود الذين كانوا فى يثرب وخيبر وتيماء من نسل هارون الكاهن ، ولم يرجعوا إلى القرآن الكريم ليروا مكانة هارون الحقيقية فى أيام موسى كليم الله ، وهل اعترف كتاب الله بهذه الكهانة التى افتراها بعض أحبار اليهود ؟ لقد كان الإسلام هو الدين الذى يدعو إليه جميع الأنبياء ولم يجعل الله لطبقة دون طبقة من البشر حق ممارسة شعائر الدين باسمه ، فليس من الدين فى شىء أن يكتسب أناس رزقهم باسم الدين . ولو كان ذلك مما شرع الله لكان أولى الناس بالاكتساب من ممارسة الشعائر الدينية أبو بكر الصديق خليفة رسول الله — ﷺ — والخلفاء الراشدون من بعده ، ولكنهم أبوا أن يأخذوا من بيت مال المسلمين شيئا إلا كسوة للشتاء وكسوة للصيف وما يطعم منه أوساط المسلمين . ولم يكن ذلك لقاء قيامهم بشعائر الدين بل لأنهم انقطعوا عن العمل ليسوسوا أمور المسلمين وليحكموا بينهم بما أنزل الله .

ويستمر سفر العدد يروى ألوان القرابين التى تقدم على مذبح الرب ،

أطباقا من فضة وزن الواحد منها ١٣٠ شاقلا من فضة ، وصحونا من ذهب وزن الواحد منها عشرة شواقل من ذهب ، وثيران وأبقار وكباش لعل ذلك يغرى المؤمنين على تقديم مثلها للكهنة من بنى هارون ، وكما هى عادة البشر جاء موسى عليه السلام بالرسالة وتاجر بالرسالة بنو هارون أو الذين زعموا أنهم من نسل هارون .

« وكلم الرب موسى قائلا : اصنع لك بوقين من فضة مسحولين تعملهما فيكونان لك لمناداة الجماعة ولارتحال المحلات ، فإذا ضربوا بها يجتمع إليك كل الجماعة إلى باب خيمة الاجتماع ، وإذا ضربوا بواحد يجتمع إليك رءوس ألوف إسرائيل ، وإذا ضربتم هتافا ترتحل المحلات النازلة إلى الشرق وإذا ضربتم هتافا ثانية ترتحل المحلات النازلة إلى الجنوب . هتافا يضربون لرحلاتهم . وأما عندما تجمعون الجماعة فتضربون ولا تهتفون . وبنو هارون الكهنة يضربون بالأبواق ، فتكون لكم فريضة أبدية فى أجيالكم. وإذا ذهبتم إلى حرب فى أرضكم على عدو يضربكم تهتفون بالأبواق فتذكرون أمام الرب إلٰهكم وتخلصون من أعدائكم ، وفى يوم فرحكم وفى أعيادكم ورءوس شهوركم تضربون بالأبواق على محرقاتكم وذبائح سلامتكم فتكون لكم تذكارا أمام إلٰهكم . أنا الرب إلٰهكم » .

ما من شيء رآه بنو إسرائيل فى مصر الفرعونية أو فى بابل أو فى أرض كنعان إلا وقد جعله الذين كتبوا التوراة فى المنفى وصية من الله إلى شعبه المختار . إن النفخ فى البوق لجمع الجيوش أو لتحريكها كان أمرا معروفا فى الأسرات الفرعونية التى سبقت ورود يوسف الصديق إلى مصر ، ولكن الذين سلبوا ثقافة الشعوب الذين نزلوا بين ظهرانيها أبوا إلا أن يجعلوا حتى النفخ فى البوق منحة إلٰهية لبنى إسرائيل ، وجعلوا الله — سبحانه وتعالى علوا كبيرا عما

يصفون — يهتم بصغائر الأمور . إنه سبحانه وتعالى يأمر موسى عليه السلام ليصنع لنفسه بوقين من فضة — وماذا كان يحدث لو أن البوقين كانا من أى معدن آخر ؟ — لمناداة الجماعة ولارتحال المحلات . أكان هذا شيئا جديدا حتى يستحق أن يوصى به رب بنى إسرائيل شعبه ؟ إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى عز عليهم أن يدعوا فضلا لأحد من كلاب البشرية ممن كانوا أكثر حضارة منهم ، فزعموا أن الله شرع لهم كل شيء حتى التافه من الأمور ليدخلوا فى روع أنفسهم قبل أن يدخلوا فى روع الناس أن الله فضلهم على العالمين ، وقد كانوا فى حاجة إلى ذلك الوهم فقد كانوا أسرى أذلاء يتطلعون إلى العودة إلى فلسطين .

جاء فى القرآن الكريم : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين »(١) . وقد كان ذلك التفضيل يوم أن كانوا سامعين ومطيعين وفضلهم على العالمين بأن بعثهم من بعد موتهم لعلهم يشكرون ، أما وقد طال عليهم العهد ونسوا ما شرع الله لهم ثم أخذوا شرائع الشعوب وقالوا إن ذلك من عند الله ، فلا فضل ولا تفضيل . « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون »(٢) .

وجاء فى القرآن الكريم فى شأن المسلمين : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون »(٣) . أما وأن المسلمين لا

---

(١) البقر ٤٧ (٢) البقرة ٥٩
(٣) آل عمران ١١٠

يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ولا يؤمنون بالله أو يؤمنون وهم على ضلالتهم يحافظون فلا فضل ولا تفضيل : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين »(١) .

وجعل الذين كتبوا التوراة فى المنفى الرب ينزل فى عمود من سحاب ويصعد فى عمود من سحاب ، فحدّدوا للرب مكانا ، ومن قبل جعلوه يمشى فى الجنة ، بل جعلوه فى بعض الأحيان لا يسمع نجواهم : « وكان الشعب كأنهم يشتكون شرا فى أذنى الرب » . بل إنهم جعلوا يعقوب (إسرائيل) يصارع الرب كما صارع مردوخ الأرباب قبل أن ينصَّب عليهم ربا للأرباب ، وكأنما كان الرب خطيبا يخاطب كل شعب إسرائيل .

وما أكثر ما حمى غضب الرب ونزل فى سحابة ليوبخ الذين حل عليهم غضبه : « وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التى اتخذها ، لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية ، فقالا : هل كلم الرب موسى وحده ؟ ألم يكلمنا نحن أيضا ؟ فسمع الرب ، وأما الرجل موسى فكان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض .

فقال الرب حالا لموسى وهارون ومريم : اخرجوا أنتم الثلاثة إلى خيمة الاجتماع . فخرجوا هم الثلاثة . فنزل الرب فى عمود سحاب ووقف فى باب الخيمة ودعا هارون ومريم فخرجا كلاهما . فقال اسمعا كلامى . إن كان منكم نبى للرب فبالرؤيا أستعلن له فى الحلم أكلمه . أما عبدى موسى فليس هكذا بل هو أمين فى كل بيتى . فما إلى فم وعيانا أتكلم معه لا بالألغاز . وشِبه الرب يعاين ، فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدى موسى .

---

(١) آل عمران ١٠٨

فحمي غضب الرب عليهما ومضى . فلما ارتفعت السحابة عن الخيمة إذا مريم برصاء كالثلج ... » .

والقرآن الكريم لا يؤيد دعوى أن الله كان يكلم موسى كما يكلم الصديق وأنه كان يراه سبحانه وهو يكلمه . والقرآن يقول : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور »[١] .

وقد يحتج بآية : « وكلم الله موسى تكليما »[٢] . فإن ذلك الكلام من وراء حجاب والدليل على ذلك الآيات التى طلب فيها موسى أن يرى الله جهرة : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين »[٣] . فما دامت الرؤية قد تعذرت فكيف كان يكلم الله فَما إلى فم وكيف رأى الله عيانا ؟ إن الله كلم موسى تكليما من وراء حجاب . أما نزول الله فى السحاب وصعوده سبحانه وتعالى فى السحاب فهو تصور قاصر لله ، فالله فى كل مكان ، فإذا تصورنا أنه يصعد ويهبط فقد جعلنا

---

(١) الشورى ٥١ — ٥٣

(٢) النساء ١٦٤ (٣) الأعراف ١٤٣ — ١٤٤

له مكانا وما قدرنا الله حق قدره .

وقد سخر القرآن الكريم من فكرة مجىء الله فى ظلل من الغمام : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور »(١) .

وعاد الذين كتبوا التوراة فى المنفى يؤكدون وعد الله بأن يعطى بنى إسرائيل أرض فلسطين وإن كان ما فعلوه مع الله حسب ما يقول كتاب التوراة الجديدة يستحق أن ينزل بهم أشد أنواع العذاب لا أن يعطيهم أرضا لا حق لهم فيها . ولكنها أهواء أبناء الذين حملهم بختنصر إلى أرض العراق بعد أن حرق التوراة التى أنزلها الله على موسى نورا وهدى لبنى إسرائيل . « ثم كلم الرب موسى قائلا : أرسل رجالا ليتجسسوا أرض كنعان التى أنا معطيها لبنى إسرائيل . رجلا واحدا لكل سبط من آبائه ترسلون . كل واحد رئيس فيهم . فأرسلهم موسى من برية فاران حسب قول الرب . كلهم رجال هم رؤساء بنى إسرائيل .

فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان وقال لهم : اصعدوا من هنا إلى الجنوب واطلعوا إلى الجبل وانظروا الأرض ما هى ، والشعب الساكن فيها أقوى هو أم ضعيف ؟ قليل أم كثير ؟ وكيف هى الأرض التى هو ساكن فيها أجيدة أم رديئة . وما هى المدن التى هو ساكن فيها أمخيمات أم حصون ؟ . وكيف هى الأرض أسمينة أم هزيلة ؟ أفيها شجر أم لا ؟ وتشددوا فخذوا من ثمر الأرض وأما الأيام فكانت أيام العنب » .

أليس غريبا أن يأمر الرب موسى أن يرسل رجالا ليتجسسوا أرض كنعان

---

(١) البقرة ٢١٠

ليعرفوا إذا كانت أرضا طيبة مثمرة أو كانت أرضا بورا ؟ إن إبراهيم وذريته كانوا فى حبرون وكانوا فى أرض فلسطين قبل أن يهبط يعقوب وذريته مصر فى عهد يوسف الصديق ، فإن كان الله لا يعلم — وحاشا لله أن لا يعلم — طبيعة أرض فلسطين ، فإن الآباء لا بد أن يكونوا قد أخبروا الأبناء بطبيعة الأرض التى مروا بها ، وإلا فيم كان وعد الله ولماذا يتهلل بنو إسرائيل بالفرح بذلك الوعد إن كانوا لا يعرفون إن كانت أرض المعاد جيدة أو رديئة ؟! إن هذه التوراة قد كتبت بعد موسى عليه السلام بخمسمائة سنة تقريبا بعد أن كون داود وسليمان ملك بنى إسرائيل ودمر بختنصر ذلك الملك وحمل اليهود أسرى إلى أرض السبى ، فراح أبناء الذين كانوا أسرى فى العراق يعيدون كتابة التوراة ، فخرجوا ما وقر فى أذهانهم من ديانة موسى ومزجوها بأحلامهم وأساطير الشعوب .

وعاد الذين ذهبوا ليتجسسوا أرض كنعان إلى موسى وهارون وشيوخ بنى إسرائيل وهم يرتعبون فرقا من قوة خصومهم وأشاعوا روح الهزيمة فى الشعب : « فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة ، وتذمر على موسى وهارون جميع بنى إسرائيل وقال لهما كل الجماعة : ليتنا متنا فى أرض مصر أو ليتنا متنا فى هذا القفر . ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف . تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة . أليس خيرا لنا أن نرجع إلى مصر ؟ فقال بعضهم لبعض : نقيم رئيسا ونرجع إلى مصر .

فسقط موسى وهارون على وجهيهما أمام كل معشر جماعة بنى إسرائيل . ويشوع بن نون وكالب بن يفُنَّة من الذين تجسسوا الأرض فمزقا ثيابهما . وكَلَّما كل جماعة بنى إسرائيل قائلين : الأرض التى مررنا فيها لنتجسسها الأرض جيدة جدا جدا . إن سُر بنا الرب يدخلنا إلى هذه الأرض ويعطينا إياها

أرضا تفيض لبنا وعسلا .. إنما لا تتمردوا على الرب ولا تخافوا من شعب الأرض لأنهم خبزنا . قد زال عنهم ظلهم والرب معنا . لا تخافوهم .

ولكن قال كل الجماعة أن يُرجما بالحجارة (موسى وهارون) ثم ظهر مجد الرب فى خيمة الاجتماع لكل بنى إسرائيل . وقال الرب لموسى : حتى متى يهيننى هذا الشعب ، وحتى متى لا يصدقوننى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم ؟ إنى أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعبا أكبر وأعظم منهم . فقال موسى للرب : فيسمع المصريون الذين أُصعدت بقوتكم هذا الشعب من وسطهم ، ويقولون لسكان هذه الأرض الذين قد سمعوا أنك يا رب فى وسط هذا الشعب الذى أنت يا رب قذ ظهرت لهم عينا لعين وسحابتك واقفة عليهم وأنت سائر أمامهم بعمود سحاب نهارا وبعمود نار ليلا . فإن قتلت هذا الشعب كرجل واحد يتكلم الشعوب الذين سمعوا بخبرك قائلين : لأن الرب لم يقدر أن يدخل هذا الشعب إلى الأرض التى حلف لهم قتلهم فى القفر . فالآن لتعظم قدرة سيدى كما تكلمت قائلا : الرب طويل الروح كثير الإحسان يغفر الذنب والسيئة ، ولكنه لا يبرئ بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع . اصفح عن ذنب هذا الشعب كعظمة نعمتك وكما غفرت لهذا الشعب من مصر إلى ههنا . فقال الرب : قد صفحت حسب قولك . ولكن حى أنا فتملأ كل الأرض من مجد الرب . إن جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية وجربونى الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولى لن يروا الأرض التى حلفت لآبائهم . وجميع الذين أهانونى لا يرونها ..» .

إن كان هذا القول صحيحا ، أيستحق هذا الشعب وعد الله ؟! إنهم يرتجفون فرقا من لقاء عدوهم وما حبذ الحرب أحد منهم إلا يوشع بن نون

وكالب بن يفنَّة . أما الآخرون فقد اختاروا عبودية المصريين على القتال فى سبيل دخولهم الأرض المقدسة ، ولو طاوعهم موسى عليه السلام لعادوا إلى فرعون يزرعون أراضيه صاغرين : « وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين »(١) .

ثم يكلم الرب موسى عن الذبائح والنذور لعمل رائحة سرور للرب من البقر أو من الغنم . « ولما كان بنو إسرائيل فى البرية وجدوا رجلا يحتطب حطبا يوم السبت فقدمه الذين وجدوه يحتطب حطبا إلى موسى وهارون وكل الجماعة ، فوضعوه فى المحرس لأنه لم يعلن ماذا يفعل به . فقال الرب لموسى : قتلا يقتل الرجل يرجمه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة ، فأخرجه كل الجماعة إلى خارج المحلة ورجموه بحجارة فمات كما أمر الرب موسى » .

وعمل السيد المسيح فى السبت وسخر من شريعة السبت ، فليس من العدل أن يقتل إنسان لأنه احتطب يوم السبت أو قام بعمل فى ذلك اليوم .

---

(١) المائدة ٢٠ — ٢٥

وجاء فى القرآن الكريم : « إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون »[١] . « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون »[٢] .

« ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ، فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا »[٣] .

وعلى الرغم من كل ما فعله موسى عليه السلام لبنى إسرائيل فإنهم ثاروا عليه وعلى هارون فى البرية وقد غضب الله على الثائرين فأنزل عليهم عذابه ، فانشقت الأرض وبلعت الثائرين و لم يرض ذلك بنى إسرائيل : « فتذمر كل جماعة بنى إسرائيل فى الغد على موسى وهارون قائلين : أنتما قد قتلتما شعب الرب . ولما اجتمعت الجماعة على موسى وهارون انصرفا إلى خيمة الاجتماع وإذا هى قد غطتها السحابة وتراءى مجد الرب . فجاء موسى وهارون إلى قدام خيمة الاجتماع ، فكلم الرب موسى قائلا : اطلعا من وسط هذه الجماعة فإنى أفنيهم بلحظة ، فخرا على وجهيهما ، ثم قال موسى لهارون : خذ المجمرة واجعل فيها نارا من على المذبح وضع بخورا واذهب بها مسرعا إلى الجماعة وكفر عنهم لأن السخط قد خرج من قبل الرب قد ابتدأ الوباء . فأخذ هارون كما قال موسى وركض إلى وسط الجماعة وإذا الوباء قد ابتدأ فى الشعب ،

---

(١) النحل ١٢٤

(٢) الأعراف ١٦٣

(٣) النساء ١٥٤ ـــ ١٥٥

فوضع البخور وكفر عن الشعب ووقف بين الموتى والأحياء فامتنع الوباء . فكان الذين ماتوا بالوباء أربعة عشر ألفا وسبع مائة عدا الذين ماتوا بسبب قذرح (الذى قاد الثورة على موسى وهارون وخسفت به وبمن معه الأرض) ثم رجع هارون إلى موسى إلى باب خيمة الاجتماع والوباء قد امتنع » .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى جعلوا الرب سريع الغضب سريع الحساب يهم فى كل مرة بالبطش ببنى إسرائيل . وجعلوا موسى هو الرحيم الذى يناجى الرب ليرفع مقته وغضبه عن شعبه ، وإن موسى عليه السلام ينجح فى كل مرة فى أن يرضى الرب ويجلب رضاه على الشعب الفاسق الذى صد عن سبيل الله كثيرا .

« سبحان رب السموات والأرض ورب العرش عما يصفون »(١) . « يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير »(٢) . « إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم »(٣) . « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون »(٤) . « سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم »(٥) . « هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له

---

(١) الزخرف ٨٢ — ٨٣

(٢) التغابن ١

(٣) آل عمران ٥ — ٦

(٤) الأنبياء ٢٨ (٥) الحشر ١

الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »[١] . « إن الله بالناس لرءوف رحيم »[٢] . « وهو الغفور الودود »[٣] . و « وما الله يريد ظلما للعالمين »[٤] . « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون »[٥] . « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما »[٦] . « هو أهل التقوى وأهل المغفرة »[٧] . واستغفروا الله إن الله غفور رحيم »[٨] . « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما »[٩] .

إن فكرة ندم الإله وبطشه بعباده قد أخذت عن أساطير المصريين والبابليين ، فرَع قد أمر حتحور بأن تنزل إلى الأرض وأن تنكل بالذين كفروا برع ، فنزلت حتحور وأعملت فى الكفرة القتل ولكن أعمال التقتيل التى قامت بها حتحور بين الناس كانت من الفظاعة بحيث ندم الإله على ما أصدره من أمر ، واعتزم أن ينقذ على الأقل جانبا من الناس ..

ونزول الآلهة إلى الأرض تفيض بها الأساطير البابلية ، وإن عشتار لم تكتف بالنزول إلى الأرض بل اضطجعت مع بستانى . فأساطير الفراعنة وأساطير البابليين لعبت دورا كبيرا فى توراة المنفى فلم يستطع الذين كتبوا التوراة بعد أن طال عليهم الأمد أن يتخلصوا من الثقافة البابلية والفرعونية .

---

(١) الممتحنة ٢٢ — ٢٤
(٢) الحج ٦٥
(٣) البروج ١٤
(٤) آل عمران ١٠٨
(٥) البقرة ٢٤٣
(٦) النساء ٦٤
(٧) المدثرة ٥٦
(٨) المزمل ٢٠
(٩) النساء ١١٠ .

فامتزجت أساطير الشعوب بالتوراة التى نزلت على موسى نورا وهدى لبنى إسرائيل . فرأينا الله سبحانه وتعالى عما يصفون نزل فى سحابة وهو ثائر غاضب ثم نشر الوباء ليفنى المكذبين ، ولولا وقوف هارون بين الأحياء والأموات لقضى الرب على بنى إسرائيل ، أكان انحسار الوباء بإرادة الرب أم كان بفعل البخور ؟!

ويعود الذين كتبوا التوارة فى المنفى يؤكدون أن الله أعطى القرابين لهارون وبنيه فريضة دهرية ولم يذكر الفقراء والمساكين : « وقال الرب لهارون : وهأنذا قد أعطيتك حراسة رفائعى مع جميع أقداس بنى إسرائيل لك أعطيتها حق المسحة ولبنيك فريضة دهرية . هذا يكون لك من قدس الأقداس من النار كل قرابينهم مع كل تقدماتهم وكل ذبائح خطاياهم وكل ذبائح آثامهم التى يردُّنها لى . قدس أقداس هى لك ولبنيك ..» .

ستكون الذبائح كثيرة جدا ، أكثر من حاجة الكهنة من نسل هارون . لذلك جعلوا الرب يقبل استعاضة بعض هذه القرابين بالفضة : « ... كل فاتح رحم من كل جسد يقدمونه للرب من الناس ومن البهائم يكون لك . غير أنك تقبل فداء بكر الإنسان وبكرة البهيمة النجسة تقبل فداءه . وفداؤه من ابن شهر تقبله حسب تقديمك فضة خمسة شواقل على شاقل القدس ..» .

وليس هناك عمل يقصد به وجه الله بل لكل عمل أجر فى الدنيا ، فما ذكرت الآخرة مرة واحدة فى توراة المنفى : « وأما بنو لاوى فإنى قد أعطيتهم كل عشر فى إسرائيل ميراثا عوض خدمتهم التى يخدمونها خدمة خيمة الاجتماع » . فالعشور كانت لبنى لاوى لقاء خدمة بيت الله وما كانت تدفع إلى بيت المال لينفق منها على مصالح بنى إسرائيل ، بل صرح الرب بأن تكون لقمة سائغة لبيت هارون .

ويرتجف الذين كتبوا التوراة من الموت ويشرعون للميت شرائع قاسية ما أنزل الله بها من سلطان : « من مس ميتا ميتة إنسان ما يكون نجسا سبعة أيام ، يتطهر به فى اليوم الثالث وفى اليوم السابع يكون طاهرا ، وإن لم يتطهر فى اليوم الثالث ففى اليوم السابع لا يكون طاهرا . كل من مس ميتا ميتة إنسان قد مات ولم يتطهر بنجس مسكن الرب ، فتقطع تلك النفس من إسرائيل . لأن ماء النجاسة لم يرش عليها تكون نجسة ، نجاستها لم تزل فيها .

هذه هى الشريعة ، إذا مات إنسان فى خيمة فكل من دخل الخيمة وكل من كان فى الخيمة يكون نجسا سبعة أيام . وكل إناء مفتوح ليس عليه سواد بعصابة فإنه نجس ، وكل من مس على وجه الصحراء قتيلا بالسيف أو ميتا أو عظم إنسان أو قبرا يكون نجسا سبعة أيام . فيأخذون للنجس من غبار حريق ذبيحة الخطيئة ويجعل عليه ماء حيا فى إناء . ويأخذ رجل طاهر زوفا ويغمسها فى الماء وينضحه على الخيمة وعلى جميع الأمتعة وعلى الأنفس الذين كانوا هناك وعلى الذى مس العظم أو القتيل أو الميت أو القبر ينضح الطاهر على النجس فى اليوم الثالث واليوم السابع . ويطهره فى اليوم السابع فيغسل ثيابه ويُرحض بماء فيكون طاهرا فى المساء . وأما الإنسان الذى يتنجس ولا يتطهر فتباد تلك النفس من بين الجماعة لأنه نجَّس مقدس الرب . ماء النجاسة لم يرش عليه . إنه نجس . فتكون لهم فريضة دهرية . والذى رش ماء النجاسة يغسل ثيابه والذى مس ماء النجاسة يكون نجسا إلى المساء ، وكل ما مسه النجس يتنجس والنفس التى تمس تكون نجسة إلى المساء » .

ويستمر بنو إسرائيل فى تذمرهم ويموت هارون بعد أن ماتت أخته مريم .

« وتكلم الشعب على الله وعلى موسى قائلين : لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت فى البرية لأنه لا خبز ولا ماء وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف ، فأرسل

الرب على الشعب الحيات المحرقة فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من إسرائيل . فأتى الشعب إلى موسى وقالوا : قد أخطأنا إذ تكلمنا على الرب وعليك فصل إلى الرب ليرفع عنا الحيات . فصلى موسى لأجل الشعب ، فقال الرب لموسى اصنع لك حية محرقة وضعها على راية ، فكل من لدغ ونظر إليها يحيا ، فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية فكان متى لدغت حية إنسانا ونظر إلى الحية النحاس يحيا » .

وتسرد إصحاحات العدد خروج بلعام لمباركة إسرائيل ، وسرعان ما يزنى الشعب المختار مع بنات مؤاب ثم لا يلبثون أن يعبدوا آلهة مؤاب فعبدوا بعلا وتركوا عبادة الله ، ويقول الذين كتبوا التوراة فى المنفى إن ذلك قد حدث وموسى كليم الله بينهم ، فقال الرب لموسى : خذ جميع رءوس الشعب وعلقهم للرب مقابل الشمس فيرتد حمو غضب الرب عن إسرائيل . فقال موسى لقضاة إسرائيل اقتلوا كل واحد قدم المتعلقين ببعل فغور .

وإذا رجل من بنى إسرائيل جاء وقدم إلى إخوته المديانية أمام عينى موسى ، وأعين كل جماعة بنى إسرائيل وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع ، فلما رأى ذلك فينحاس بن العازار هارون الكاهن ، قام من وسط الجماعة وأخذ رمحا بيده ودخل وراء الرجل الإسرائيلى إلى القبة وطعن كليهما الرجل الإسرائيلى والمرأة فى بطنها ، فامتنع الوباء عن بنى إسرائيل ، وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفا .

فكلم الرب موسى قائلا : فينحاس بن العازار بن هارون الكاهن قد رد سخطى عن بنى إسرائيل بكونه غار غيرتى فى وسطهم حتى لم أفن بنى إسرائيل بغيرتى ، لذلك قل : هأنذا أعطيه ميثاق ، ميثاق السلام ، فيكون له ولنسله من بعده ميثاق كهنوت أبدى ، لأجل أنه غار لله وكفر عن بنى إسرائيل ، وكان اسم

الرجل الإسرائيلى المقتول الذى قتل مع المديانية زمرى بن سالوئيس بيت أب من الشمعونيين ، واسم المرأة المديانية المقتولة كزبى بنت صور ، هو رئيس قبائل بيت أب فى مديان » .

ألم يعط هارون من قبل ميثاق كهنوت أبدى له ولنسله ؟ أوليس فينحاس ابن إلعازار من نسل هارون ؟ فما الجديد ؟ لعل الذين كتبوا التوراة فى المنفى خشوا أن يكون الناس قد نسوا وعد الله الأول فرأوا أن يجددوه .

ويعود الذين كتبوا التوراة فى المنفى إلى القرابين والنذور فهى لب القصيد ، ثم ينتقل بنو إسرائيل من حرب إلى حرب يقتلون كل الذكور ويسبون النساء والأطفال وينهبون البهائم ويحرقون المدن . ويقول الذين كتبوا التوارة إن موسى عليه السلام قد غضب على وكلاء الجيش ورؤساء الألوف لأنهم أبقوا على النساء : « وقال لهم موسى : هل أبقيتم كل أنثى حية ؟ إن هؤلاء كن لبنى إسرائيل حسب كلام بلعام سبب خيانة للرب فى أمر نفور ، فكان الوباء فى جماعة الرب ، فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال،وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها . ولكن جميع الأطفال من النساء اللواتى لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهن لكم حيَّات . وأما أنتم فانزلوا خارج المحلة سبعة أيام . وتطهروا كل من قتل نفسا وكل من مس قتيلا فى اليوم الثالث . وفى السابع أنتم وسبيكم . وكل ثوب وكل متاع من جلد وكل مصنوع من شعر معز وكل متاع من خشب تطهرونه » .

وتكلم الإصحاح الحادى والثلاثون من سفر العدد عن الأنفال وتقسيم الغنائم ، وينتهى سفر العدد بأن يجعل الذين كتبوا التوراة الرب يحدد حدود الأرض التى وعدهم بها تحديدا كأنه مهندس مساحة .

ويبدأ سفر التثنية بإعادة تحديد الأرض التى يتطلع إليها يهود فى المنفى

فيجعلون الرب يحددها لموسى تحديدا : « الرب إلٰهنا كلمنا فى حوريب قائلا : كفاكم قعود فى هذا الجبل . تحولوا وارتحلوا وادخلوا جبل الأموريين وكل ما يليه من العربة والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر أرض الكنعانى ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات . انظر قد جعلت أمامكم الأرض . ادخلوا وتملكوا الأرض التى أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم . وكلَّمتكم فى ذلك الوقت قائلا : لا أقدر وحدى أن أحملكم . الرب إلٰهكم قد كثرهم . وهو ذا أنتم اليوم كنجوم السماء فى الكثرة . الرب إلٰه آبائكم يريد عليكم مثلكم ألف مرة ، ويبارككم كما كلمكم . كيف أحمل وحدى ثقلكم وحملكم وخصومتكم ؟ هاتوا من أسباطكم رجالا حكماء وعقلاء ومعروفين فأجعلهم رءوسكم . فأجبتمونى وقلتم حسن الأمر الذى تكلمت به أن يعمل . فأخذت رءوس أسباطكم رجالا حكماء ومعروفين وجعلتهم رءوسا عليكم ، رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين .

جعلوا الرب عاجزا وحده عن أن يحمل أثقال بنى إسرائيل وخصوماتهم ، إنه يسألهم أن يعينوه ، ويذهب الرب فى هذا الإصحاح إلى التوسل إليهم أن يصعدوا لمحاربة أهل الأرض التى وعدهم بها ، ولكنهم يحجمون ويقولون : « الرب بسبب بغضه لنا قد أخرجنا من أرض ليدفعنا إلى أيدى الأموريين لكى يهلكنا . إلى أين نحن صاعدون ؟ قد أذاب إخوتنا قلوبنا قائلين : شعب أعظم وأطول منا ، مدن عظيمة محصنة إلى السماء . وأيضا قد رأينا بنى عناق هناك ، فقلت لكم لا ترهبوا ولا تخافوا الرب إلٰهكم السائر أمامكم هو يحارب عنكم ، حسب كل ما فعل معكم فى مصر أمام أعينكم ، وفى البرية حيث رأيت كيف حملك الرب إلٰهك كما يحمل الإنسان ابنه فى الطريق التى

سلكتموها حتى جئتم إلى هذا المكان ، ولكن هذا الأمر لستم واثقين بالرب إلهكم . السائر أمامكم فى الطريق ليلتمس لكم مكانا لنزولكم فى نار ليلا ليريكم الطريق تسيرون فيها وفى سحاب نهارا . وسمع الرب صوت كلامكم فسخط وأقسم قائلا : لن يرى إنسان من هؤلاء الناس من هذا الجيل الشرير الأرض الجيدة التى أقسمت أن أعطيها لآبائكم .. » .

كلام يليق بالذين كانوا فى الأسر فى بابل ، إنهم مزعزعو العقيدة ثقتهم بالرب مخلخلة . أما أن يكون ذلك الكلام وحيا أنزل على موسى فأمر لا يمكن لعقل يعرف الله حق معرفته أن يصدقه . وهل الشعب الذى يرى الله يسير بينهم فى الليل وفى النهار فى حاجة إلى من يحضهم على إطاعة الله والامتثال إلى أوامره ما دام الله فيهم ؟! إنها أقوال تسىء إلى الشعب الذى يدعى أن الله اصطفاه . فمن يستطيع أن يصدق أن هذه الأقوال والأفعال قد صدرت من شعب يزعم أنه شعب الله المختار ؟! وإن كانت هذه الأقوال والأفعال قد صدرت حقا عن الذين فضلهم الله على العالمين فماذا تنتظر من شعوب لم يكن لهم شرف الاصطفاء ؟

إن هذه المزاعم من وحى قلوب طبع عليها الأسر وذهب بنورها ، فجاءت وعودا متضاربة قد خلت من ذكر ما أعد للمتقين فى الدار الآخرة . ويا ليتها سكتت عن اتهام الله جل وعز بالعجز عن حمل متاعب بنى إسرائيل وخصوماتهم إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى لم يكتفوا بالإساءة إلى الرسل والأنبياء بل أساءوا إلى الرب فجعلوه غيورا مرة ، ونادما على ما فعل فى حق بنى إسرائيل مرة أخرى ، وعاجزا عن حمل بنى إسرائيل وخصوماتهم مرة ثالثة ، وإن كان على الدوام متعطشا إلى الدماء والأضحية والفطير .

إن تقديم الفطير للإله عادة مصرية قديمة فما يخلو قربان لإله من آلهة قدماء

المصريين من خبز وكعك وفطير ، وقد أخذ بنو إسرائيل الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى تلك العادة بل ومراسيم تقديم القرابين وجعل الكهانة فى هارون وبنيه من اللاهوت المصرى القديم . فالكاهن المصرى القديم كان يتيه فخرا بأنه كاهن ابن كاهن ويذكر ذلك لإلٰهه ، كأن هذه الحقيقة تغيب عن الإله : « ... أنا كاهن وابن كاهن هذا المعبد .. أنا كاهن قد حضرت لأعمل ما يجب على المرء عمله ، ولم أحضر لأعمل ما لا ينبغى عمله » .

وأخذ بنو إسرائيل عادة حرق البخور للإله من قدماء المصريين ، فقد كانت البعثات فى عهد حتشبسوت تنطلق إلى بلاد بونت للعودة بالبخور للمعابد المصرية القديمة ، وكان الكاهن يقوم بحرق البخور للإله ، وقد انتقلت هذه العادة إلى بنى هارون الكاهن فقد كانوا يحرقون البخور للإله يهوه ، ومن عجب أن اسم الإله يهوه لا يزال يستعمل فى مصر العليا والسفلى : « يا ناس يا هوه » .

إن موسى أطلق اسم « يهوه » على إلٰهه فى أرض سيناء . ولم يقل الذين كتبوا التوراة فى المنفى من أين جاءت هذه التسمية ، أهى كلمة مصرية قديمة أخذها بنو إسرائيل من مصر قبل الخروج أم هى كلمة عبرية ؟!

ويقول الذين كتبوا التوراة إن موسى عليه السلام مر بأرض العيص (عيسو) ولم يعلن عليهم الحرب لأن الله قد أعطى جبل سعير ميراثا لبنى العيص . وكذلك مر بأرض مؤاب دون حرب لأن الرب قد أورث تلك الأرض لبنى لوط . إنهم بذلك يودون أن يقرروا مبدأ الميراث ليكون لهم حق فى أرض فلسطين . والقرآن الكريم يناهض ذلك المبدأ ، فالله يقول فى كتابه العزيز : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده »[1] . ثم يخصص الميراث

---

(١) الأعراف ١٢٨

والوارثين : « إن الأرض يرثها عبادى الصالحون »(١) . والله يطبع على قلوب الذين يرثون الأرض إذا ما تنكبوا سبل الرشاد وساروا فى طريق الفساد : « أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون »(٢) . فميراث قوم لأرض ليس ميراثا أبديا : « كذلك وأورثناها قوما آخرين »(٣) . ثم إن الأرض لله وسيرث الله الأرض ومن عليها : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون »(٤) . « ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير »(٥) .

ويقول الذين كتبوا التوراة إن الله قال لموسى : « أنت مار اليوم بتخم مؤاب بعَار . فمتى قربت إلى تجاه بنى عمون لا تعادهم ولا تهجم عليهم ، لأنى لا أعطيك من أرض بنى عمون ميراثا ، لأنى لبنى لوط قد أعطيتها ميراثا ... » .

أكان بنو لوط من نسل بنتيه أم من زوجات أخر ؟ إنهم كانوا من نسل بنتيه اللتين أسكرتاه واضطجعتا معه . فلماذا لم يغضب الرب من الفعلة البشعة ؟ وإذا كان قد سكت وأغمض عينيه عن تلك البشاعة أيكافىء النسل النجس بأن يورثه أرض عمان ؟ إن دل ذلك القول على شيء فإنما يدل على مدى الانهيار الخلقى الذى كان فيه الذين كتبوا التوراة بأيديهم فى أرض المنفى ، وقالوا هذا من عند الله وما هو من عند الله ، بل من عند أناس كانوا غارقين فى

(١) الأنبياء ١٠٥
(٢) الأعراف ١٠٠
(٣) الدخان ٢٨
(٤) مريم ٤٠
(٥) آل عمران ١٨٠

الدنس حتى الآذان !

ويحارب موسى عليه السلام وبنو إسرائيل الملوك الذين يمرون بأرضهم فى طريقهم إلى أرض فلسطين ، وقد انقضت أربعون سنة وهى المدة التى قضى ربهم أن يمضوها فى التيه . فقام موسى عليه السلام يبتهل إلى ربه وقد كان ابتهالا يخدم قضية اليهود الذين كانوا فى المنفى : « وتضرعت إلى الرب فى ذلك الوقت قائلا : يا سيد الرب أنت قد ابتدأت تُرى عبدَك عظمتك ويدك الشديدة ، فإنه أى إلٰه فى السماء وعلى الأرض يعمل كأعمالك وكجبروتك . دعنى أعبر وأرى الأرض الجيدة التى فى عبر الأردن هذا الجبل الجيد ولبنان . لكن الرب غضب علىّ بسببكم ولم يسمع لى . بل قال لى الرب كفاك . لا تعد كلمتى أيضا فى هذا الأمر . اصعد إلى رأس الفِسجة وارفع عينيك إلى الغرب والشمال والجنوب والشرق وانظر بعينيك ، لكن لا تعبر هذه الأرض . وأما يشوع فأوصه وشدده وشجعه لأنه هو يعبر أمام هذا الشعب وهو يقسم لهم الأرض التى تراها .. » .

هل يمكن أن يصدق إنسان يعرف حقيقة الرسالة أن موسى عليه السلام يقوم بعد أربعين سنة فى التية وبعد ما كان من آيات الله فى أرض مصر : أنت قد ابتدأت ترى عبدك عظمتك . ابتدأ ؟! يا لضيعة آيات الله البينات فى أرض الفراعنة وفى التيه وفى سيناء .. أبعد أن يزعم الذين كتبوا التوراة أن الله كان يسير كشعلة من نيران أمام بنى إسرائيل لينير لهم ظلمات الليل قبل أن ينير لهم ظلمات القلوب ، وأنه كان ينزل فى السحاب ليحدثهم فى خيمة الاجتماع ، وبعد إنزال المن والسلوى من السماء ، يقولون إن موسى عليه السلام قال للرب : أنت قد ابتدأت ترى عبدك عظمتك ؟! وهل يُعقل أن موسى عليه السلام الذى جاء ليدعو قومه لعبادة الله وحده بعد أن زاغوا عن التوحيد

وعبدوا العجل كما عبده المصريون يشرك بالله ويعترف بأن فى السماء آلهة أخرى غير الله : « فإنه أى إله فى السماء وعلى الأرض يعمل كأعمالك وجبروتك ؟ » .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا يروون تاريخا قد انقضى فوضعوا على لسان موسى عليه السلام ما يخدم قضيتهم وجعلوه لا يهتم إلا بالأرض التى يطمعون فيها ، وكانوا قد تأثروا بمعتقدات بابل فجعلوا موسى يبتهل إلى ربه كما يبتهل عباد مردوخ إلى مردوخ ، فلم يسأل موسى ربه فى التوراة التى وضعها أحبار اليهود إلا منافع أرضية ، ولنر كيف يسأل موسى ربه فى القرآن : « قال رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى . يفقهوا قولى . واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى . كى نسبحك كثيرا . ونذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا »(١) . ونلقى أسماعنا إلى قول السحرة فى القرآن المجيد : « فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى . قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى . قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى »(٢) .

---

(١) طه ٢٥ — ٣٥ (٢) طه ٧٠ — ٧٦

آيات الله بينات منذ كان موسى عليه السلام فى مصر ، وإيمان الناس ليغفر ربهم خطاياهم وليدخلهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . ولم يكن الإيمان صفقة تجارية تعقد بين الرب وعباده أن يؤمنوا به لقاء إعطائهم الأرض وسعادة الدنيا . إيمان مقابل ثمن يقبض فى الدنيا . أما ما وعد الله المتقين فشىء غير ملموس لايدخل فى حساب الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى .

مات موسى عليه السلام قبل أن يدخل فلسطين مع الداخلين ، وقد قاد يوشع فتى موسى جبوش بنى إسرائيل حتى عبروا نهر الأردن ، فجعل الذين كتبوا التوراة بأيديهم ذلك الذى حدث فعلا قبل إعادة كتابة التوراة أمرا إلهيا : « وغضب الرب على بسببكم وأقسم أنى لا أعبر الأردن ولا أدخل الأرض الجيدة التى الرب إلهك يعطيك نصيبا . فأموت أنا فى هذه الأرض . لا أعبر الأردن . وأما أنتم فتعبرون وتمتلكون تلك الأرض الجيدة . احترزوا من أن تنسوا عهد الرب إلهكم الذى قطعه معكم وتصنعوا لأنفسكم تمثالا منحوتا صورة كل ما نهاك عنه الرب إلهك ، لأن الرب الهك هو نار آكلة . إله غيور » .

ويسرد الذين كتبوا التوراة ما حدث لبنى إسرائيل واليهود حتى حملوا إلى بابل أرض السبى على أنه وعد من الله ، ثم لا يتركون اليهود فى ظلام بل يدبرون لرفع الروح المعنوية لشعبهم فيجعلون الله لا يتخلى عن شعبه . ولأول مرة نجد أن الرب قد وصف بالرحمة لأن الأمر يتعلق باليهود : « إذا ولدتم أولادا وأولاد أولاد وأطلتم الزمان فى الأرض وفسدتم وصنعتم تمثالا منحوتا صورة شىء ما وفعلتم الشر فى عينى الرب إلهكم لإغاظته . أشهد عليكم اليوم السماء والأرض أنكم تبيدون سريعا عن الأرض التى أنتم عابرون الأردن إليها لتمتلكوها . لاتطيلون الأيام عليها بل تهلكون لا محالة ويبددكم الرب فى

الشعوب فتبقون عددا قليلا بين الأمم التى يسوقكم الرب إليها . وتصنعون هناك آلهة صنعت أيدى الناس من خشب وحجر مما لا يبصر ولا يسمع ولا يأكل ولا يشم ، ثم إن طلبت من هناك الرب إلٰهك تجده إذا التمسته بكل قلبك وبكل نفسك . عندما ضيِّق عليك وأصابتك كل هذه الأمور فى آخر الأيام ترجع إلى الرب إلٰهك وتسمع لقوله ، لأن الرب إلٰهك إلٰه رحيم لا يتركك ولا يهلكك ولا ينسى عهد آبائك الذى أقسم لهم عليه » .

أحداث وقعت قبل عصر التدوين ودعوة إلى العودة إلى الله لاستنهاض الهمم وتذكير بوعد الله للآباء . إنها عبارات لا يمكن أن تكون قد أوحيت إلى موسى عليه السلام إنما هى تصوير للحالة النفسية التى كان فيها عزير ودنيال والذين شاركوا فى إعادة كتابة التوراة بعد أن أحرق كل نسخها نبوخذنصر (بختنصر) . إن اليهود فى المنفى عبدوا مردوخ وشمس وعشتار وسجدوا للأصنام ، فأراد عزير ودانيال وأحبار اليهود أن يثيروا فيهم الحماس فذكروهم بإسرائيل ورب إسرائيل ، وأسرفوا فى الوعود على لسان الرب لعل النخوة الدينية تفعل فيهم ما عجزت عنه الخطب والنصائح والخير الذى به يوعدون .

إنهم فى كل إصحاح من إصحاحات الأسفار الخمسة لا ينسون الوعد ، وما من مناسبة تمر دون أن يجعلوا الله يكرر ذلك الوعد وإن موسى عليه السلام يقول فى زعمهم : « ودعا موسى جميع إسرائيل وقال لهم : اسمعى يا إسرائيل الفرائض والأحكام التى أتكلم بها فى مسامعكم اليوم وتعلموها واحترزوا لتعملوها . الرب إلٰهنا قطع معنا عهدا فى حوريب . ليس مع آبائنا قطع الرب هذا العهد . بل معنا نحن الذين هنا اليوم جميعا أحياء : وجها لوجه تكلم الرب معنا فى الجبل من وسط النار . أنا كنت واقفا بين الرب وبينكم فى ذلك الوقت لكى أخبركم بكلام الرب . لأنكم خفتم من أجل النار و لم

تصعدوا إلى الجبل . فقال : أنا هو الرب إلٰهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ..» .

فالوعد كان لإسرائيل وقد جدده الله لموسى وقومه فى سيناء . وإن الذين كتبوا التوراة بأيديهم لا يفتأون يذكرون ذلك الوعد بمناسبة وبدون مناسبة حتى يصبح حقيقة فى أذهان اليهود الذين كانوا يرتجفون فرقا كلما تصوروا أنهم قد يضطرون للحرب للعودة إلى الأرض التى حملهم منها بختنصر يوم حملهم إلى العراق أذلة صاغرين .

وتستمر إصحاحات سفر التثنية تتحدث عما أوصى به موسى شعبه عندما يدخلون الأرض التى حلف الرب للآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب بأن تكون لنسلهم . وإن قارىء الإصحاحات السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ليضيق من كثرة ترديد الوعد . فالذين كتبوا التوراة بأيديهم بالغوا مبالغة تضيق بها الصدور من زعمهم فى كل إصحاح أن الرب لا هم له فى ملكه إلا ذلك الوعد الذى لا يبرره منطق الأحداث ولا تصرفات بنى إسرائيل ، فإنهم أعرضوا عن وصايا الرب وعصوه فى سيناء وعصوه لما أمرهم بأن يقاتلوا أعداءهم : « وحين أرسلكم الرب من قادش برنيع قائلا : اصعدوا امتلكوا الأرض التى أعطيتكم عصيتم قول الرب إلٰهكم ولم تصدقوه ولم تسمعوا لقوله . قد كنتم تعصون الرب منذ يوم عرفتكم » .

فإذا كان بنو إسرائيل — فى زعم الذين كتبوا التوراة — يعصون الرب منذ عرفهم موسى فهل يستحقون ذلك الوعد الذى لا يكاد يخلو منه إصحاح ؟ إنها دعوة سياسية قبل أن تكون دعوة دينية ، وقد أفلحوا فى أن يستغلوا الدين لخدمة قضية الشعب الذى كان مشردا بين الشعوب .

وإن الذين كتبوا التوراة فى بابل جعلوا موسى عليه السلام يتحدث كما

يتحدث كهنة بابل ، فصلاته لله إنما ليطيل أيامه فى الأرض كما كانت صلاة البابليين ، وتسبيحه وتسبيح بنى إسرائيل إنما ليطرد الرب الشعوب من أمامهم ليرثوا أرضهم ولا شيء بعد ذلك . إن موسى التوراة يقول : « فضعوا كلماتى هذه على قلوبكم ونفوسكم واربطوها علامة على أيديكم ولتكن عصائب بين عيونكم . وعلموها أولادكم متكلمين بها حين تجلسون فى بيوتكم وحين تمشون فى الطريق وحين تنامون وحين تقومون . واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك . لكى تكثر أيامك وأيام أولادك على الأرض التى أقسم الرب لآبائك أن يعطيهم إياها كأيام السماء ، ولأنه إذا حفظتم جميع هذه الوصايا التى أنا أوصيكم بها لتعلموها ، لتحبوا الرب إلٰهكم وتسلكوا فى جميع طرقه وتلتصقون به ، يطرد الرب جميع هؤلاء الشعوب من أمامكم فترثون شعوبا أكبر وأعظم منكم ، كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم . من البرية ولبنان . من النهر نهر الفرات إلى البحر الغربى يكون تخمكم . لا يقف إنسان فى وجهكم . الرب إلٰهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على كل الأرض التى تدوسونها كما كلمكم » .

إنها الأرض ، كل همهم أن يطرد الرب الشعوب من أمامهم ليرثوها ، أما طاعة الرب ليرثوا جنات عرضها السماوات والأرض فما خطرت على قلب الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى ، إنهم كانوا فى جحيم أرضى فكانت أحلامهم تنحصر فى فردوس أرضى ، وفى إله يطرد لهم الشعوب ويحمل عنهم قسوة الحرب ويقدم لهم الأرض هدية من إله يتهلل بالفرح لأنهم يعبدونه وهو غافل لايدرى أن عبادته إن هى إلا رشوة ليمنحهم كل مكان تدوس بطون أقدامهم .

ويذكر موسى عليه السلام وصاياه ولا ينسى الذين كتبوا التوراة أن يجعلوه

يعيد ذكر الذبائح ، وفى الإصحاح الرابع عشر يضعون على لسانه أن الله جعلهم شعبا مختارا : « .. وقد اختارك الرب لكى تكون له شعبا خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » .

وتعود الإصحاحات لتشرع بيع العبرانى للعبرانى وما يقدم من الأنعام والغنم للرب . والفصح وكيف يصنع وعيد المظال وحدد الشرع مدته بسبعة أيام احتفالا بالحصاد . وقد أخذ هذا العيد عن أعياد النيروز فقد أعيدت كتابة التوراة أيام أن كانت العراق فى حكم فارس فى عهد الساسانيين . وحدد الشرع « ثلاث مرات فى السنة يحضر جميع ذكورك أمام الرب إلٰهك فى المكان الذى يختاره فى عيد الفطير وعيد الأسابيع وعيد المظال . ولا يحضروا أمام الرب فارغين . كل واحد حسبما تعطى يده كبركة الرب الذى أعطاك » .

أليست هذه وصية كهان ينتظرون ما فى أيدى الناس : « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد »(١) . « وربك الغنى ذو الرحمة »(٢) . « إن الله لغنى عن العالمين »(٣) . « لله ما فى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد »(٤) . ولا عجب أن قال اليهود فى أيام محمد ـ ﷺ : « إن الله فقير ونحن أغنياء »(٥) . ما دام كهان التوراة قد خدعوهم بتحذيرهم من الوقوف بين يدى الرب وأيديهم فارغة ، كأنما الرب فى حاجة إلى لحوم الأضاحى والحنطة والفطير !

ويوصى الرب موسى عليه السلام ـ حسب أقوال الذين كتبوا التوراة بأيديهم ـ بأن يجعل ثلاث مدن فى وسط الأرض التى وعده الله بها حراما

---

(١) فاطر ١٥ (٢) الأنعام ١٣٣
(٣) العنكبوت ٦ (٤) لقمان ٢٦ .
(٥) آل عمران ١٨١ .

يأمن فيها من قتل آخر خطأ ، ويشرع له فى الشهادة أن شاهدا واحدا لا يكفى لإثبات ذنب أو خطيئة فلا بد من شاهدين أو ثلاثة .

ويوصى رب إسرائيل موسى عليه السلام — حسب مزاعم الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى — وصية تقشعر منها أبدان الذين يعرفون الله ، فإنه يوصيه إذا ما حارب شعبا وطلب ذلك الشعب الصلح فإن على بنى إسرائيل استعباد ذلك الشعب ، أما إذا أبى الشعب الصلح وكان النصر حليف اليهود فإن رب إسرائيل يأمر بضرب رقاب جميع الذكور واستحياء النساء والأطفال وأخذهم موالى وعبيدا . وإنه لحكم لا يمكن أن يصدر عن رب الناس إله الناس الرحمن الرحيم ، ولكنه حلم الذين ذاقوا مرارة ذل الأسر . إنهم يشتهون أن ينفسوا عن أحقاد قلوبهم فوضعوا على لسان الرب أقوالا لا تصدر عن قائد جيش فى قلبه ذرة من رحمة . فما بالك بإله رحيم وسعت رحمته كل شىء ، برغم أنف كهان بنى إسرائيل الذين أنطقوه بكراهية أبشع من الصديد ؟

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلٰهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلٰهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلٰهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما .. » .

قول يقطر مرارة لا يمكن أن يكون وحى إله حكيم ،إن الله يقول فى محكم كتابه : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع

(١) سورة الأنفال ٦١

العليم » . « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

ويزعم الذين كتبوا التوراة بأيديهم أن الرب نهى موسى عن أشياء لا تقدم ولا تؤخر فى حياة البشرية : « إذا اتفق قدامك عش طائر فى الطريق فى شجرة ما أو على الأرض فيه فراخ أو بيض والأم حاضنة الفراخ أو البيض فلا تأخذ الأم مع الأولاد . أطلق الأم وخذ لنفسك الأولاد لكى يكون لك خير وتطيل الأيام » . « لا تزرع حقلك صنفين .. » . « لا تحرث على ثور وحمار معا . لا تلبس ثوبا مخططا صوفا وكتانا معا » .

ثم يوضح رب إسرائيل — على حسب مزاعم الذين كتبوا التوراة — ما يفعله شيوخ إسرائيل فيمن يدعى أن الفتاة التى دخل بها لم تكن بكرا وفيما يفعلونه لو أثبت أبواها أنها كانت عذراء . « إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة فأمسكها واضطجع معها فوُجدا ، يُعطى الرجل الذى اضطجع معها لأبى الفتاة خمسين من الفضة وتكون له زوجة من أجل أنه قد أذلها . لا يقدر أن يطلقها كل أيامه » .

شرائع سبق أن تقررت فى إصحاحات سابقة ، ومن عجب أن رب إسرائيل الذى خلقه خيال أحبار اليهود فى المنفى يحرم الربا ويحلله فى نفس الوقت . إنه حرام أن يقرض إسرائيلى إسرائيليا آخر بالربا . أما إقراض إسرائيلى لأجنبى فينبغى أن يكون بالربا . « ولا تقرض أخاك بربا : ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شىء ما مما يقرض بربا . للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك

---

(١) البقرة ١٩١ — ١٩٣

لا تقرض بربا لكي يباركك الرب إلٰهك فى كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها » .

ويحرم رب إسرائيل أن تعود المرأة إلى زوجها الأول إذا طلقها زوجها الثانى أو مات عنها ، فذلك فى شريعة الذين كتبوا التوراة رجس من عمل الشيطان يغضب الرب . ويعود ذلك الرب ليقرر مبدأ عادلا وإن كان يتنافى مع ما سبق أن قرره أكثر من مرة ، فإنه ينتقم من الآباء فى الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع : « لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء . كل إنسان بخطيئته يقتل » .

ويتذكر رب إسرائيل فجأة الغريب واليتيم والأرملة وإن كان لم ينس أبدا اللاويين والكهان : « متى فرغت من تعشير كل عشور محصولك فى السنة الثالثة سنة العشور . وأعطيت اللاوى والغريب واليتيم والأرملة فأكلوا فى أبوابك وشبعوا ، تقول أمام الرب إلٰهك : قد نزعت المقدس من البيت ، وأيضا أعطيته للاوى والغريب واليتيم والأرملة حسب كل وصيتك التى أوصيتنى بها . لم أتجاوز وصاياك ولا نسيتها . لم آكل منه فى حزنى ولا أخذت منه فى نجاسة ولا أعطيت منه لأجل ميت بل سمعت لصوت الرب إلٰهى وعملت حسب كل ما أوصيتنى . اطّلع من مسكن قدسك من السماء وبارك شعبك إسرائيل والأرض التى أعطيتنا كما خلفت لآبائنا أرضا تفيض لبنا وعسلا » .

ويروى الإصحاح الثامن والعشرون من سفر التثنية ما ينعم به بنو إسرائيل من نعم أرضية إذا ما سمعوا وأطاعوا ، فإن الرب يرفعهم فوق جميع الأمم ويبارك فى أولادهم وفى زرعهم ، ويسوق لهم السحاب وتمطر لهم السماء ، أما إذا عصوا الرب و لم يسمعوا ويطيعوا فإنه ينزل بهم سوط عذاب . وقد

جعل الذين كتبوا التوراة فى المنفى ما هم فيه كأنه نبوءة ، قالوا على لسان الرب: « .. تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها . تبنى بيتا ولا تسكن فيه . تغرس كرما ولا تستغله . يذبح ثورك أمام عينك ولا تأكل منه ، يغضب حمارك أمام وجهك ولا يرجع إليك . تدفع غنمك إلى أعدائك وليس لك مخلص . يُسلم بنوك وبناتك لشعب آخر وعيناك تنظران إليهم طول النهار فتكلاّن وليس فى يدك طائلة . ثمر أرضك وكل تعبك يأكله شعب لا تعرفه . فلا تكون إلا مظلوما ومسحوقا كل الأيام . وتكون مجنونا من منظر عينيك الذى تنظر » . ويستمر الرب فى ذكر ألوان العذاب ولا تفترق فى كثير ولا قليل عما حاق ببنى إسرائيل فى أرض السبى .

وفى الإصحاح الخامس والعشرين كلام لا يمكن أن يكون وحى إله : « إذا سكن إخوة معا ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبى . أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة ويقوم لها بواجب أخى الزوج . والبكر الذى تلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحى اسمه من إسرائيل .

وإن لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه تصعد امرأة أخيه إلى الباب إلى الشيوخ وتقول : قد أبى أخو زوجى أن يقيم لأخيه اسما فى إسرائيل ، لم يشأ أن يقوم لى بواجب أخى الزوج . فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه ، فإن أصر وقال : لا أرضى أن أتخذها . تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتبصق فى وجهه وتصرخ وتقول : « هكذا يفعل بالرجل الذى لا يبنى بيت أخيه فيدعى اسمه فى إسرائيل : بيتا مخلوع النعل » ..

إن عادة زواج الأخ من زوجة أخيه المتوفى عادة يابانية ، وقد يكون مردوخ أو شماس أو أى آلهة البابليين قد شرعها ولكنه لم يقل أبدا بما قال به

كهان بنى إسرائيل وأنطقوا به إلٰههم . فهل يمكن أن تتصور أن إلٰها يأمر بخلع نعل رجل لا يرغب فى الزواج من امرأة أخيه وأن يحرضها على أن تبصق فى وجهه ؟ إنه إلٰه سوقى لا يمكن أن يكون له مكان إلا فى عقول مريضة أضناها ذل الأسر وتأثرت بأسوأ ما فى أساطير الشعوب .

وتستمر الوصايا وهى جميعا وصايا سبقت فى أسفار سابقة حتى يحين أجل موسى عليه السلام : « وقال الرب لموسى هو ذا أيامك قد قربت لكى تموت . ادع يشوع وقفا فى خيمة الاجتماع . فتراءى الرب فى الخيمة فى عمود سحاب ووقف عمود السحاب على باب الخيمة . وقال الرب لموسى : ها أنت ترقد مع آبائك فيقوم هذا الشعب ويفجر وراء آلهة الأجنبيين فى الأرض التى هو داخل إليها فيما بينهم ويتركنى وينكث عهدى الذى قطعته معه . فيشتعل غضبى عليه فى ذلك اليوم وأتركه وأحجب وجهى عنه .. » .

موسى عليه السلام يرقد مع آبائه . هذا كل جزائه . لا جنة عالية ولا نعيم مقيم . ورب يعلم أن بنى إسرائيل سيعبدون آلهة الشعوب وعلى الرغم من ذلك يباركهم ويجعلهم فى زعمهم شعبه المختار . وهو يخبر رسوله وهو على حافة القبر أن الشعب الذى أخرجه من مصر وأراهم المعجزات سرعان ما يرتدون إلى الكفر ، ومع ذلك يستمر ذلك الإلٰه بينهم ويوصى يشوع بن نون بأن يتشدد : « وأوصى يشوع بن نون وقال : « تشدد وتشجع لأنك أنت تدخل بنى إسرائيل الأرض التى أقسمت لهم عنها وأنا أكون معك » .

ألست معى أنه إلٰه غريب يصر على أن يعطى الأرض لأناس لم يصدقوه يوما ، بل إنه يعرف أنهم سيرتدون عن عبادته إلى عبادة آلهة آخرين ، ومع ذلك يصمم على أن يسير معهم ليهزم أعداءهم ويمنحهم الأرض التى أقسم لهم عنها جزاء كفرهم وعصيانهم ؟

استمع إلى موسى عليه السلام يقول لهم : « خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلٰهكم ليكون هناك شاهدا عليكم . لأنى أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة . هو ذا وأنا بعد حى معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحرى بعد موتى ؟ » .

هذه هى الأسفار الخمسة التى يؤمن بها بنو إسرائيل جميعا ، السامريون واليهود ، وقد عبث بها الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى وسنناقش باقى الأسفار التى لا يؤمن بها السامريون فى التذييل التالى إن شاء الله .

القاهرة فى : ٢٦ / ٩ / ١٩٦٩

المراجـــع

القرآن الكريم	
الكتاب المقدس	
صحيح البخارى	
السيرة النبوية	لابن هشام
إنسان العيون (السيرة الحلبية)	لعلى بن برهان الدين الحلبى
بلوغ الأرب	للألوسى
نهاية الأرب	للنويرى
إيران فى عهد الساسانيين	لكريستينس ـــ ترجمة د . يحيى الخشاب
نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار	للشيخ الشبلنجى
إحياء علوم الدين	للغزالى
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام	لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى
حقوق الإنسان فى الإسلام	للدكتور على عبد الواحد وافى
محمد رسول الله	مولاى محمد على
الرسول . حياة محمد	ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد فرج وعبد الحميد جوده السحار
الإسلام والنظام العالمى الجديد	مولاى محمد على ترجمة أحمد جوده السحار

الدين القيم	لأبى الأعلى المودودى
المستشرقون والإسلام	للمهندس زكريا هاشم زكريا
نساء النبى	للدكتورة بنت الشاطئ
عبقرية محمد	لعباس محمود العقاد
الروض الآنف	للسهيلى
تاريخ الطبرى	
مشكلة الحرية	للدكتور زكريا إبراهيم
فاطمة الزهراء والفاطميون	لعباس محمود العقاد
أسباب النزول	للواحدى
شرح نهج البلاغة	لابن أبى الحديد
الملل والنحل	للشهرستانى

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

- أحمس بطل الاستقلال
- أبو ذر الغفارى ترجم إلى الاندونيسية
- بلال مؤذن الرسول
- فى الوظيفة (مجموعة أقاصيص)
- سعد بن أبى وقاص
- همزات الشياطين (مجموعة أقاصيص)
- أبناء أبى بكر الصديق
- فى قافلة الزمان (رواية)
- أميرة قرطبة (قصة)
- النقاب الأزرق (قصة)
- المسيح عيسى بن مريم
- أهل بيت النبى
- محمد رسول الله

تأليف : مولاى محمد على
ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى

- قصص من الكتب المقدسة (مجموعة أقاصيص)
- صدى السنين (مجموعة أقاصيص)

ترجمت إلى الإندونيسية

- حياة الحسين
- الشارع الجديد (رواية)
- وكان مساء (قصة)
- أذرع وسيقان (قصة)
- المستنقع (قصة)
- ليلة عاصفة (مجموعة أقاصيص)

— الحصاد (رواية)
— جسر الشيطان (قصة)
— النصف الآخر (قصة)
— السهول البيض (رواية)
— أم العروسة (قصة)
— قلعة الأبطال (قصة)
— وعد الله وإسرائيل
— عمر بن عبد العزيز
— هذه حياتى
— الحفيد
— ذكريات سينمائية
— كشكك الموسيقى
— خفقات قلب
— صور وذكريات
— الإسراء والمعراج
— القصة من خلال تجاربى الذاتية
— عدو البشر
— أبطال الجزيرة الخضراء
— النمر
— الله اكبر
— ثلاثة رجال فى حياتها
— مسجد الرسول
— فات الميعاد
— آدم إلى الأبد
— العرب فى أوربا
— الدستور من القرآن العظيم

القصص الديني
(للاطفال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٤ »
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ »
العرب فى أوربا	فى ٢٤ جزءا

السيرة النبوية فى ٢٠ جزءًا

١ ـــ إبراهيم أبو الأنبياء
٢ ـــ هاجر المصرية أم العرب
٣ ـــ بنو إسماعيل
٤ ـــ العدنانيون
٥ ـــ قريش
٦ ـــ مولد الرسول
٧ ـــ اليتيم
٨ ـــ خديجة بنت خويلد
٩ ـــ دعوة إبراهيم
١٠ ـــ عام الحزن
١١ ـــ الهجرة
١٢ ـــ غزوة بدر
١٣ ـــ غزوة أحد
١٤ ـــ غزوة الخندق
١٥ ـــ صلح الحديبية
١٦ ـــ فتح مكة
١٧ ـــ غزوة تبوك
١٨ ـــ عام الوفود
١٩ ـــ حجة الوداع
٢٠ ـــ وفاة الرسول

ثمن الجزء الواحد عادى جنيهان
ثمن الجزء الواحد ممتاز ثلاثة جنيهات ونصف
ثمن المجموعة المجلدة تجليدا فاخرا فى ٢٠ مجلدا ٩٥ جنيها

رقم الإيداع ٤٢٢٨ / ٧٨
الترقيم الدولى ٨ ــ ٢٨١ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه